

الفرقان
في

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصائغ

انتشارات فقه هند اسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ
لَهُ عِوَجًا ۝ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ۝ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ
اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝

فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا
الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٨﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا
لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٩﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَعِيدًا جُرُزًا ﴿١٠﴾



المحور الرئيسي في الكهف هو تصحيح العقيدة وتثبيتها وإصلاح المنهج
الفكري والنظري وإقامة القيم القيمة بميزان الله ، فيها ابتداء بالحمد لله
منزل الكتاب القيم الحاوي تلکم القيم ، وانتهاء بالعمل الصالح ونفي
الشرك ، وبينهما قصص منقطعة النظير في سائر القرآن ترأسها الكهف
وتختتمها قصة ذي القرنين وبينهما قصة الجنيتين ، وقصة موسى مع خضر ،
وإشارة الى قصة آدم وابليس ، وهذه القصص تستغرق احدى وسبعين من
عشر ومائة من آي السورة ، ثم وما تبقى منها تعقيبات على قصصها وإلى
بعض مشاهد القيامة وسائر الحياة ام ماذا من مذكرات هذه القصص ،
فلإنها ليست مجرد قصص تروى ، بل هي حقائق تاريخية تلقى كدروس
منضجة للعقول منتجة في كل الحقول لمن القى السمع وهو شهيد .

ولماذا قصة الكهف بين قصصها تختص إسم السورة بنفسها ؟ لأنها كهف لمن يفر بدينه ، كهف للمتمسكين بالتوحيد ، المستقيمين فيه ، المحافظين عليه ، والتوحيد هو حجر الأساس فيما يتبناه القرآن في سوره كلها ، فلتكن هذه كهفا بينها .

﴿الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾^(١) قياً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذي يعملون الصالحات ان لهم اجراً حسناً ﴿^(٢)

«الحمد لله» تستغرق كل حمد من كل حامد ولكل محمود فتحصره في الله ، لأنه الله ، وتحصره عن سوى الله لأنه سوى الله ، ثم لأنه «رب العالمين» كما في فاتحة الكتاب ، ربوبية تكوينية وتشريعية للعالمين ككل ، وهنا لأنه «انزل على عبده الكتاب» فانه كأنه هو ربوبيته كلها ، فانه الغاية القصوى من خلق الكون بمن فيه العالمون ، فالحمد لله لأنه «انزل على عبده الكتاب» كالحمد لله لأنه «رب العالمين» !

و«انزل» اللاحقة بنزول دفعي كما التنزيل هو التدريجي - لا يعني هنا نزوله في ليلة القدر حيث الغاية المعنية هنا «لينذر» . . . ويبشر» لا تناسب إلا تفصيل الكتاب المنزل ، اللهم إلا اعتباراً للكتاب المفصل أمراً واحداً طياً عن طول الزمان وعديد النزول ، بل «الكتاب» ككل .

ولماذا «على عبده» لا محمد ولا الرسول ؟ عله للتدليل على الشرط الأصيل في ذلك الإنزال التنزيل وهو العبودية القمة ، فبانزال الكتاب على عبده تحصل الرسالة ! .

ثم و«عبده» مفرداً كانه هو عبده لا سواء ، دون عبد من عباده ؟
تلميحاً لأنه في قمة العبودية ، لا يساوى ولا يسامى «قل إن كان للرحمن
ولد فانا أول العابدين» .

فمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) «عبده» كانه فقط لا سواء ، فلا
نجد «عبده» في اشرف المواقف إلا إياه «انزل الفرقان على عبده» «فاوحى
الى عبده» «هو الذي ينزل على عبده» «اليس الله بكاف عبده» اللهم
إلا «ذكر رحمة ربك عبده زكريا ، اذ نادى ربه نداء خفياً»^(١) ولكن «زكريا»
هنا تبين انه لولاه لما عرف بـ «عبده» .

وكذلك القرآن كتابه «الكتاب» كل الكتاب كان لا كتاب سواء ،
كتاب في القمة ينزل على (عبد) في القمة ولأنه يحوي كل كتابات الوحي
وزيادة !

ثم «ولم يجعل له عوجاً ، قيباً» حالان وصفتان ، أولاهما سالبة تسلب
عنه كل نقص وانحراف ، واخرهما ايجابية تثبت له كل كمال ، وهذه
طريقة مثلى في كل تعريف كامل وكما في اسس الاسلام «لا اله إلا الله»
تخلية ثم تجلية .

والعوج فتحاً هو ما يدرك بالبصر سهلاً ، وكسراً ما يدرك بالبصيرة ،
فلا يرى ارباب البصيرة في القرآن ونبيه انحرافاً واعوجاجاً وفطوراً :
«فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك
البصر خاسئاً وهو حسير» (٤: ٦٧) قرآناً عربياً غير ذي عوج» (٢٨: ٣٩)
وحقيقته ان يكون فيها يصح عليه ان ينتصب ، ويميل ويضطرب ويستقيم ،

(١) على الترتيب ٢٥ : ١ - ٥٢ : ١ - ٥٧ : ٩ - ٢٩ : ٢٦ و ١٩ : ٢ .

سورة الكهف / آية ١-٣ ١١

فقد يجعل الله ما يتوارد عليه الحالتان فهو غير معصوم ، أم لا يتوارد له الا حالة واحدة كما القرآن ونبي القرآن ، فالعصمة لزامهما دون نكوب عن المنهاج ولا هوة الاعوجاج .

والقيم هو مؤكد القيام والقوام ، تعنيهما «قيماً» ايأ كان ، قواماً في نفسه إذ يهدي للتي هي اقوم ، وقياماً في دعوته إذ يقوم القاعدین ويستيقظ النائمین ،

في سائر القرآن لا نجد قيوماً إلا الله ولا قيماً إلا القرآن وقد يقرنان : « الله لا إله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق » (٢: ٣) فمن قيموميته نزل ذلك الكتاب القيم ، فهو قيم كما الله منزله قيوم ، باق يدوم ما بقي الدهر دون تحرف او نسخ .

فالقرآن قيم كما نبي القرآن ، والدين منها وبينهما قيم «فاقم وجهك للدين القيم من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله » (٣٠ : ٤٣) «رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . فيها كتب قيمة » (٣ : ٩٨) «وذلك دين القيمة » (٩٨ : ٥) وأقوم القيم في هذا الدين والكتاب قيمة التوحيد القيمة «امر الا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم » (١٢ : ٤٠) وكما ينبو من الفطرة التي فطر الناس عليها ؛ «ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (٣٠ : ٣٠) .

ثم «له» في الحال الاولى تعني «عبده» و«الكتاب» على البذل ، كما الجملة حال عن الإنزال ، فتعني : انزل «ولم يجعل له عوجاً» : إنزال دون عوج ، كما ومُنزل دون عوج : الكتاب ، ومُنزل دون عوج «عبده» حال مثلثة عن ثلاث : إنزالاً ومُنزلاً ومُنزلاً !

و«قيماً» حال مربعة ، هذذ،والله،فانه قيم وإنزاله قيم وكتابه قيم وعبده قيم !

ومن العوج في إنزال الكتاب الوحي ان يشتبه بوحى الشيطان او ينسى ، ومن العوج في «عبده» نقصان في مثلث العصمة : تلقياً وإلقاءً وتطبيقاً لوحى الكتاب ، ومن العوج في الكتاب ، تعرضه لتحريف او نسخ ، او عوج له في دلالة او مدلول أما ذا « قرأنا عربياً غير ذي عوج » .

وكما الله قيم ، فانزاله «الكتاب» قيم وكتابه قيم ورسوله قيم بقيمة العبودية وقوامتها أماذا من لزامات الرسالة بالوحي .

فكل عوج من العوج عن الثلاث منفية ، وكل قوامة وقيام للاربع مثبتة . ولماذا «لم يجعل» والعبد دون اتصال بالوحي اعوج دون ان يجعل له عوج ، وهو متصلاً بالوحي ليس له عوج ؟

وهكذا الأمر في الكتاب ، وأما الأنزال فطالما العبد متصلاً بالوحي ليس له عوج ؟ علّ جعل العوج في «عبده» ان ينقص من كماله الرسالي كما في الكتاب من كماله في الوحي ، فلان الوحي والرسالة يقتضيان كمالاً دون عوج ، فلا يتصور لهما عوج إلا ان يجعل لهما عوجاً .

وما هو الهدف في ذلك الإرسال مختصراً لا مختصراً ؟ : «لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً حسناً . ما كثر فيه ابداً»

وترى ما هو البأس الشديد ؟ ومن لدن من هو ؟ انه بأس شديد من الله عذاباً في الدنيا واشد منه في الاخرى ، وبأس شديد من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حرباً منه ومحارباً هو من لدنه كعلي (عليه السلام) فانه من رسول الله وحربه منه فمن لدنه : الله ، يعم عذابات الله ، ومن لدن رسول الله : يعم لدنه متصلاً : حربه ، ومنفصلاً محاربه الذي هو من لدنه (١) .

(١) فضمير الغائب راجع الى الله اصالة ، وإلى الرسول رسالة ، رجوعاً بديلياً الى كل عل =

«من لدنه» تتعلق بالمستقر المحذوف «كائناً» لينذر بأساً كائناً من لدنه ، لا لينذر من لدنه لانه من توضيح الواضح !

فتيجة عدم القوام بهذا القيم ، بأس في الحياة الدنيا ومعيشة ضنك :
« من اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة اعمى »
« بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » (١٤: ٥٩) ثم بأس اشد في الأخرى : « والله اشد بأساً واشد تنكيلاً » (٨٤: ٤) .

«ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات» فغير المؤمنين التاركين الصالحات يُنذرون بأساً شديداً ، والمؤمنون العاملون الصالحات يبشرون أجراً حسناً ، فإين هم المؤمنون التاركون الصالحات ؟ طبعاً هم عوان بين ذلك ، لا الى بأس شديد ولا أجر حسن . لهم بأس قدر ترك الصالحات ، ولهم أجر قدر الإيمان والحسنات « ماكثين فيه ابدًا » .
هؤلاء في بأس شديد واولاء في أجر حسن .

ومن بين المنذرين من هم من انحسهم واسوءهم ادباً لرب العالمين :
وينذر الذين قالوا اتخذوا الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون إلا كذباً » .

«اتخذ ولداً» ولادة او تشريقاً «ما لهم به من علم» جنس العلم أياً كان «ولآبائهم» الذين هم على اثارهم مقتدون ، مقلد جاھل ومقلد جاھل في قوله جاھلة قاحلة « كبرت كلمة تخرج من افواههم » ولا ترتبط

= حقه، ومن بأسهم في الاولى في التأويل ام عموم الدلالة كمصدق جلي وفي بأس الحرب الامام علي (عليه السلام) وهو من لدن رسول الله كما في تفسير العياشي عن البرقي عن رواه رفعه عن ابي بصير عن ابي جعفر (عليه السلام) لينذر بأساً شديداً من لدنه قال: البأس الشديد علي وهو لدن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قاتل معه عدوه فذلك قوله : «لينذر بأساً شديداً من لدنه» .

بعقولهم وأفكارهم فلا تتجاوز الأفواه ، فالكلمات العاقلة العالمة تخرج من نبعة العلم ومصدر العقل ثم تصل الى الفم ، ف « ان يقولون إلا كذباً » ذا بُعدين ، حيث تناحر كلمتهم تلك لا فقط الواقع بل وعقولهم إذ « ما لهم به من علم » !

فهناك صدق مطلق : قول يوافق مثلث العقيدة والعمل والواقع مسنوداً الى دليل بارع ، وكذب مطلق : لا يستند الى علم نفسي ولا علم تقليدي ولا يوافق الواقع ، ومن أكذبه ما يستحيل دليلاً وواقعاً كالقول « اتخذ الله ولداً » ف « ان يقولون إلا كذباً » تحصر قولتهم تلك في كذب على كل ابعاده ، عريقاً في الكذب حيث يستحيل صدقه لاستحالة واقعه والدليل عليه .

وبينهما صدق وكذب نسيان ، كمن يقول ما لا يعتقد ولا يعمل وفقه رغم انه واقع كقولة المنافقين « نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » فانها صادقة بجنب الواقع وكاذبه في نفسه اذ لا يعتقد .

او يقول ما يعتقد ويخالف الواقع ، وافقه عملياً او خالفه ، وهو يعاكس قول المنافقين ، فاردء دركات الكذب هو المطلق المستحيل ، ثم المطلق الممكن ، ثم ما يخالف العقيدة ثم المخالف للواقع ، ثم ما خالفه عمله .

كما واصدق الصدق هو المطلق الواجب ثم ما بعده نازلاً فنازلاً .

والقائلون اتخذ الله ولداً ، كاذبون في ابعاده كله : الا علم لهم شخصياً^٢ ولا تقليدياً^٣ فلا يعتقدون ما يقولون^٤ ولا يوافق الواقع^٥ ولن يوافقه^٦ ولن يجدوا له ولداً^٧ ولن يجدوا لقولهم برهاناً ، فهم في دركاتهم السبعة الجهنمية من كذبهم ف « ان يقولون إلا كذباً » !

وانها كلمة خاوية المدلول لا تحوي معنى بأي معنى ، إذ لا تدل على

واقع معتمد ولا الواقع المطلق ، اذاً فهي «كبرت» في الاكاذيب اذ ليس فيها إلا كَذِبٌ ، معناها فظيع ، وفحواها عظيم ، فكبرت الكلمة كلمةً تخرصاً في ذات الله دون تحرس .

﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾

لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين « (٢٦ : ٣) » فلا تذهب نفسك عليهم حسرات « (٣٥ : ٨) » وبخوع النفس هو قتلها غماً وهماً ، وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يتحسر على تركهم الايمان كأنه باخع نفسه ، فنهاه الله تعالى عن ذلك تحنناً عليه وتلطفاً ، وما «لعل» هنا إلا موضع ترج لموقف الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من دعوته لو خلى وطبعه والله ينهاء تحنناً وتعطفاً عليه لا انه تعالى يترجأه وحاشاه ! .

و«هذا الحديث» هو القرآن كما ونبي القرآن حديث «او لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين . او لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض .. فبأي حديث بعده يؤمنون» (٧ : ١٨٥) وكما الله ثالث اثنين حديث : «فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون» (٤٥ : ٦) والقرآن ونبيه من آياته ، احاديث ثلاثة لا تعني حدثاً ولا سيما في الله ، وإنما ما يتحدث عنه ناصعاً مبرهنناً لاختفاء فيه ، إلا في القرآن ونبيه فانها من حديث نحات اضافة ناقصة عن حديث الله غير الحادث ، ومن الطريف الظريف ان هذا الحديث القرآن يعم الثلاثة في بُعدين ، ثانيهما انه اهم حديث في القرآن حيث يتحدث عن الله ، ويتحدث عن نفسه وعن رسول الله ، تعريفات ثلاث بمثلث الحديث !

و«آثارهم» هي الآثار السبئية في الحياتين فهي من مخلفات «لم يؤمنوا بهذا الحديث» فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، ولا تبخع على آثارهم أسفاً! .. أو ان آثارهم خلفهم ، تلاحقهم لتلحقهم قاتلاً نفسك

خلفهم «ان لم يؤمنوا...» ألا يا صاحب الرسالة السامية ؟ انت تؤدي واجبك ثم وما عليك الا يهتدوا فـ « لا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون » (١٦ : ١٢٧) « إن عليك إلا البلاغ وعلينا الحساب » .

وفي الحق حقيق لحامل رسالة ودعوة ان يبخل نفسه اذا قصر في رسالته ، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ما قصر ولن : فلماذا البخوع أسفاً ؟ .

وغير حقيق له ان يبخل لماذا الله ما حملهم على الهدى وهم مصرون على الردى ، فان الله لا يحمل احداً لا على هدى ولا ردى ، فلماذا البخوع اسفاً ؟؟

وغير صحيح ان يبخل لماذا هم مصرون على الضلالة ، وهو تقصير منهم لا منه فلماذا البخوع أسفاً على آثارهم : خلفهم - وعلى آثارهم باعمالهم فـ «ليس عليك هداهم » «إن عليك إلا البلاغ » ؟

وقد بلغت وما اهتدوا وليس الله ليهدي قوماً يخالفونه الى الردى «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات» !

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ^(٧) ﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ^(٨) .

والناس بالنسبة لما على الأرض الزينة منقسمون الى ناس انسان، ونسنان حيوان : «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» (٣٠ : ٧)

وهؤلاء يعلمون «ان الدار الآخرة هي الحيوان» (٢٩ : ٦٤) «فمن ابصر اليها اعلمته ومن ابصر بها بصرته» ^(٩) فـ «ما على الأرض زينة لها» لا

(١) من وصف الامام علي (عليه السلام) للدنيا بين الناظرين اليها .

هي غاية للحياة عليها ولا باقية وإنما «متاع قليل ثم اليينا يرجعون» !

فلماذا «زينة لها» معاصرة للعائشين عليها دائرة؟ «لنبلوهم ايهم احسن عملاً» ! ابصاراً لها فإخلاداً اليها او ابصاراً بها فزهداً فيها ! «لنبلوكم أيكم احسن عقلاً واورع عن محارم الله واسرعكم في طاعة الله»^(١) حيث العاقل ينظر الى هذه الزينة الفانية ابصاراً بها الى ما وراءها ، لا ابصاراً إليها كغاية قصوى ، فهو اذاً فيها ورع عن محارم الله سرع في طاعة الله ! لا هلع ولا هرع في زيتها ! ولماذا «أيكم احسن عملاً» ؟ وهم القلة القليلة ، لا «أسوء عملاً» وهم الكثرة الكثيرة ؟ لأن الهدف الرئيسي من البلاء بزينة الحياة الدنيا هو التسابق في حسنات الأعمال مهما قل أصحابها ، دون سيئاتها مهما كثر أصحابها .

ومن آيات اندثارها واندحارها «وإننا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً» .

الصعيد هو المرتفع الصاعد حيث تصبح الأرض بما عليها يوم قيامتها كتلة مرتفعة كلها ، «جرزاً» لا نبات فيها^(٢) ، قاحلة لا ماء فيها ولا كلاء : «فيذرهما قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً» (٢٠: ١٠٧) .

فالجرز مأخوذ من «ناقة جروز» إذا كانت كثيرة الأكل لا يكاد لحياها

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١١ - اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في التاريخ عن ابن عمر قال : تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية : «لنبلوهم ايهم احسن عملاً» فقلت : ما معنى ذلك يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! قال : ...

(٢) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى : «صعيداً جرزاً» قال : لا نبات فيها .

١٨ الجزء الخامس عشر

يُسكنان من قضم الأعلاف ونشط الأعشاب ، كـ «سيف جُراز» إذا كان يبرى المفاصل ويقطُ الضرائب ، فسميت ارض القيامة جرزاً إذ كانت كأنها اكلت نبتها فلم تدع منه نابغة ولا تركت طالعة ! .

«لنبلوهم» تلمح ان افعال الله تعالى مُغَيَاة لحكم وأغراض ، وهنا «زينة هنا» لغرض الإبتلاء ، فالدنيا دار بلاء برخائها وعنائها واكثرها عناء ، والغرض الاسمى من الإبتلاء التسابق في الحسنى ان يتذرعوها الى الله زلفى «أيكم احسن عملاً»؟ فليست السوائى أو التسابق فيها من اغراضها .

وترى ان الله يبلو عباده اختباراً واستعلاماً وهو علام الغيوب، فانه يعلم السر واخفى ؟ كلا ! وإنما الإبتلاء بالخير والشر كدحاً الى ربهم كدحاً ليتكاملوا ، وليعلموا هم انفسهم من هم ، فعند الإمتحان يكرم المرء او يُهان !

فالله يعلم مسائرهم ومضائرهم ولكنه يبلوهم لكي يزهد من يزهد ، ويزهو من يزهو ، فيجزى على ما يصدر منهم فعلاً ، بما يحصل منهم في هذه البلوى عملاً ، وهنا يسكت عمن لا يحسنون صنعاً حيث الهدف الاسمى «أيكم احسن عملاً» ؟ فلهذه الزينة نهاية محتومة ، ستعود الأرض عنها جرداء لا ماء فيها ولا كلاء ! .

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ

وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴿١٠١﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى

الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا
 مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرْبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
 سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ
 لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ
 إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ
 قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَن نَّدْعُو مِنْ دُونِهِ ۖ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾
 هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ۖ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ
 بِسُلْطَانٍ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَيَنقُضُ آلِهَتَهُمْ بِمَا هُمْ قَائِلُونَ ﴿١٥﴾
 وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ وَلَاقُوا اللَّهَ فَأُودِعْنَا إِلَى الْكَهْفِ
 فَنُفِثَ فِيهِمْ وَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَكُمْ بَصِيرَةٌ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْكُمْ وَقَالُوا الْمَثَلُ لَشَدِيدٌ ﴿١٦﴾ وَأَوْرَثَهُمْ
 بَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَعْيُنًا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ
 وَجَعَلْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَعْيُنًا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
 أَعْيُنًا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَعْيُنًا عَلَىٰ
 بَنِي إِسْرَءِيلَ وَجَعَلْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَعْيُنًا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ

الشَّامِلِ وَهُمْ فِي فَجْوةٍ مِنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَنْ
 يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا
 مُرْشِدًا ۝ (١٧) وَنَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ
 الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّامِلِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ
 لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ
 رُعبًا ۝ (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ
 مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ
 أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ
 فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ
 وَلَا يُسْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝ (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ
 يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ۝ (٢٠)
 وَكَذَٰلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِیَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
 السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا

أَبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ
 أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ
 رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
 بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ
 بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٢٢﴾ فَلَا تُحَارِبْهُمْ إِلَّا مِرَاءً
 ظُهُرًا وَلَا تَشْنَقْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٣﴾ وَلَا تَقُولَنَّ
 لَشَأْنِي إِلَىٰ فَاعِلٍ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي
 لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ
 مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿٢٦﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا
 لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٧﴾

﴿أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾^(١):

ثماني عشرة آية تنزل تعريفاً بقصة اصحاب الكهف ، تتقدمها آية الإستعجاب من عَجَب قصتهم في حُسابان ، فأيات الله كلها عجب وليست فقط قصة اصحاب الكهف وفيها اعجب منها ، ومنها حسب الروايات رأس الحسين (عليه السلام) المجذوذ حيث تكلم وقرأ آيات من الكهف الى «أم حسبت» فقليل : «امرك اعجب»!^(١).

ولأن «عجبا» مصدر تلمح الى ان القصة كانت في حسابان من أعجب العَجَب ، وعلَّ من عجبها ترك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الإستثناء بمشيئة الله لما سئل عنها فقال : «اني فاعل ذلك غداً» اطمئناناً بربه انه يوحى اليه بها ، واستعجالاً لجوابهم ، لذلك تتقدم القصة بعد احتباس الوحي ردحاً من الزمن آية التأنيب بهذا العجب «أم حسبت» ف «أم» عطف على محذوف يناسب المقام كـ «احسبت انك تملك وحي ربك فقلت : «اني فاعل ذلك غداً» دوغما استثناء بمشيئته ؟ «أم حسبت ..

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٤٢ ح ١٥ في الخراسنج والجرايح عن المنهال بن عمرو قال : والله أنا رأيت رأس الحسين (عليه السلام) حين حمل وانا بدمشق وبين يدي رجل يقرأ الكهف حتى بلغ قوله «أم حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» فانطق الله تعالى الرأس بلسان ذرب طلق قال : اعجب من اصحاب الكهف حملي وقتلي وفي ١٦ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وروى ابو مخنف عن الشعبي انه صلب رأس الحسين (عليه السلام) بالصياف في الكوفة فتنحى الرأس وقرأ سورة الكهف الى قوله : «انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى» ، وسمع ايضاً يقرأ «ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا»

عجباً ؟ فاسرعت في وعد الجواب ام ماذا؟^(١) .

لا هذا ولا ذاك «انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى» . . .

وإن في احتباس الوحي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لطف خفي ، وآية هي اعظم وأدل على نبوته من إخباره بقصة اصحاب الكهف ام ماذا ؟ فلو لم يكن رسولاً ما اخرهم في طائل من الزمن^(٢) فوحي القرآن وآياته اعجب من هذه القصص !

(١) المصدر ح ٢٩ في تفسير علي بن ابراهيم القمي حدثني ابي عن ابن ابي عمير عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : كان سبب نزول سورة الكهف ان قريشاً بعثوا ثلاثة أنفار الى نجران : النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن المعيط والعاص بن وائل السهمي ليتعلموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرجوا الى نجران الى علماء اليهود فسألوهم فقالوا : اسألوه من ثلاث مسائل فان اجابكم فيها علي ما عندنا فهو صادق ثم سلوه عن مسألة واحدة ، فان ادعى علمها فهو كاذب . وهي مسألة وقت الساعة الى ان قال : فرجعوا الى مكة واجتمعوا الى ابي طالب فقالوا يا ابا طالب ان ابن اخيك يزعم ان خبر السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فان اجابنا عنها علمنا انه صادق وان لم يخبرنا علمنا انه كاذب فقال ابو طالب : سلوه عما بدا لكم فسألوه عن الثلاث (اصحاب الكهف - موسى وخضر - ذي القرنين) فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غداً اخبركم ولم يستثن فاحتبس الوحي عليه اربعين يوماً حتى اغتم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشك اصحابه الذين كانوا آمنوا به وخرجت قريش واستهزؤوا وأذوا وحزن ابو طالب فلما كان بعد اربعين يوماً نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا جبريل لقد ابطأت ! فقال : انا لا نقدر ان ننزل إلا باذن الله تعالى فانزل الله عز وجل : « ام حسبك يا محمد » ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » ثم قص قصتهم فقال « اذا اوى الفتية . . . »

(٢) اختلفت الروايات في انه احتبس يومين او ٣ - ٤ - ١٢ - ١٥ - ٢٥ - او ٤٠ والاخير هو الاقرب كما يأتي عن تفسير القمي عن الامام الصادق (عليه السلام) .

وتسلية لحاظه الاقدس تنزل عليه سورة الضحى « .. ما ودّعك ربك وما قلى .. » وإنما احتباس الوحي كنفس الوحي وجهة من التربية الربانية .

فلقد كان الرسول زمن الاحتباس في حالة مزرية مضرعة مريبة ، إذ بدر الوحي الحبيب من الحبيب مسلماً خاطر الحبيب ومربياً له « أم حسبت .. ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا ان يشاء الله وأذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً » وهذا في أخريات القصة لكيلا يفاجأ في بدايتها بنص التنديد ، اللهم إلا تلميحاً مليحاً مريحاً : « ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » ؟

لا تحسب انها عجب وفي آياتنا ما هي اعجب ، فانت بقرآنك ورسالتك في قمة العجب^(١) ولذلك تفتح السورة بما افتتحت تقيماً للكتاب ونزوله ومنزله « قياً » من منزله القيوم فحمداً له كل الحمد^(٢) ! .

ترى ومن هم اصحاب الكهف والرقيم ، هل هم اصحاب الكهف وآخرون اصحاب الرقيم ، وقد اهل عن ذكر الآخرين ؟ وهذا خلاف البلاغة في أدناها فضلاً عن اعلاها ! فهم جماعة واحدة تعرف بالكهف والرقيم .

ثم الكهف معروف فما هو الرقيم ؟ إنه المرقوم وعله على باب

(١) الدر المنثور ٤ : ٣١٢ - اخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس في آية العجب : يقول النبي ﷺ آتيتك من العلم والسنة والكتاب افضل من شأن اصحاب الكهف والرقيم وينفس من مجاهد كانوا يقولهم عجب آياتنا ليسوا باعجب آياتنا .

(٢) لم يكن ذلك الحسان من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بل عن سألوه فهو من باب اياك أعني واسمعي يا جاره ، فقد كان الرسول يعيش أعجب آيات ربه ومنها نفسه المقدسة بقرآنه وستته ! .

الكهف^(١) تعريفاً بحالهم ، ويؤيده قرن الكهف بالرقيم ، رقيماً للكهف بأصحابه فهما واحد كأصحابها جماعة واحدة ، لا اسم القرية التي خرجوا منها^(٢) فانهم تركوا صحبتها الى الكهف فليسوا من اصحابها ! اللهم إلا اشارة الى الحالتين المختلفتين ، ولكن لا تعرف لحد الآن بلدة الرقيم ! او قد تجمعهما الرقيم ! رقيماً على باب الكهف رُقم فيه مبدأهم ومآواهم ! وأما ان الرقيم هو كلبهم ، فذلك هتك لساحتهم انهم اصحاب كلب ، او الكلب صاحبهم ، ثم لا يعرف كلبٌ رقيم ، أبعداً ما اهل عن اسمائهم هنا يبرز كلبهم باسمه وهم صحبوه ؟!

﴿ اذا اوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهبنا لنا من امرنا رشداً^{١٠} فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً^{١١} ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين احصى لما لبثوا امداً^{١٢} ﴾ .

هذه الثلاث بين الثمانية عشرة في قصتهم اجمال عن تفصيل ، يضم ما فعلوه وقالوه : «إذا أوى الفتية...» وما فعله الله أولاً «فضربنا...»

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٤٤ ح ٢١ العياش عن محمد عن احمد بن علي عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : هم قوم فروا وكتب ملك ذلك الزمان باسمائهم واسماء آبائهم وعشائهم في صحف من رصاص وفي الدر المنثور ٤ : ٢١١ عن ابن عباس قال : الرقيم الكتاب وعن ابي صالح قال : الرقيم لوح مكتوب وعن سعيد بن جبير قال : الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصة اصحاب الكهف وامرهم ثم وضع على باب الكهف وعن السدي قال : الرقيم حين رقت اسمائهم في الصخرة كتب الملك فيها اسماءهم وكتب انهم هلكوا في زمان كذا وكذا في ملك ريبوس في سور المدينة على الباب قول هذا قول جميع اهل المعاني والعربية ثم كما يأتي احتمال آخر للرقيم انهم ثلاثة من اصحاب الكهف رقموا خالصات اعمالهم ! .

(٢) الدر المنثور عن ابن عباس قال : الرقيم واد دون فلسطين قريب من ايله .

واخيراً «ثم بعثناهم ..» طياً لها باختصار دون احتصار: «ام حسبت .. إذا أوى ..»^(١) استعراضاً لخطوطها الرئيسية كبراعة استهلال ومن ثم التفصيل .

«إذا أوى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهبنا لنا من أمرنا رشداً»^(٢) .

(١) «الى الكهف» دون ومن الرقيم من الشاهد انه ليس البلدة التي خرجوا منها ثم ولم يأت ذكرها في تفصيل القصة وعلى اية حال فالروايات مختلفة في انهم جماعة واحدة ام جماعتان وظاهر القرآن الوحدة .

ثم مختلف الروايات في «الرقيم» اهو اسم البلد الذي خرجوا منه او الوادي الذي فيه الكهف او جبله او اسم كلبهم ، او هو لوح من حجر او رصاص او نحاس او ذهب رقم فيه اسماءهم واسماء ابائهم وقصتهم ووضع على باب الكهف او داخله او معلقاً على باب المدينة او في بعض خزائن الملوك ، او انه لوحان ، اثني عشر وجهاً في الرقيم وما في المتن هو الانسب والله اعلم .

(٢) في قصة اصحاب الكهف روايات متضاربة بعضها خلاف نص القرآن او ظاهره ، وبعضها لا توافق القرآن ولا تخالفه وثالثة توافق نص القرآن او ظاهره ومن الثالث الا في البعض من مواضعها ومن اسلمها ما رواه القمي في تفسيره حدثنا ابي عن ابن ابي عمير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : كان سبب نزول سورة الكهف - الى قوله في القصة - : سألوا رسول الله عن الثلاث المسائل فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : غداً أخبركم ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه اربعين يوماً حتى اغتم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشك اصحابه الذين كانوا آمنوا به وفرحت قريش واستهزؤوا وآذوا وحزن ابو طالب فلما كان بعد اربعين يوماً نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا جبرئيل لقد ابطأت ؟ فقال : انا لا نقدر ان ننزل الا باذن الله فانزل الله تعالى : «ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا» ثم قص قصتهم فقال : اذ أوى الفتية الى الكهف ..

قال : فقال الصادق (عليه السلام) : ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك =

= جبار عات وكان يدعو اهل مملكته الى عبادة الاصنام فمن لم يجبه قتله وكان هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله عز وجل ووكل الملك بباب المدينة ولم يدع احداً يخرج حتى يسجد للاصنام فخرجوا هؤلاء بعله الصيد وذلك انهم مروا براع في طريقهم فدعوه الى امرهم فلم يجبههم وكان مع الراعي كلب فأجابهم الكلب وخرج معهم .

قال (عليه السلام) : فخرج اصحاب الكهف من المدينة بعله الصيد هرباً من دين الملك فلما امسوا دخلوا الى ذلك الكهف والكلب معهم ، فالتقى الله عليهم النعاس كما قال الله : « فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً » فناموا حتى اهلك الله ذلك الملك واهل المدينة وذهب ذلك الزمان وجاء زمان آخر وقوم آخرون ، ثم انتهوا فقال بعضهم لبعض : كم غمنا ها هنا ؟ فنظروا الى الشمس قد ارتفعت فقالوا : غمنا يوماً او بعض يوم ثم قالوا لواحد منهم خذ هذه الورق وادخل المدينة تنكراً لا يعرفونك فاشتر لنا طعاماً فانهم ان علموا بنا وعرفونا قتلونا او ردونا في دينهم ، فجاء ذلك الرجل فرأى مدينته بخلاف التي عهدا ورأى قوماً بخلاف اولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم فقالوا له : من انت ؟ ومن اين جئت ؟ فاخبرهم فخرج ملك تلك المدينة مع اصحابه والرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف واقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم هؤلاء ثلاثة رابعهم كلبهم وقال بعضهم خمسة سادسهم كلبهم وقال بعضهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وحجبهم الله بحجاب من الرعب فلم يكن يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فانه لما دخل عليهم وجدهم خائفين ان يكونوا اصحاب دقيانوس شعروا بهم فأخبرهم صاحبهم انهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وانهم آية للناس فبكوا وسألوا الله ان يعيدهم الى مضاجعهم نائمين كما كانوا .

ثم قال الملك : ينبغي ان نبني ها هنا مسجداً نزوره فان هؤلاء قوم مؤمنون فلهم في كل سنة ثقلبان ينامون سنة اشهر على جنوبهم اليمنى وستة اشهر على جنوبهم اليسرى والكلب معهم باسط ذراعيه بفناء الكهف وذلك قوله تعالى : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » الى آخر الآيات .

وهذه الرواية وهي اسلم روايات القصة قد تخالف آياتها في مواضع .

منها ان المختلفين في عدتهم هم الذين اعشرهم الله عليهم ! وهم برؤيتهم على آية حال عارفون عدتهم ، و«سيقولون ثلاثة . . .» تحول الاختلاف في عدتهم عنهم الى الآتي ! .

تطلبوا من الله رحمة لدنية في البداية ورشداً في النهاية ، وكان «رحمة»
او منها «فضرربنا على آذانهم ..» : تخلصاً من جبارهم وهم أحياء دوغما
حاجة الى شراب وغذاء ! وكان «رشداً» او منه «ثم بعثناهم ..» رشداً
لهم ولمن عثروا عليهم !

«اوى الفتية الى الكهف» كما امرهم الله «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون
إلا الله فآلوا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم
مرفقاً» وطبعاً بإلهام دون وحي ، والأوى تلمح بفرارهم في اعتزالهم عما
سوى الله وإيمانهم بالله «فقالوا ربنا : ..» التماساً عما وعدهم وقد حقق
لهم ، ولم تكن تلك الرحمة وذلك الرشد بالإمكان وهم بين الطغاة المستكبرين .

هنا «من لدنك» تدل على مدى هيمانهم لرحمة بعد ما لاقوا من ضغط
بغض ونقمة ، رحمة لدنية عن نقمة شيطانية ، ثم تهيئة فيها من امرهم
الإمر رشداً : لهم ولمن سواهم ، ومن رحمته «زدناهم هدى»^{١٢} . وربطنا على
قلوبهم^{١٤} ومن الرشد من امرهم هدى من اهتدى بذكراهم واقتدى بهداهم !

«فضرربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً»^{١١}

هنالك مثلث من زوايا الحياة وراء اليقظة التامة ؛ نعسة يسمع فيها
الأذن ضرباً على البصر وهو نوم نسبي^٢ ونومة لا يسمع فيها الأذن ،
والقلب حيّ ضرباً على الأذن ، حيث ينام بعد البصر ، وهو نوم مطلق .
و^٣ موتة عن الحياة الدنيا الى حياة برزخية ضرباً على القلب ، والحياة في
مثلثها هذه باقية على درجاتها ، وهنالك موتة مطلقة « اذا نفخ في الصور

= ومنها نومتهم الثانية ، وهم لم يموتوا ولا تحمل نومتهم حكمة والقرآن يحيل اطلاع الرسول
عليهم وهم نائمون « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً .. » ! .

ومنها تقلبهم في كل سنة مرتين ، وماذا يفيدهم ذلك القلب البعيد ، وان كان لا تضاد
آية القلب ، الا انها لا تلائمها ، ثم هي بعيدة في الواقع ! .

سورة الكهف / آية ١١ ٢٩

فصعق من في السماوات ومن في الأرض « ومن ورائها حياة مطلقة » ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » ! .

« فضربنا على آذانهم » هي النومة المطلقة ولكن لا كالعادة المستمرة وإنما « سنين عدداً » !

وترى ماذا تعني « عدداً » و « سنين » وهو جمع ، لا محالة عدد ؟ قد تعني استقلالاً لما استكثر من سنينهم « ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً » فهناك رقعات وموتات ام ماذا من خوارق العادات اكثر من هذا العدد .

فالسنين العدد هنا كدراهم معدودة في يوسف (٢٠) ونفياً عن عجب القصة ؛ « ام حسبت . . » ام وزيادة هنا هي ان سنينهم معدودة معلومة كعدددهم ! .

إن الضرب التام على الأذن يسبقه نوم البصر ويقارنه نوم القلب دون موته ، وقد يعبر عنه بتغشية النعاس التي هي حدث صغير من الأحداث : « إذ يُغشيكم النعاس أمانةً منه . . » (٨ : ١١) واليقظات الثلاث في الإنسان : بصرًا وأذنًا فقلبًا لما تُغشى بالنعاس فهناك يتم النوم ويطم ، وقد يستمر باستمرار سببه عادياً كما في سائر النوم ، أم خارقاً للعادة كما في ذلك النوم ، حيث ضرب فيه على آذانهم سنين عدداً حين يضرب على آذان الآخرين ساعات ، فلم يكن موتاً ولا كنوم الآخرين وإنما نومة خارقة العادة (١) .

(١) وقد يعنيه «اماتهم» فيما يرويه الطبرسي في الاحتجاج عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : وقد رجع الى الدنيا من مات خلق كثير منهم اصحاب الكهف اماتهم الله ثلاثمائة عام ثم بعثهم في زمان قوم انكروا البعث ليقطع حجتهم وليريم قدرته وليعلموا ان البعث حق (نور الثقلين ٣ : ٢٥٢ ح ٢٩) .

٣٠..... الجزء الخامس عشر

٠ فالضرب على آذانهم سنين لإبطال لمفعولياتها في سنين دون صمم ، ولكنها الضرب على القلب يبطل حياته فهناك الموت وان كان الى امد كما في عزيز والمختارين من قوم موسى آمن ذا ، فهذا احسن تعبير واشمله لرقدتهم في سنين ، في حين « تحسبهم ايقاظاً وهم رقود » كأن لم يضرب على ابصارهم وهم مضربون عن الإبصار !

فاثماً « ضربنا على آذانهم » فاصبحوا كمن ضُرب سماخه فهو موقوذ مأموم ومشدوه مغمور^(١) .

﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين احصى لما لبثوا امداً﴾^{١٢} .

«بعثناهم» عن نومهم فالبعث ضروب شتى وهو منها : «هو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرمتم بالنهار ثم يبعثكم فيه» (٦ : ٦٠) «لنعلم» أبعدَ جهل ؟ والله بكل شيء عليم ! ام تحقّقاً لمعلومه ؟ وغير فصيح ولا صحيح أن يعبر عنه بـ «نعلم» ! وهما اذا كان من العلم ، ام هو من العلم لنجعل مبعثهم علامة : «اي الحزبين احصى ..» كما في امثالها العشرة الأخرى في سائر القرآن^(٢) ؟ .

وهذا هو الصحيح الفصيح .

(١) هذه الخمسة تعني على الترتيب خرق الاذن - ضرب يشرف الى الموت - مشجوج - المشدوخ الرأس، المغمى عليه، ننقل هذه الجملة الجميلة عن السيد الشريف الرضى من كتابه مجازات القرآن ص ٢٠٨ .

(٢) وهو من علم يعلم علماً يعني جعل علامة (لسان العرب)، ومن الشاهد عليه اضافة الى الآيات المحكمات في الخيطة العلمية الإلهية ان «نعلم يعلم» في مواردنا الاحدى عشر تدخل اما على مفرد «لنعلم الصابرين منكم» او جملة كمفرد كما هنا ، وهو بكسر العين يدخل على مفعولين .

وترى من هما الحزبان ؟ هما حزب الايمان اصحاب الكهف وحزب الكفر المختلفان في امد لبثهم إحصاء ؟ ولم يسبق ذكر عن حزب الكفر ، ولا انهم بقوا الى بعثهم ، ولا انهم عرفوا كهفهم حتى يحصوا لبثهم ! ام هما من اصحاب الكهف انفسهم حيث افرقوا فيما احصوا من لبثهم : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً او بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم .. » .

و«أحصى» فعلاً من الإحصاء ، فايها احصى وأي ما احصى ، فالمحصى «قالوا ربكم اعلم» عالين انهم لبثوا ردحاً بعيداً من الزمن يعلمه الله ، وغير المحصى «قالوا لبثنا يوماً او بعض يوم» ثم الاولون كملوا إحصاءهم حيث بعثوا احدهم بورقهم فتبين لهم كم لبثوا ؟

ثم و«أحصى» افعل تفضيل فهما أحصيا والاولون احصى من الآخرين ، ولكن الآخرين لم يحصوا اللهم إلا ظاهراً من نومتهم بآية الشمس غاربة فيوم ام زائلة فيعوض يوم^(١) .

وجهان اولهما اوجه ولثانيهما وجه بعيد او عليهما معنيان ان الآخرين احصوا وان كان إحصائهم لا يحسب بشيء ، والإحصاء الصحيح العلم انهم لبثوا أمداً بعيداً لا نعلمه ، ثم الاصح الاعلم «ربكم اعلم بما لبثتم» إحصاء أو لا إحصاء غلط ، ثم إحصاء صحيح ، ومن ثم إحصاء اصح هو من الله .

«نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى»^{١٣} وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه الهاً لقد قلنا اذا شططاً»^{١٤} .

(١) قال ابو علي الفارسي « احصى » ليس من باب افعل التفضيل لان هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس .

الى مشهد التفصيل من قصتهم شرحاً لما اجمل ، اترى هنا تفصيلاً عن كلما حصل من غث وسمين؟ وهذه حكاية تاريخية وليست قصة ! وإنما «نقص» قصاً «نبأهم» فالنبا خبر ذو فائدة عظيمة ، والله يقص أنباء ما قد مضى من غيرها ، إصطفاءً للمفيد منها نبزاً ينير الدرب على العالمين .

هنالك في التأريخ مزيج مما يفيد : «أنباء» وما لا يفيد أو يقل ، ومن المفيد ما هو حق وما هو باطل^(١) والقرآن يقص منها انباء الحق «نحن نقص عليك نبأهم بالحق» قصاً بالحق عما هو حق مصاحباً لذكرى الحق^(٢) حق صراح لا يشوبه باطل في أي حق!

«إنهم فتية ..» : مريع من التعريف برجال القصة : «فتية - آمنوا - زدناهم - وربطنا» كل ذلك يربطها برباط القيام في كلمة التوحيد : «ربنا رب السماوات .. لن ندعو من دونه إلهاً» ثم تزييف الشرك في ربوبيته «لقد قلنا إذا شططاً» !

«إنهم فتية» : الفتى هو الطري من الشباب وقد يطلق على كل طري شاباً أم غير شاب ، وكما يروى ان اصحاب الكهف كانوا كهولاً^(٣) ولفوتهم في طراوة حريتهم ورجولتهم سموا فتية ، وإلا لماذا «فتية» لا أناس

(١) فقد يختلق امر فيه تقوية لجانب الحق ولكن الغاية لا تبرر الوسيلة .

(٢) بالحق هنا حال من القص ومن النبأ وظرف للقص بباء المصاحبة .

(٣) نور الثقلين (٣ : ٣٤٥ ح ٢٥) في روضة الكافي علي بن ابراهيم (رض) قال : قال : ابو عبد الله (عليه السلام) لرجل : ما الفتى عندهم ؟ فقال : الشاب ، فقال : لا الفتى المؤمن ، ان اصحاب الكهف كانوا شيوخاً فسماهم الله عز وجل فتية بايمانهم . وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اصحاب الكهف اعوان المهدي (عليه السلام) وفي البرهان عن ابن الفارس قال الصادق (عليه السلام) وسبعة من الكهف يعدمهم من اصحاب المهدي (عليه السلام) .

سورة الكهف / آية ١٢ - ١٤ ٣٣

ام رجال ؟ ثم ولا اثر هنا عن مشاغلهم ومناصبهم^(١) . إلا أنهم فنية
الايان والقيام .

« آمنوا بربهم » في قلوبهم بصرامة وصراحة .

﴿ وزدناهم هدى ﴾ كما هي سنة الله : « ويزيد الله الذين اهتدوا
هدى » .

﴿ وربطنا على قلوبهم ﴾ رباطاً يحجزهم عن الشتات ، تثبيتاً
لأقدامهم في هذا القيام والإقدام « وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام »
(١١: ٨) مزيداً للإيمان : « إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها
لتكون من المؤمنين » (١٠: ٢٨) .

فالربط هو الشد بالرباط كربط الأسير : شده بالحبل والقيد ،
فـ « ربطنا » هنا يعني شددنا على قلوبهم كما تُشد الأوعية بالأوعية فتتضم على
مكونها ، ويؤمن التبدد على ما استودع فيها ، شددنا عليها لكيلا تنحل
معاهد اصطبارها وتهفو عزائم جلودها ، ولماذا « ربطنا على » وهي متعدية
بنفسها ؟ لأن ربط القلوب وهو رفع التمزق والتقلب في معترك الأحوال ،
لا يكفي استقامة ناصعة ، فليربط على قلوبهم سكينه من ربه بعد
ربطها ، ولكي يقوموا في معركتهم الصاخبة ضد الطاغوت ومتطلباته ، لا
فحسب أن يظلوا على عقيدة التوحيد قاعدين فيها دون قائمين . .

فكما سألوا الله « آتنا من لدنك رحمة » تعني رحمة خاصة بعد رحمتي
الهدى وزيادتها ، فالله ربط على قلوبهم بهذه الرحمة اللدنية ولكي يقوموا :

(١) في بعض الروايات أن الفتية كانوا من اولاد الملوك ، وفي أخرى من اولاد الاشراف
وفي ثالثة : من اولاد العلماء وفي رابعة انهم كانوا حاميين يعملون في بعض حماسات
المدينة وفي خامسة انهم كانوا من وزراء الملك يستشيرهم في اموره وفي سادسة انهم
سبعة سابعهم كان راعي غنم لهم هو وكلبه في الطريق .

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (١٤).

أقياماً في قولة جوفاء؟ ولا تحتاج هكذا قولة الى ربط على قلوبهم والى قيام والله منها براء! بل قياماً في العمق في قولة صادقة عن قلب مربوط بالايان في توحيد الله لحد يُحيل الإشارك بالله: «لن ندعو من دونه إلهاً» ولا في لفظة قول «لقد قلنا إذا شططاً»: مفرطاً في البعد عن الحق (١) أفبعد الايمان ومزيده وبعد ان ربط الله على قلوبنا نفرط في ذلك البعد السحيق من اللا ايمان؟ كلاً ولن...

ولأن قول «ربنا رب السماوات...» ومعه قمة الايمان لا يحتاج الى قيام، فليكن قولاً جاهراً بين جماهير الناكرين، في ظرف تذوب فيه القلوب وتتفتت فيه الأكباد وترتاع له النفوس وتتشعر الجلود اذاً فهو قيام في بعدي الايمان إعلاناً بعد إسرار بكل صمود واصرار، يحيل الارتجاع الى الشرك: «لن ندعو من دونه...» قاطعين آمال المشركين، منقطعين عن كل عمل إلا الله وعن كل أمل إلا في الله! وقد تلمح «لن» ان هناك كانت عليهم ضغوط تحملهم على الإشارك برهم!

ولكن ذلك توحيد قائم متجاهراً باهراً لا يقصمه اي جابر ولا يفصمه اي مكابر، وما يروى في إسرار إيمانهم بتقية في ظاهر الشرك مؤول (٢) او

(١) في تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: «لقد قلنا اذا شططاً» يعني جوراً على الله ان قلنا له شريك.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٤٢ ح ١٧ في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن ابي عمير عن هشام بن سالم عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال: ان مثل ابي طالب مثل اصحاب الكهف اسروا الايمان واظهروا الشرك فأتاهم الله اجرهم مرتين.

اقول علّه ينظر الى الحالة قبل قيامهم واظهارهم، وقوله تعالى «اذ قاموا...» يلمح الى =

مطروح إذ لا توافق الكتاب ، ام وتحالفه .

﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن اظلم ممن افترى على الله كذباً﴾^{١٥}

«هؤلاء» المناكيد الأوغاد «قومنا» الذين نعاشرهم «اتخذوا من دونه» دون رب السماوات والأرض «آلهة» : طواغيت وسواهم من ملائكة او جن او انسان «لولا يأتون عليهم بسلطان بين» ؟ قضية القاعدة العقلية ان كل دعوى بحاجة ضرورية الى برهان عليها وسلطان يقنع العقول غير المدخولة أياً كان ، وكلما ازداد المدعي محتداً ومكانة يزداد السلطان عليه بياناً وبرهاناً ، فدعوى الألوهية بحاجة الى «سلطان بين» وليس عندهم اي سلطان على آلهتهم فضلاً عن «بين» وكفاهم كذباً وظلماً على الحق «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً» ؟

إن قيامهم في مقالة التثبيت للتوحيد والتنديد الشديد بكل جبار عنيد ، كل ذلك كان جهاراً وبين الجماهير قبل انعزالهم عنهم ، فقرروا بينهم قرارهم لما بعد لانعزالهم :

= حالتهم قبل قيامهم وبعده وهم فيها كانوا موحدين ، وقد يدل عليه ما رواه العياشي عن عبيد الله بن يحيى عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه ذكر اصحاب الكهف فقال : لو كلفكم قومكم ما كلفهم قومهم ؟ فقل له : وما كلفهم قومهم ؟ فقال : كلفوهم الشرك بالله العظيم فاظهروا لهم الشرك واسروا الايمان حتى جاءهم الفرج - وقد يعني من فرجهم قيامهم بتوحيدهم جهاداً .

وفي بعض الروايات أنهم اظهروا المخالفة وعلم بها الملك قبل الخروج ، رغم البعض الآخر انه لم يعلم الا بعد خروجهم ، وفي ثالث انهم تواطئوا على الخروج فخرجوا وفي رابع انهم خرجوا على غير تعارف وعلى غير ميعاد ثم تعارفوا وانفقوا خارج البلد ، وفي خامس ان راعي غنم لحق بهم وهو سابعهم وفي بعضها انه لم يتبعهم وتبعهم كلبه وسار معهم .

﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ ١٦ .

هنالك اعتزال عنهم وما يعبدون حيث لا تنفع دعوتهم إلا ملاحقتهم والضغط عليهم ، فاعتزال الإختفاء احتفاظاً على انفسهم ثم أورياً الى الكهف «ينشر لكم ربكم من رحمته» رحمته اللدنية التي التمسوها منه ، وهل رحمة مطوية تنشر ومكنونة تظهر ، والرب لا يكن ويطوي رحمته عن ياهل ، وإنما إسباغها ظاهرة منشورة لا مستورة ، إذا فنشرها هو ايتاءها كما تطلبوها «آتنا من لدنك رحمة» ثم «ويهيء لكم من أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا» : ما يُرتفق به ويُعتمد عليه فيكون لظهوركم عماداً ولأعضادكم سناداً .

أجل وإن الكهف الضيق الخشن المظلم لهؤلاء الفتية هو منتشر الرحمة ومرتفق النعمة ، إذ يأوون اليه ويلجأون بايمانهم ، ولكننا البلد وهم بين أهليهم في بحبوحة من عيشة الحياة الدنيا ، هو لهم نقمة ومصيبة إذ ليس لهم فيه راحة الروح والرضوان وفسحة الايمان ! فإذا الكهف الضيق البعيد عن الحياة لهم فيه فسحة وحيوية تتسع خيوطها وتمتد ظلالها ويشملهم بالرفق واللين والرخاء ، حيث الحدود الضيقة تنزاح والجدران الصلدة ترق والوحشة الموغلة تشف .

ذلك الكهف الحصين أملهم كما يوسف الصديق يفر من البلاط الى السجن : «رب السجن احب اليّ مما يدعونني اليه وإلاّ تصرف عني كيدهن أصب اليهن واكن من الجاهلين» .

هنا في قصة الاوين الى الكهف روايات ، تقول طائفة منها انهم كانوا ثلاثة هم اصحاب الرقيم، وهي لا تلائم القرآن إلا ان يكونوا هم من اصحاب الكهف وقد رقموا خالصات أعمالهم نجاة من الحجر المؤصد عليهم من كهفهم ، ثم لحقهم الآخرون بعدما نجوا ، فكلهم أصحاب

الكهف والأولون يزيدهم انهم اصحاب الرقيم ، وقد يعمهم الرقيم بعد اختصاصه في وجوه مضت اماذا؟^(١)

وفعلاً نشر لهم ربهم في فجوة الكهف من رحمته اللدنية وهياً لهم من أمرهم مرفقاً ، حيث آمنهم في كهفهم وضرب على آذانهم بكل تلطف وتعطف ، ثم بعثهم ليعرفوا رحمته ويلمسوا مرفقه ، وليعلم آخرون ان وعد الله حق ، رحمة ومرفق يتخطاهم الى اعماق الزمان والمكان ، طياً لبعديهما ، وهدياً بقصتهم في إذاعات كتابات السماء والقرآن العظيم .

لا يهنا اين كهفهم وأيان ؟ وقد نتلمح ما لمحنا اياه القرآن :

﴿وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ ١٧ .

تعريفان اثنان بكهفهم ثانيهما «وهم في فجوة منه» : فسحة من كهفهم ، وفسحة من طلوع الشمس وغروبها ، دون ان تؤذيهم بنورها ونارها ، فانما تفيدهم بضوئها ، فجوة وفسحة دون تضايق لا بكهفهم ولا شمسهم ، رحمة ومرفقاً من أمرهم !

وأولهما «اذا طلعت تزاور .. واذا غربت تقرضهم» : وهنا نتلمح

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٤٦ ح ٢٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن اسماعيل القرشي عن حدثه عن اسماعيل بن اعل بن ابيه عن ابي رافع عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حديث طويل قال فيه بعد ان ذكر عيسى ثم يحيى بن زكريا ثم العزيز ثم دانيال ثم مكيا ثم دانيال - زملوك زمانهم فعند ذلك ملك سابور بن هرمز اثنى وسبعين سنة وهو اول من عقد التاج ولبسه وولى امر الله عز وجل يومئذ وهو الشواء بن مكيا وملك بعد ارد شير أخو سابور سنتين وفي زمانه بعث الله الفتية اصحاب الكهف والرقيم وولى امر الله في الارض يومئذ دستجابين لشوابن مكيا .

موقعهم من الكهف وموقع الكهف نفسه .

والتزاور اصله الميل من الزور : الصدر - لا الزيارة ، فترى الشمس تميل عن كهفهم كما يميل المتزاور عن الشيء بصدرة ووجهه ؟ يبين بذلك عن موضع الكهف المشار اليه من جهات المشرق والمغرب ان الشمس لا يلحقه ثوبها عند شروقها ، ولا ينفض عليه عند غروبها حيث تجوزهم عادلة بمطرح شعاعها عنهم ، او انها تعطيه من شعاها عند مرها بهم ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم ، تشبيهاً بقرض المال الذي يعطيه المعطي ليسترده ، ويقدمه ليرتجعه .

فلم يكن الكهف - اذاً - شرقياً ذات اليمين فتشرق في العمق ، ولا غربياً ذات الشمال فتغرب عن العمق ، وانما طلوع تزاور ذات اليمين ميلاً عنه ، وغروب قرض لهم ذات الشمال ، اذاً فليكن له باب نصف شرقية واخرى نصف غربية ، الشرقي الشمالي ، والغربي الجنوبي ، ولكي ينطبق على الجغرافية المستفادة من الآية . فلا تحرمهم الشمس ولا تحرقهم ، وانما تشرقهم ، دون حدة المقابلة لا شرقية ولا غربية . وهذا ينطبق على الكهف الواقع قرب عمان الأردن^(١) .

(١) هو على ما في الميزان ١٥ : ٢٩٧ كهف رجب على مسافة ثمانية كيلومترات من عمان الاردن قرب قرية رجب ، في جبل محفوراً على الصخرة في السفح الجنوبي منه واطرافه من الجانبين الشرقي والغربي مفتوحة يقع عليه شعاع الشمس منها وباب الكهف يقابل جهة الجنوب وفي داخله صفة صغيرة قرابة ثلاثة امتار في مترين ونصف متر على جانب من سطحه المعادل لثلاثة في ثلاثة تقريباً وفي الغار عدة قبور على هيئة النواويس البيزنطية كما أنها ثمانية او سبعة ، وعلى جدرانها نقوش وخطوط باليوناني القديم والشمردى منمحية لا تقرأ وصورة كلب مصبوغة بالحمرة وزخارف وتزيينات اخرى .

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدل النقود والآثار الاخرى المكتشفة فيها على كونها مبنية في زمان الملك جوستينوس الاول ٤١٨ - ٤٢٧ وآثار اخرى تدل على ان الصومعة بدلت =

ام كان شرقياً وغربياً حسب البابين ، ولكنه لطوله وهم في فجوة منه تشرق فيه الشمس ذات اليمين ولا تصلهم ، وتغرب عنهم الشمس قرصاً وقد مستهم بخفيف ضوءها ولطفه ، فينطبق على كهف آخر^(١) .

= ثانياً مسجداً بعد استيلاء المسلمين على الأرض ، مشتملاً على المحراب والمأذنة والميضأة ، وفي الساحة المقابلة لباب الكهف آثار مسجد آخر بناه المسلمون في صدر الاسلام ثم عمروه وشيدوه مرة بعد اخرى ، وهو مبني على انقاض كنيسة بيزنطية كما ان المسجد الذي فوق الكهف كذلك .

وكان هذا الكهف بالرغم من الاهتمام بشأنه كما تدل آثاره متروكاً منسياً متهدماً حت اهتمت دائرة الآثار الاردنية اخيراً^(١) بحفره وتنقيبه فاكتشفته فظهر بعد خفائه قروناً عدة ، وهنالك امارات وشواهد اثرية على كونه هو كهف اصحاب الكهف :

يقول في اكتشاف الكهف انه الكهف الذي ورد ذكره في الكتاب العزيز ويذكر انطباق الامارات المذكورة فيه وسائر العلام التي وجدت هناك على هذا الكهف دون كهف افوس والذي في دمشق او البتراء او اسكندنيا فيه واستقر فيه ان الطاغية الذي هرب منه اصحاب الكهف فدخلوا الكهف هو طراجان الملك ٩٨ - ١١٧م لا دقيانوس الملك ٢٤٩ - ٢٥١ الذي ذكره المسيحيون وبعض المسلمين ولا دقيانوس الملك ٢٨٥ - ٣٠٥ الذي ذكره بعض آخر من المسلمين في رواياتهم واستدل عليه بان الملك الصالح الذي بعث الله اصحاب الكهف في زمانه هو ثيودوسيوس الملك ٤٠٨ - ٤٥٠ باجماع مؤرخي المسيحيين والمسلمين واذا طرحنا زمان الفترة الذي ذكره القرآن لنوم اصحاب الكهف وهي ٣٠٩ سنين من متوسط كلم هذا الملك الصالح وهو ٤٢١ بقي ١١٢ سنة وصادف زمان حكم طراجان الملك وقد اصدر طراجان في هذه السنة مرسوماً يقضي ان كل عيسوي يرفض عبادة الإلهية يحاكم كمخائن للدولة ويعرض للموت .

(١) وهنالك كهوف اخرى مثل كهف بحبل قاسيون بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب الى اصحاب الكهف وانا زرتة وعله في الدرجة الثانية من محتملات الكهف ، وثالث =

(١) سنة ١٩٦٣ م المطابقة (١٣٤٢) والى في ذلك متصدية الاثرى الفاضل « رفيق وفا الدجاني » كتاباً سماه اكتشاف كهف اهل الكهف نشره سنة ١٩٦٤ - ١٣٤٣ .

وأيّ كان كهفهم فموضوع البحث هم انفسهم اذ كانوا من آيات الله في قيامهم ولبثهم في كهفهم وتزاور الشمس عن كهفهم اذا طلعت وقرضهم اذا غربت وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال : « ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » .

وتُرى من ذا تعني « ترى » ؟ أهو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يُطلع عليهم عياناً كما تلمح « لو » : في « لو اطلعت عليهم » ! ام غيره ؟ فاحرى ألا يُطلع فيرى ! ام هو بيان الحال إن كان هناك من يرى لرأى الشمس . . او « ترى » خطاب لمن يرى ، تلميحاً ان هناك من سوف يكشف الكهف فيرى ، او ان الرسول رآه ولم يُطلع عليهم ولعله احرى ، اضافة الى من يرى ، مهما لن يروا « ايقاظاً وهم رقود » بعدما اعثر عليهم فيما مضى ، فان رؤية الشمس تزاور تكفيها رؤية الكهف ، وهي بسيطة

= بالبتراء من بلاد فلسطين ينسب الى اصحاب الكهف ورابع هو كهف إفسوس مدينة خربة اثربة واقعة في تركيا على مسافة ٧٢ كيلومتراً من بلدة ازميز والكهف على مسافة كيلومتر واحد من إفسوس قرب قرية «اياصولوك» بسفح جبل «ينا يرداغ» وهو كهف واسع فيه - على ما يقال - مئات من القبور مبنية من الطوب وهو في سفح الجبل وبابه متجه نحو الجهة الشمالية الشرقية وليس عنده اثر من مسجد او صومعة او كنيسة ، وهو الاعرف عند النصارى وورد ذكره في عدة روايات إسلامية ، وخامس اكتشف - على ما قيل - في شبه جزيرة اسكاندنا فيه من الاوروبة الشمالية عثروا على سبع جثث غير بالية على هيئة الرومانيين يظن انهم اصحاب الكهف .

وربما يذكر كهوف اخرى منسوبة الى اصحاب الكهف كما يذكر ان بالقرب من بلدته نخجوان من بلاد قفقاز كهفاً يعتقد اهل تلك النواحي انه كهف اصحاب الكهف وكان الناس يقصدونه ويزورونه ، والكهوف غير الرومانية من هذه الست نقطع انها ليست لاصحاب الكهف لان القصة رومانية ولم تبلغ سلطنتهم في ايام مجدهم نواحي اوروبة شمالية وقفقاز .

سورة الكهف / آية ١٨ ٤١

لِلرَّسُولِ (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي غير رؤيتهم المستحالة بـ «لو»
فأنهم قضوا نحبتهم .

﴿وَنَحْسِبُهُمْ اِيقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ
وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطْلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِثْتَ
مِنْهُمْ رُعْبًا﴾^{١٨} .

﴿وَنَحْسِبُهُمْ اِيقَاطًا﴾ حيث العيون مفتحة لا غامضة ، مهما كانت
حالتهم غامضة ، «وهم رقود» حيث «ضربنا على اذانهم» «ونقلبهم» طول
مكوثهم المديد «ذات اليمين» من شمائلهم «وذات الشمال» من
ايمانهم ، تقلباً دائباً جنباً الى جنبه كيلا تاكلهم الأرض بطول المكوث ،
كيقظة اوتوماتيكية ، و «كلبهم» طول هذه المدة «باسط ذراعيه
بالوصيد» : فناء الكهف وبابه ، أحياناً يرصدهم ؟ أم راقداً كأمثالهم ؟ لا
أثر عن رقدته في آياتها ، فليكن يقظاناً يرقبهم وهو آية في هذه
الآيات^(١) ! .

حالتهم المنقطعة النظر بين موت وحياة ويقظة ورقدة تولي المطلع
عليهم فراراً وتملأه رعباً .

وترى ذلك الحسبان مستمر الى زمن الرسول (صلى الله عليه وآله

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥١ ح ٣٦ - القمي حدثني ابي عن الحسين بن خالد عن ابي الحسن
الرضا (عليه السلام) انه قال : لا يدخل الجنة من البهائم الا ثلاثة : حمارة بلعم وكلب
اصحاب الكهف والذئب وكان سبب الذئب انه بعث ملك ظالم رجلاً شرطياً ليحشر قوماً
من المؤمنين ويعذبهم وكان للشرطي ابن يحبه فجاء ذئب فاكل ابنه فحزن الشرطي عليه
فادخل الله ذلك الذئب الجنة لما احزن الشرطي .

وسلم) ولحد الآن حيث «نحسبهم ايقاظاً وهم رقود»^(١) فهم حتى الآن وحتى متى ! لا ندري ! نائمون ؟ ولماذا تلك النومة الطويلة بعد القومة عن الأولى ولا خبر عن هكذا نوم ليستدل بهم علي «أن الساعة آتية لا ريب فيها» ! أم انه حكاية لحال ماضية ؟ قد تلمح لها «لو اطلعت عليهم» حيث نُحِيل ذلك الإطلاع ، ولو كانوا في حالتهم الى زمنه كان (صلى الله عليه وآله وسلم) اخرى من يطلع عليهم ، وإلا فما هي الحكمة في بقاءهم نائمين ولن يطلع عليهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) المطلع على كل مطلع هو مطلع لرسالته كسائر مطالعها ! والهدف من هذه الآية الإلهية الاثارة عليها «وكذلك اعثنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها» ولا عثور عليهم بعدهم لحد الآن ، فلا حكمة في نومتهم حتى الآن ومنذ اعثر عليهم !^(٢) .. ثم الآية «لو اطلعت ..» تتحدث عن حالتهم قبل بعثهم فتقطع اذا بعثهم ، واما انهم ارجعوا الى نفس الحالة ام ماتوا فلا دلالة هنا على اي منهما ، إلا استدلالاً على موتهم

(١) في رواية القمي عن الامام الصادق (عليه السلام) الماضية : «فاخبرهم صاحبهم انهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وانهم آية للناس فبكوا وسألوا الله ان يعيدهم الى مضاجعهم نائمين كما كانوا ..»

(٢) في الدر المنثور عن ابن عباس قال : غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه اصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن فقال معاوية : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس : ليس ذلك لك قد منع الله ذلك عمن هو خير منك فقال «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً وملكيت منهم رعباً» فقال معاوية : لا انتهي حتى اعلم علمهم فبعث رجلاً فقال : اذهبوا فادخلوا الكهف ، فانظروا فذهبوا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم فبلغ ذلك ابن عباس فانشأ يحدث عنهم ...

اقول : لو كانت الرواية منسوبة الى المعصوم لما كنا نصدقها حيث لا توافق القرآن او مخالفه ، فضلاً عن ابن عباس !

بما استدللنا ، والكهوف المكتشفة لحد الآن دليل واقعي على انهم ليسوا بنائمين^(١) .

وقد يعني «لو اطلعت» غير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فانه لا يولي فراراً من آية إلهية ولا يملأ منها رعباً^(٢) إم إنها تُحيل الإطلاع عليهم لأنهم أموات وليسوا نياماً ، ثم تولى الفرار والرعب على فرض الإطلاع لسواه دونه !

وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا

(١) في كتاب سعد السمود لابن طاووس نقلاً عن تفسير أبي اسحاق ابراهيم بن محمد القزويني باسناده الى انس بن مالك قال : اهدي لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بساط من قرية يقال لها بهندف فقعده عليه علي وابو بكر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي : يا علي ! قل يا ريح احملي بنا فقال علي (عليه السلام) : يا ريح احملي بنا فحمل بهم حتى اتوا اصحاب الكهف فسلم ابو بكر وعمر فلم يردوا السلام ثم قام علي (عليه السلام) فسلم فردوا عليه السلام فقال ابو بكر : يا علي ما بالهم ردوا عليك ولم يردوا علينا ؟ فقال لهم علي (عليه السلام) فقالوا : انا لا نرد بعد الموت الا على نبي او وصي نبي ثم قال علي (عليه السلام) : يا ريح احملينا فحملنا ثم قال : ضعينا فوضعنا فركز برجله الأرض فتوضأ علي (عليه السلام) وتوضأنا ثم قال : يا ريح احملينا فحملتنا فوافينا المدينة والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صلاة الغداة وهو يقرأ « أم حسبك ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً » فلما قضى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الصلاة قال : يا علي اخبروني عن مسيركم ام تحبون ان اخبركم ؟ قالوا : بل نخبرنا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال انس بن مالك : فقص القصة كأن كان معنا . (هامش نور الثقلين ٣ : ٢٤٨ - ٢٤٩) .

(٢) في تفسير العياشي عن محمد بن سنان البطيخي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) في الآية قال : إن ذلك لم يعن به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انما عني به المؤمنون بعضهم لبعض لكن حالهم التي هم عليها .

يوماً او بعض يوم قالوا ربكم اعلم بما لبثتم فابعثوا احدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرون بكم أحداً» ١٩ .

«وكذلك» الذي فعلنا من آيات خوارق للعادات في الضرب على أذانهم سنين عدداً وتقليبهم فيها ذات اليمين وذات الشمال ، وتزاور الشمس عنهم ، وقرضها إياهم : «كذلك بعثناهم» آية أخرى «ليتساءلوا بينهم» عن مكثهم وبعثهم كغاية أولى لأنفسهم ، ومن ثم لمن سواهم : «وكذلك اعثرنا عليهم ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة آتية لا ريب فيها .. !

تساءلاً بينهم بينهم بإجابة المقال والحال ان للحق دولة وللباطل جولة ، أنهم يفركون أعينهم من هذه النومة الطائلة الثقيلة فيسأل سائلهم «كم لبثتم» ؟ ولأنه لا يدري كم لبثوا ، فيأتي الجواب «لبثنا يوماً او بعض يوم» تردداً لهم كلهم ، أو اختلافاً بينهم في «يوم او بعض يوم» إجابة دون تعمق وتأنق ، تلوح من ظاهر النوم : ثقيلًا بعض يوم ، ام أثقل فيوم او ان «يوماً» بتخيل انهم استيقظوا في مثل الوقت الذي ناموا فيه صباحاً او مساءً فـ «يوماً» او اخطأوا المثل فظنوا المساء صباحاً او الصباح مساءً وقد ناموا خلافه فـ «بعض يوم» و النوم يقتضي هكذا تردد في امدده وحدّه ، او انهم ناموا غدوة وبعثوا آخر النهار فظنوا انهم لبثوا يوماً ، فلما رأوا الشمس باقية قالوا «او بعض يوم» ولذلك تقدم «يوماً» على «بعض يوم» ام ماذا ؟

«قالوا» جماعة آخرون وعَلَّ السائل منهم فطران ، ام ليس منهم فتلاثة «ربكم اعلم بما لبثتم» «فلسنا نحن له بعالمين ، إذ نتلمس خارقة في نومتنا لم نلمسها في سائرنا حيث الشعور طويلة كما الاظفار ، والوجوه متغيرة ، ما لا يحصل في أية نومة ، فلا يوم ولا بعض يوم ! وليس «اعلم»

هنا فقط تأدباً فإنه ليس قولاً ورأياً ثانياً يجعل قائله حزباً ثانياً ، ولا انه إحصاء ثان « لنعلم اي الحزبين احصى » وإلا لقالوا « ربنا اعلم بما لبشنا » لا « ربكم » ! .

إنما «اعلم» لأن لنا بعض العلم بأمد لبشنا اعتباراً بمظاهرننا ، ثم لا نعلم امدنا إحصاء تاماً بل «ربنا اعلم بما لبثتم فابعثوا ...» .

ومن لطيف الأمر في هذه الحوار انها تلمح انهم لم يكونوا اقل من سبعة : «قال قائل منهم كم لبثتم» فواحد «قالوا لبشنا يوماً او بعض يوم» أقلهم ثلاثة فانها اقل الجمع «قالوا ربكم اعلم بما لبثتم» كذلك اضافة الى جمعي «كم وتم» حيث يؤكدان جمع الأول كما ان «قالوا» دليل الجمع الثاني !

واذا حصرت الأقوال في عدتهم في : ثلاثة - خمسة - سبعة ، فالاولان مرفوضان والثالث متعين ، ولا سيما بما يأتي من رجم الغيب لهما دونه^(١) وهذا هو شأن المؤمن : «ربنا اعلم» فيما لا يعلم ، ام يعلم ولا يستيقن ، وكيف يعلم ما يعلمه الله من أمره الذي لا يعلم ؟ يحاول بما عنده من وسائل ليعلم ومنها هنا : «فابعثوا احذكم بورقكم هذه الى المدينة ..» يتبين لكم من نومكم «يوماً او بعض يوم» ام دهرأ طويلاً قضي على

(١) هنا احتمالات ست - ١ - «قال قائل» واحد «قالوا لبشنا ..» ثلاثة «قالوا ربنا اعلم» ثلاثة والمجموع سبعة - ٢ - «قالوا» في كل اثنان ، احدهما في الثانية هو القائل الأول فالمجموع اربعة ، ام ليس هو هو فخمسة ، او «قالوا» في احدهما اثنان وفي الآخر ثلاثة ، واحد من الثاني هو الاول فخمسة ام لا فسته ، فالاربعة والسته خلاف الاقوال الثلاثة في الآية (٣٢) والخمسة تخالف ظاهر الجمع انه ثلاثة فما فوق ، فالمتعين هو السبعة حيث الاول «قائل منهم» ليس في «قالوا» الثانية وهو لا ينافي في «اي الحزبين» فانه ليس حزباً ولا داخلاً في اي الحزبين تأمل .

السلطات الطاغوتية في المدينة ، فان كانت السلطة باقية فـ«ليتلف ولا يشعرون بكم احداً» : والظاهر انها باقية باقية باقية ! وإن لا ، فلا حائطة ولا تقية !

تري وماذا يحملهم ان يبعثوا احدهم بورقهم ليأتهم برزق من المدينة وهم يحذرون ان ينكشف امرهم ؟ فهلاً صبروا على جوع حفاظاً على أنفسهم جميعاً ! وهم يعلمون «انهم ان يظهروا عليكم يرحموكم او يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا ابدأ» وإنما للخسارة الكبرى !

علمهم وصلوا من الجوع لحد لا تصبر عليه إلا الموت صبراً ، فهم إذا بين موت معمد جماعي قاطع ، وبين تعريض واحد منهم لخطر يُحتمل ، وهو طبعاً ممن يتستر في امرهم ويستترهم دون إشارة اليهم مهما بلغ أمره ، حيث التلطف هو التخفي الكامل ، ومن ثم لو عرفوه فلا يتجاوز نفسه اليهم : «ولا يشعرون بكم احداً» .

راى صائب ثاقب حصيلة شوري بين هؤلاء الأكارم القائلين : «ربكم اعلم بما لبثتم» فيه كل حائطة على المبعوث بورقهم وعليهم ، تبين من «فليُنظر ايها أزكى طعاماً» أي المدينة ازكى .. حيث يحمل سيراً رقيقاً حثيثاً في المدينة يتعرف فيه اليها والى اهليها ليطمئن إليها هل هي كما كانت فحذراً ، ام تغيرت الى الايمان فأماناً ، ومن ثم ليحصل على أزكى طعام فيها اذا ظلت في إشراكها بالله ، فليس لموحد ان يتطعم من مشركين طعاماً يخللونه خلاف شرعة الله ، واما عند الضرورة «فليُنظر ايها ازكى طعاماً» تقليلاً لرئاسة الطعام الشركية كتقليل الطعام لبلغة الحياة : فالضرورات تبيح المحظورات وتقدر بقدرها !

ومن جهة اخرى فالأزكى طعاماً من المدينة هو الأزكى اخلاقاً فلا يتجسس عن خبايا الناس ، ولا يتحسس لصالح الطاغوت مهما كان مستضعفاً في حكم الشرك ، فهذه ابعاد ثلاثة من المصالح في « فليُنظر ايها ازكى طعاماً .. » !

و«ازكى طعاماً» هنا تشمل زكاة الحل وزكاة الطهارة والطيبة قدر الامكان فما لا يُدرك كله لا يُترك كله و«من اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فإن الله غفور رحيم (٥ : ٣) ومنه في «فليأتكم برزق منه» راجع الى الورق والى الطعام ، رزق من الورق دون زيادة عليه وان كان النقص منه ، ورزق من الطعام كبلغة الحياة دون زيادة عليها ولا اقل منها .

ومن ثم تتبين هذه الحائطة من «وليتلطف» تكلفاً لإخفاء امره ، ورفقاً وليناً في المعاملة تجنباً عن المشاجرة التي هي من اسباب التفتيش عنه فعنهم وواويلاه ! «ولا يشعرون بكم احداً» إن شعروا به ام ماذا ؟ فليكن صلياً صلد ألا يمد الى احد شعرة واشعاراً فشعوراً مهما افرغت عليه الضغوط ولحد الموت ، حفاظاً على ايمانه وعلى دماء ونفوس الآخرين :

﴿انهم ان يظهروا عليكم يرجوكم او يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا اذا ابداً﴾ ٢٠ .

الظهور على هو التطلع علماً وواقعاً ، فليس العلم بهم دون الوصول اليهم ظهوراً عليهم ، ولا الوصول اليهم دون علم بهم ظهوراً عليهم ، إنما هو الوصول المطلع كما «الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء» تعنيه ، فلا علم الطفل دون بلوغ الحلم بعورات النساء يكفي فرض الحجاب عنهم ، ولا الوصول الى عوراتهن دون علم انها مواضع الشهوات يكفي ، وإنما الظهور على العورات علماً بها وامكانية الوقاع !

إن اشعر هذا المبعوث بكم، تخللوه الى العلم بكم إطلاعاً عليكم وهم بعاد ، ثم التطلع عليكم حتى تصبحوا في قبضتهم فيقع المحذور بين أن «يرجوكم» قتلاً فضيحاً منقوراً مطروداً ، ولكي يشتركوا فيه كلهم إذا كانوا كلهم مشركين ، ام واشد تنكيلاً «او يعيدوكم في ملتهم» حملاً على الإشرار وان في ظاهر الحال حيث العقيدة لا تقبل الإكراه .

هنا يتقدم الرجم لأنه ظاهر الحال العاجلة من السلطة المشتركة التي كانت في طلبهم وهم على ما هم من تصلب العقيدة وتصلدها، ومن ثم لو نجوا عن الرجم فإعادة الى ملتهم وهي اشد من الرجم وأنكى ! .

ترى واذا اتقوهم في ظاهر الحال مسايرة عملية مع الحفاظ على ايمانهم اليسوا اذاً مفلحين؟ ولكننا الدخول في جو التقية دوغما إكراه ضلال ، حيث يقضي على عمل الايمان ، ومن ثم القضاء يتسرب للقضاء على نفس الايمان ، حيث التعود المسير على ترك واجبات الايمان وفعل محرماته ، مما يحرف تدريجياً الى ترك الايمان وليسوا هم بطبيعة الحال ممن يكتفي منكم بظاهر ادعاء العودة في ملتهم بعد ما قمتهم قومتمكم في رفضها ، إلا ان يراقبكم رقابة تامة في القيام بطقوس الشرك وترك التوحيد بكل مظاهره .

ف«إنهم ان يظهروا عليكم .. ولن تفلحوا اذاً ابداً» أن «يعيدوكم في ملتهم» وكذلك ان «يرجوكم» حيث الظهور عليكم المخلف وراءه رجمكم إلقاء لأنفسكم بأيديكم الى التهلكة ! فلو ماتوا جوعاً خيراً لهم من ان يذهبوا ضياعاً : رجماً انتهارياً ام عوداً في ملة الشرك اختيارياً حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار !

وليس طلب البلغة والبقية للحياة مما يسمح لالقاء النفس الى التهلكة رجماً ام عوداً في ملة الشرك ، اللهم الا بحائطة قاطعة ان «لا يشعرون بكم أحداً»، ولو شعروا فلا نتحمل إلا رجماً !

واعادتهم في ملتهم دليل على أنهم كانوا على ملتهم ثم استبصروا وكما نتلمحه من «إذ قاموا فقالوا ربنا الله لن نشرك به أحداً» أو أنهم كانوا لردح من الزمن يسايرونهم في ظاهر الشرك تقية نقية اضطرارية ، والعودة الى هذه الحالة اختيارياً عود في ملة الشرك وان كان ظاهرياً وهذا أظهر من العودة قضية كونها كالبدء ولا عودة اضطرارياً الى عقيدة .

فعلى المؤمن الفرار من جوالضلال والتقية ، ثم ليس له الرجوع الى ذلك الجو إلا لمرجح أهم ، او الإقدام على ما يحتمل الرجوع اضطرارياً لواجب أهم رعاية للحائطة ، فلا تقية « إلا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » (١٦: ١٠٦) وهنا يذهب الايمان ويذوب وليست تقية اكره حيث التسبب الى الإنحصار في مجتمع الكفر والإنحصار عن خالص التوحيد كان نتيجة الاختيار ، وأرض الله واسعة تفرض على المؤمن الفرار بايمانه ، فكيف الرجوع الى جو اللأ ايمان : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم ، (٤ : ٩٩) .

هكذا نشهد مشهد فتية الايمان اذ يتناجون فيما بينهم حذرين غير عارفين بمرور الأيام ومرور الاعوام ، فقد دارت عجلة الزمان فتعاقبت اجيال واختلفت أميال ، فمدىنتهم التي هاجروها تغيرت عوالمها ومعالمها ، ودالت دولات المتسلطين عليها وقصة الفتية تناقلتها الاخلاف عن الاسلاف على تعارض الاقاول حولهم .

ومن ثم الآن اهل المدينة مؤمنون ، شديدوا الحفاوة بالفتية المؤمنين ، وبعدما رأوا واحداً منهم بصورة وسيرة اخرى وبورق آخر مرت عليه الزمن :

﴿ وكذلك أعرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لتتخذن عليهم مسجداً ﴾ (٢١)

الإعثار هو الإطلاع مضمناً مصادفة الشيء من دون طلب له ولا

٥٠..... الجزء الخامس عشر

إحساس به وأصله ان الساعي في طريقه اذا صك قدمه او نكب اصبغه شيء ففي الاغلب انه يقف عليه متأملاً له فكانه استفاد علمه دون ان تتقدم معرفته به ، وكذلك أعثرهم الله عليهم .

« وكذلك » الذي حصل من آيات أصحاب الكهف : « ذلك من آيات الله » تتلوها آية اخرى هي ان « أعثرنا » أهل المدينة « عليهم » لأمرين اثنين للذين عثروا ، بعد امر هام لأصحاب الكهف « ليتساءلوا » امرٌ أول « ليعلموا أن وعد الله حق » وثاني : ليعلموا « أن الساعة آتية .. »

وهل « ليعلموا » اصحاب الكهف ؟ وهم كانوا على علم بحق الوعد لهم وان الساعة آتية ! اللهم إلا عين اليقين بما رأوا من وعد الله الحق في أمرهم الرشد والمرفق ، وعين اليقين بما رأوا من بعثهم بعد نومتهم التي هي كانت كموتة !

كذلك و « ليعلموا » من اعثروا عليهم نفس العلم مهما اختلفت الدرجات ، وليعلم من يسمعها ، فـ « ليعلموا » يشملها وسائر من يعلم قصتهم على مر الزمن .

ترى انه أعثر عليهم وهم أحياء ؟ فلماذا « يتنازعون بينهم أمرهم » ولهم أن يسألوا أصحاب الكهف أمرهم ! وكيف « قالوا ابنوا عليهم بنياناً » وهم بعد أحياء !

ام أعثر عليهم بعدما ماتوا فقد سدل الستار على مشهدهم لعرض مشهد آخر وبينهما فجوة متروكة فيها موتهم ؟ فللتنازع في أمرهم هنا موقع ، ولبناء بنيان عليهم هنا معنى !

أم بين ذلك عوان ، أعثر على أحدهم المبعوث الى المدينة حياً وهو طبيعة الحال المعلومة من القصة ، ومن ثم أعثر على الباقيين ميتين و « الذين

غلبوا على أمرهم « انما غلبوا بمبعوثهم على أمرهم من طول شعوره وأظفاره ومن قديم ملابسه وقديم ورقه ولهجته ومواجهته دون ان يشعر هو بشيء من ذلك اللهم إلا حالته الظاهرة التي لا تخفى على ذي حجبى ! ،

ام اعثر عليهم وهم أحياء ، وفور العثور أماتهم الله ، فلم يبق لغلب على أمرهم مجال اللهم إلا من مبعوثهم لجماعة خصوص اختصوا بالغلب به على أمرهم ؟

حقاً لا يستفاد من آيات القصة أنهم اعثروا عليهم بعد موتهم ! وليس في هكذا إعتار علم « ان الساعة آتية لا ريب فيها » إلا أن يروهم أحياء عن نومتهم ، ثم اماتهم عن حياتهم في رقدهم .

ولا نعلم بموتهم فور العثور عليهم دون إمهال إلا من خلال « إذ يتنازعون بينهم أمرهم » و « ابنوا عليهم بنياناً » !

وذلك إعتار م شمار أن يشهدوا مشهد أصحاب الكهف أحياء وأمواتاً ، ف « يعلموا أن وعد الله حق » فيما حقق لهم وفي آتيان الساعة ، ويعلموا « أن الساعة آتية لا ريب فيها » .

وأما أن يشهدوهم أمواتاً فلا معلومة فيها ، اللهم إلا إعتارهم على مبعوثهم فقط حياً ، وهذا لا يلائم تنازع أمرهم بينهم وبناء بنيان عليهم أم هو بعيد ! (١) .

(١) في بعض روايات القصة أنهم لما هربوا واطلع الملك على أمرهم افتقدهم ولم يحصل منهم على أثر، وفي بعض أنه وجدهم نياماً في كهفهم فأمر أن يُبنى على باب الكهف بنيان ليحتبسوا فيموتوا جوعاً عطشاً فبقوا على حالهم حتى إذا أراد الله أن ينهبهم بعث راعي غنم فخرّب البنيان ليتخذ حظيرة لغنمه وعند ذلك بعثهم الله أيقاظاً وكان من أمرهم ما قصه الله ، وفي بعض أنه لما ظهر أمرهم اتاهم الملك ومعه الناس فدخل عليهم الكهف فكلّمهم فبينما هو يكلمهم ويكلّمونه إذ ودعوه وسلموا عليه وقضوا نحبهم وفي بعض أنهم «

ترى وما هي مادة التنازع في أمر أصحاب الكهف بين هؤلاء الذين أعثروا عليهم ؟ هل هي أمر مكوئهم الخارق للعادة ؟ فطائفة منهم تغامضوا عن كونها آية للبعث وان الساعة آتية لا ريب فيها فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم » بنياناً يخفي أمرهم ، فنحن لا ندري من أمرهم شيئاً فلنجعل في زمرة المجاهيل المغايل « قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً » ليكونوا عبرة للزائرين ومعبدًا للساجدين ، دليلاً على التوحيد وان الساعة آتية لا ريب فيها » وهم الموحدون الذين عرفوا امرهم ، لا السلطة الزمنية اذ لا تختص بهذه الغلبة دون الشعب ، والسلطات الزمنية في الأغلبية الساحقة مهدمة المساجد لا معمرتها ، ثم ومن يجرء على المنازعة مع السلطة مع تقديم الرأي ضد السلطة ، فانما هم الغالبون على أمر اصحاب الكهف قضية قوة الايمان !

ومادة اخرى بين الذين غلبوا على أمرهم ، وتنازعوا فيها رغم الوحدة في آية نومهم ، هي أمد لبثهم أفاذا من أمرهم ومن ثم التنازع في عدتهم ، وطبعاً لمن لم يغلب على أمرهم ومن أظهره عدتهم :

﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجاً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي اعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم الا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم احداً ﴾ (٢٢).

فيما مضى عرفنا من حوار اصحاب الكهف في « كم لبثتم » انهم لم يكونوا باقل من سبعة ، وهنا نتأكد انهم سبعة ، فان « رجاً بالغيب » ترجم القولين دون السبعة ، ثم لا رجم على « » ويقولون سبعة » فلو كان مثلها.

= ماتوا او ناموا قبل ان يدخل عليهم الملك وسد باب الكهف وغاب عن ابصارهم فلم يبتدوا للدخول فبنوا هناك مسجداً يصلون فيه - أقول ولا نقول إلا ما يوافق القرآن وقد نتحمل ما لا يخالفه .

لردف بهما في « رجماً بالغيب » ام لو كان المرجوم أحد الاولين فقط لاختص هو بالرجم دون الآخر ، وهذه من بلاغة الكلام القمة ولباقته ان يذكر القول الحق بين الاقاول دوناً تصريح به لكي يحث على التفكير ، ويتعد عن التنكير النكير ، حيث الإصطدام بين القائلين والاحتدام بين الاقوال لا يخلي اي مجال لقول صُراح ، اللهم إلا تلميحة هي ابلغ من تصريحه .

والرجم بالغيب أصله الرمي بالحجارة الى مرمى مجهول لا يدري الرامي أيصيب هدفه ام يخطأ ، وقد لا يكون له هدف ، ثم استعير لكل قذف بالظن والحسبان ، والقول بغير علم ، ومن عادة العرب ان تسمي القائل من دون علم راجماً وقاذفاً ، كما تسمي الساب الشاتم رامياً راجماً ، ويقال : هذا الأمر غيب مرجم ، اي : يرميه الناس بظنونهم ويقدرونه بحسبانهم .

فالراجم بالغيب كالراجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره المرمية اين وقعت ، فتارة يمئة واخرى يسرة ، وهنا « رجماً بالغيب » يرجم « ثلاثة وخمسة » على ما في القولين من سوء التعبير « رابعهم كلبهم .. سادسهم كلبهم » كأن كلبهم منهم ، فالاربعة او الستة كلهم كلاب ، ام كلهم او ادم ، دوناً عطف لكلبهم عليهم ، يدل على المغايرة ، كما يدل على ردفه بهم ، ولكنها القول الثالث « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » فيه رعاية الادب بواو العطف ، فردف الكلب بهم دون عطف يجعل جملة الكلب صفة لهم او حالاً منهم ف « رابعهم كلبهم وسادسهم » وصفان لـ « ثلاثة وخمسة » او حالان ، وفيه ازراء بساحة فتية الايمان ومس من كرامتهم ، والعطف يخرجها عن وصفهم او حالهم حيث يفيد الردف بين متغايرين متوافقين ، تغايراً في الكيان وتوافقاً في المكان ، فكلبهم منهم حيث ردفهم يرصدهم ، وليس منهم فهم فتية آمنوا برهم وهو كلبهم ! فحيث وقعت الواو انقطعت العدة وثبت انهم سبعة وثامنهم كلبهم بالقطع

والثبات ! حيث العطف يجعل المعطوف عليه مستقلاً عنه ، محوراً أصيلاً للكلام ، وترك العطف يجعلهما في نطاق واحد !

وكأن الأقوال حول عدد أصحاب الكهف منحصرة في هذه الثلاث أم هي أشهرها ، في غابر الزمن وحاضر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد عثر على عدة من الكهوف والغيران وعلى جدرانها تماثيل رجال ثلاثة أو خمسة أو سبعة ومعهم كلب .

وُصف القولان الأولان بـ « رجماً بالغيب » والآخر إضافة إلى العطف المعطوف بـ « قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل » تدليلاً على أن قائله من هذا القليل ، وكيف عرف القليل هذا الغيب إلا بوحيه وها هو وحيه يلوح نلحة مليحة بعدتهم - فإن « قل ربي أعلم بعدتهم » تجهيل لجماعة وهم القائلون « ثلاثة .. خمسة » وتبجيل لآخرين عالمين « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » وإنهاء لعلمه إلى رب العالمين : « ربي أعلم » . كما و « ما يعلمهم إلا قليل » تبجيل لهذا القليل ثانياً ، والرسول أفضل هذا القليل كما ويلوح إليه « قل ربي أعلم بعدتهم » فلم يقل الله أعلم ، إنما « ربي » بما علمني ورباني !

ومن ثم آخرون يتبعونه ، ونحن من هذا القليل ، وكما بعض الأصحاب الأقدمين يعد نفسه منهم^(١) ونفي العلم بـ « ما » دون « لا » في ما يعلمهم الا قليل . نفي للحال فاستثناء للقليل في الحال : ان القليل يعلمونهم الحال . فضلاً عن الاستقبال ! فاحرى من يعلمه هذا القليل هو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث اوحى إليه « ويقولون سبعة »

(١) منهم ابن عباس كما اخرج عنه عبد الرزاق والفريابي وابن سعدون ابن جرير وابن المنذر وابي حاتم من طرق واخرج مثله عن الطبراني في الاوسط بسند صحيح عنه ومنهم ابو مسعود كما اخرج عنه ابن ابي حاتم (الدر المنثور ٤ : ٢١٧) .

وثامنهم كلبهم .»

ثم وعلم للقليل قد يشمل عدتهم واسماءهم ، كما يروى عن علي (عليه السلام) اسماءهم^(١) والله أعلم بعدتهم واسماءهم ، وهذا القليل يعلمهم بما علمهم ربهم ، وكما علمنا هنا عدتهم .

واذا القائلون عن عدتهم بين راجم بالغيب وبين صادق « فلا تمارفهم إلا مرء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً » .. فلما ذا المرء الباطن وأنت من هذا القليل العالمين بهم بما علمك ربك ، ولماذا تستفيهم ، والراجم منهم بالغيب لا يستفتي والصادق يستفتيه اذ لا يعلمهم وأنت تعلمهم ! والمرء الظاهر هو الخالي عن العمق والإستبطان ، وأصل المرء من مريت الناقة اذا مسحت ضرعها للحلب ، وتسمى الجدال مرء لما فيها من إصرار المماري بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهي عنه . فترك المرء معهم فيهم تجهيل لنفسه ، والمرء الباطن المستبطن استعلام ممن يجهل ، او ممن يعلم وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يعلم فلماذا يستعلم ؟ والمرء الظاهر ممارسة ومدارات احتساباً لما أوحى إليه ربه فحسبه ربه تعليماً له ومرء معهم !

ثم المرء غير مدوح في باطنه دون ظاهره ، وان كان في حق والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) زعيم بيوتاً في الجنة لمن ترك المرء وان كان محقاً^(٢) ف « اياكم والمرء والخصومة فانها يمرضان القلوب على الإخوان

(١) في تفسير روح المعاني ج ١٥ : ٢٤٦ وروي عن علي كرم الله وجهه ان اسمائهم : بليخا ومكشلينيا ومثلينيا وهؤلاء اصحاب يمين الملك ، ومرونش ودبرنوش وشاذنوش وهؤلاء اصحاب يساره وكان يستشير الستة والسابع الراعي واسم كلبهم قطمير وذكر العلامة السيوطي في حواشي البيضاوي ان الطبراني روى ذلك عن ابن عباس في معجمه الاوسط باسناد صحيح .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٥٣ ٤٤٦ في كتاب التوحيد باسناده الى اسماعيل بن ابي زياد عن =

وينبت عليهما النفاق^(١) و « لا تمارين حليماً ولا سفيهاً فان الحليم يغلبك والسفيه يؤذيك^(٢) » .

والتماري حول عدد الفتية لا طائل وراءه فسواء أكانوا ثلاثة او خمسة او سبعة اما زاد او نقص ، فما يعلم عدتهم الا الله والقليل الذين حضروا محضر الكهف في زَمَتِه ، والذين عرفهم الله ، فلماذا التماري اذاً إلا مرأء ظاهراً ، والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل والكثير ، والقرآن يلح بعدتهم دون تصريح ، تنبيهاً بعدم العناية بعددهم وانما المعنى به عُدَّتْهُمْ ، صيانة للطاقة العقلية ان تبدد في ما لا يفيد ، وتوجيهها لها إلى ما يفيد ، وآلاً يمارى راجم الغيب إلا مرأء ظاهراً دون تعميق ولا تعقيب ، فهذا حدث تاريخي طواه الزمن وهو من الغيب المؤكول الى علم الله او مَنْ علَّمه الله ، فلماذا التماري فيه او الاستفتاء ؟!

فالمرأء محظور وان كان في حق ، اللهم إلا مرأء ظاهراً يقف على حق

= جعفر بن محمد عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : انا زعيم ببيت في اعلى الجنة وبيت في وسط الجنة وبيت في رياض الجنة لمن ترك المراء وان كان محقاً وفيه عن اصول الكافي باسناده قال : قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاث من لقي الله عز وجل بهن دخل الجنة من اي باب شاء : من حسن خلقه وخشي الله في المغيب والمحضر وترك المراء وان كان محقاً وفي كتاب الخصال عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : من يضمن اربعة باربعة آيات في الجنة . . وترك المراء وان كان محقاً .
(١) المصدر ح ٤١ في اصول الكافي بسند عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) : . . .

(٢) اصول الكافي باسناده الى عمار بن مروان قال قال ابو عبد الله (عليه السلام) : . . . وفي كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن ابيه (عليهما السلام) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اربع خصال تميت القلب : الذنب على الذنب وكثرة مناقشة النساء يعني محادثتهن وممارسة الاحق تقول ويقول ولا يرجع الى خيرا بدأ الحديث .

ويقطع دابر الباطل بمرونة وليونة ، بمطالبة الدليل ، فاذا لا دليل فلا مدلول ، حيث المدعي لشيء بحاجة الى دليل دون النافي سناداً الى عدم الدليل .

كما الرجم بالغيب محظور في قياس وسواه ، فآية الرجم ترجم القياس في الاحكام واخرى من القياس كل ظنة في غير الاحكام ، وكما الآيات الحاصرة كل اتباع بعلم او اثارة من علم ، الحاذرة كل اتباع بغير علم إلا اذا كان مسنوداً الى علم .

﴿ ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً ^(٢٣) إلا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى ان يهدين ربي لاقرب من هذا رشداً ^(٢٤) .

موضوع النهي هنا « اني فاعل ذلك غداً » استقلالاً للمشية فيما يعده الإنسان ويريده في مثلث من التأكيد : « اني - فاعل - غداً » تحديد أ لزم من الفعل وتأكيدها ذا بعدين في أصله ، فـ « إن » توكله و « فاعل » الدالة على الثبات تثبته ، واما ان يقول « سأفعل غداً » أم « سأفعل » او « افعل » على مختلف مراتب التحتم في هذه الثلاث نازلة ، فالنهي لا يشملها ، اللهم إلا ان « لا تقولن » تنهى مؤكداً عن هذه الصيغة المؤكدة ، فيبقى النهي دون تأكيد في هذه الثلاث متدرج النزول فـ « لا تقولن - ام - لا تقل ... إلا ان يشاء الله » .

فلا يعمه (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تصريحية النهي المؤكد إذ لم يقل « اني فاعل ذلك غداً » ولا نهيه دون تأكيد في الثلاث الاخرى اذ لم يقل : سأفعل او افعل ، وانما تلميح في خامسة الاضلاع « تعالوا غداً » وحسنات الأبرار سيآت المقربين !

فـ « لا تقولن ... » مهما شملت رسول الهدي ، ليس إلا نهياً في تصريحته ألا يفعل ، لا انه فعل وهنا ينهى .

« لا تقولن .. إلا ان يشاء الله .. » : ربطاً لمشيتك بمشية الله ، وانت أيضاً كنت وفي اي موقف لا تملك أنفاذ مشيتك المعلومة عندك إلا بسناد مشيئة من الله الغائبة عنك فـ « لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا ان يشاء الله » ! .

في أفعالك الاختيارية لست مفوضاً تستقل في ارداتك دونما رادع او مؤيد من الله ، ولا مجبوراً يستقل ربك في ارداتك فأنت كصورة الفاعل والله هو الفاعل ! فـ « لا جبر ولا تفويض بل امر بين امرين » فـ « لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً » ام حالاً امآذا ، « إلا ان يشاء الله » .
انت في حاضرمشيتك وقوتك وارادتك غائب عن حول الله وقوته ، لا تدري اهو مؤيدك فيها ام رادعك عنها فـ « لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً » !

انت لا تستقل بنفسك إغماضاً عن ربك ولا تستقل نفسك فيما تريد كأنك لا حول لك ولا قوة اتكالاً « فاشلاً على ربك . كأن الفاعل هو ربك دونك أنت ، وانما أنت في حولك وقدرتك عوان بين ذلك ، تكرر طاقاتك كلها فيما تعنيه وهو مرضي لربك توكللاً لا اتكالاً . فلا تحس بالتبطر والغرور وانت مفلح ناجح ، ولا تستشعر القنوط وانت فاشل مخفق ، فانما عليك تجنيد ما عندك من طاقات وامكانيات فيما يرضي ربك وفي حالك ومقالك وأفعالك « إن شاء الله » فـ « لا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا ان يشاء الله » ! .

ليستشعر قلبك معنى « إن شاء الله » وليلفظ لسانك قول « إن شاء الله » ولتتسم أفعالك بسمه « إن شاء الله » فـ « ما تشاءون إلا ان يشاء الله » !

لا يملك المخلوق أياً كان لنفسه نفعاً ولا ضرراً باستقلال إلا ما شاء الله

وحتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء » (٧ : ١٨٨) فضلاً عن أن يملك لغيره أو يملك من الله « فلا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » !

« ان شاء الله » هي من كلمات رسل الله كما في يوسف « فلما دخلوا على يوسف آوى اليه ابويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » (١٢ : ٩٩) وموسى : « قال ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً » (١٨ : ٦٩) ويعقوب « وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين » (٣٨ : ٢٧) واسماعيل : « قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » (٣٧ : ١٠٢) .

لا فحسب رسل الله وعباده الصالحون بل وكذلك الله تعليماً لعباده واعلاماً ان يستمروا في قول: إن شاء الله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين .. » (٤٨ : ٢٧) .

ونحن نسمع كلمة ان شاء الله من الله نفسه فيما هو مقطوع من فعل او ترك من الله : « واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ » (١١ : ١٠٨) فرغم أن عطاء الجنة غير مجذوذ عن اهلها يستثنى خلودهم بمشيئته تشريعاً لها واعلاماً أنها غير محصورة بشيء ولا محسورة عن شيء - كما وان الآلهة من دون الله لا يخاف منها قطعاً ومع الوصف : « ولا أخاف ما تشركون به إلا ان يشاء ربي شيئاً » (٦ : ٨٠) ولا يشاء الرب ولن ان يخاف من دونه شيء ! وكما العود في ملة الشرك لمن لا يشاءها ولا سيما نبي الله ، انه من المستحيل ان يشاء الله ولكن : « وما يكون لنا ان نعود فيها إلا ان يشاء ربنا وسع ربنا كل شيء علماً على الله توكلنا .. » (٧ : ٨٩) .

ترى - بعد ذلك كله - كيف يترك أول العابدين قوله « إن شاء الله » وهو يعد السائلين جوابهم عن الله ، وليس جوابهم إلاً وحياً من الله

والرسول لا يملك وحي الله كما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ؟!

انها لا تعني الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فيمن تعنيه نصاً ، وانما هي تأنيب على التاركين لها ، وتأديب لهم ألا يتركوها^(١) فهي لهم تصریحة وللرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تلمیحة .

ام واذا تعنيه فيمن تعنيه فهناك بون بينه (صلى الله عليه وآله وسلم) وبين من سواه في وعد الفعل وان جمع بينهم في « لا تقولن » نهياً على الأبدال ، حيث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو اول العابدين لا يشاء إلا أن يشاء الله ، وكما يخاطب اهل بيت الرسالة المحمدية وهم انسان الدهر في « الإنسان - الدهر » : « وما تشاؤون إلا إن شاء الله ان الله كان عليماً حكيماً » (٧٦ : ٣٠) اذاً فهو هو نفسه مشيئة الله ، لا تجد فيه إلا « أن يشاء الله » في عقله وصدره وقلبه وسره وخفيه وأخفاه ، في حلة وترحاله ، في فعله وأقواله .

فمهما يترك لفظة « إن شاء الله » فيما يعد السائلين دون اي تأكيد خلاف « اني فاعل » اجابة بوحي الله ، فلا يعدهم إلا بمشيئة الله « اني فاعل ذلك غداً » كرسول من الله ، لا كمن يعرف الجواب دون وحي الله ، او يملك وحي الله ، وانما رسول من الله ، ما يشاء إلا ان يشاء الله .

فقد شاء فوعدهم أن يأتيه تلميحاً لوعده الاجابة ، ولكنه عليه كسنة رسالية وتعليماً لهذه السنة قوله « ان شاء الله » وان في لمحة ودون

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٥ ح ٥٥ في تفسير العياشي عن ابي جعفر (عليه السلام) ذكر ان آدم لما اسكنه الله الجنة فقال له : يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال : نعم ولم يستثن فامر الله نبيه فقال « ولا تقولن . . الا » ولو بعد سنة أقول فلم يكن ترك الاستثناء اذاً من الرسول نفسه وهو وجه كما وفي تركه ايضاً وجه ذكرناه .

تأكيد ولم يتركها إلا هذه المرة طول حياته المنيرة ، فليحتبس عنه الوحي اربعين يوماً لماذا ترك « إن شاء الله » ولكي يعرف السائلون من خلال ذلك الإحتباس انه حتماً رسول الله (١) .

انه لم يكن تاركاً لواجب رسالي يستوجب باحتباس وحيه ودعاً او قلى : « والضحي والليل اذا سجي . ما ودعك ربك وما قلى . . » بل هو من الطاف ربه الخفية مهما كان في ظاهرة ودع او قلى ، اللهم إلا ان يتركه متناسياً وموكداً في وعده ولم يؤكد ولن !

إذا فاحتباس وحيه كان رمية ربانية الى هدفين ، اهمهما تثبيت وحيه ورسالته ، أن لو كان من عنده لما احتبس عن الجواب ، ثم وعلى هامشه « ولا تقولن . . » فقط للقول المتروكة لا سواها من حول وقوة وإيمان وعقيدة فانه (صلى الله عليه وآله وسلم) كله « ان شاء الله » مهما يترك لمرة واحدة قولها الذي يخلف تثبيتاً . لوحيه باحتباسه ردحاً من الزمن ! .

ذلك الإحتباس في ظاهرة ليل اذا سجي وفي باطنه ضحي ، فكما الضحي رحمة كذلك الليل اذا سجي ، فليل احتباس الوحي كضحي الوحي فرقد ان متتابعان يتناصران في هامة الرسالة المحمدية السامية .

ثم « ولا تقولن » تشمل ما مضى من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وما يقبل ، كما ويشمل غير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فقولته (صلى الله عليه وآله وسلم) حين سأله عن أمر اصحاب الكهف

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٤ ح ٥٣ في من لا يحضره الفقيه روى حماد بن عيسى عن عبد الله بن ميمون عن ابي عبد الله (عليه السلام) . . ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اتاه اناس من اليهود فسألوه عن اشياء فقال لهم : تعالوا غداً احديثكم ولم يستثن فاحتبس جبرئيل (عليه السلام) عنه اربعين يوماً ثم اتاه فقال : « ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت » .

وذى القرنين والروح : تعالوا غداً احذثكم ولم يستثن، فنص النهي في الآية في مثلث التأكيد لا يشملها اذ لم يقل اني فاعل، وانما «تعالوا غداً» تلميحاً كأنه يجيبهم غداً دونما تصريح ولا تأكيد الا زمناً : « غداً » :

ثم قول إن شاء الله لا يردد القائل فيما يشاء ولا يفصم ارادته وانما تردد في مشيئة الله على حتمه في مشيئته .

فمن حلف وقال ان شاء الله ليس له الرجوع^(١) إلا ان يقول إن

(١) خلاف ما اخرج به البيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من حلف فقال ان شاء الله فان شاء مضى وان شاء رجع غير حائث (الدر المنثور ٤ : ٢١٨) اقول : ليس غير حائث الا اذا تردد في مشيئة نفسه كان يقول : ان شئت، فللمحلف عليه حتمية نسبية له ولا يفصمه الا ارادة الله ان اراد خلافه ! فالرواية مختلفة عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) والصحيح ما اخرج به البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : قال سليمان بن داود (عليهما السلام) لا طوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقال له الملك قل ان شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن الا امرأة واحدة نصف انسان قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي نفسي بيده لو قال ان شاء الله لم يحث وكان درج / حاجته .

أقول وهو صحيح الا «فقال له الملك . . فل يقل» حيث ينافي الايمان فضلاً عن العصمة، ثم لم يحث لانه حلف على فعله وهو الطواف على تسعين امرأة لا على فعل الله «تلد كل امرأة» فلا حث فيما ليس من فعله ولا حلف عليه !

ومثله ما في نور الثقلين ٣ : ٢٥٤ ح ٥٢ عن اصول الكافي احمد بن محمد عن علي بن الحسين عن علي بن اسباط عن الحسن بن زرارة قال : سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز وجل «واذكر ربك اذا نسيت» فقال : اذا حلفت على يمين ونسيت ان تستثني فاستثن اذا ذكرت .

شئت ، ولا فرق بين موصوله ومفصوله^(١) .

و « ان شاء الله » يعم باطن العقيدة والايمان والنية وظاهر القول والكتابة أماذا ، فالكتابة قول كتبي يكتب فيها ان شاء الله^(٢) كما النية قول منوي ينوي معها « ان شاء الله » !

« إلا ان يشاء الله » استثناء عن نفي القول لشيء « اني فاعل ذلك غداً » فتقول لشيء اني فاعل ذلك غداً أم اي وقت كان ان شاء الله والشيء المفعول يعم المقال والفعال وتبديل الحال ، ولتكن لائقاً لمشئته الله تشريعاً حتى يربط بمشيئته تكويناً ، و « إلا أن يشاء الله » يخص التكوين ، حيث المشئته التشريعية واجبة الإحراز قبل الإرادة والفعل ، فلا تقبل اي تردد ، وإنما التردد في التكوينية .

فالقول لمحرر ام ومشتبه اني فاعل ذلك ان شاء الله مس من كرامة الله ، وان كانت المحرمات غير خارجة عن مشئته الله كما تناسب ساحته دوغما اجبار ، وإنما تلحق مشئته تعالى مشئته المختار ! فان « ان شاء الله »

(١) خلاف ما اخرجه سعيد بن منصور عن ابن عمر قال : كل استثناء موصول فلا حث على صاحبه واذا كان غير موصول فهو حاث (الدر المنثور ٤ : ٢١٨) .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٥٣ ح ٤٧ في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن ابن ابي عمير عن مرازم بن حكيم قال : امره ابو عبد الله (عليه السلام) بكتاب في حاجة فكتب ثم عرض عليه ولم يكن فيه استثناء فقال (عليه السلام) : كيف رجوت ان يتم هذا وليس فيه استثناء انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه .

وفي تهذيب الاحكام باسناده الى علي بن حديد عن مرازم قال دخل ابو عبد الله (عليه السلام) يوماً الى منزل معتب وهو يريد العمرة فتناول لوحاً فيه تسمية ارزاق العيال وما يخرج لهم فاذا فيه لفلان وفلان وفلان وفلان وليس فيه استثناء فقال : من كتب هذا الكتاب ولم يستثن فيه كيف ظن انه يتم؟ ثم دعى بالدواة فقال : الحق فيه انشاء الله فالحق في كل اسم انشاء الله .

ترج لمشيئة التأييد من الله وليس إلا فيما يرضاه الله .

واذا نسيت الإستثناء بمشيئة الله فاذكره إذا ذكرت مهما طال الزمن ولما تفعل : « واذكر ربك إذا نسيت » وان كان بينك وبينه ايام او اشهر او سنون^(١) !

وهل القول « إن شاء الله » يطم عامة الأقوال لاي فعل يعزمه فيتم فيها اياً كان ؟ فان قيل لك أأأكل وأنت جوعان وعلى خوان الطعام : تقول انشاء الله ؟ ولا شيء غائباً عنك خارجاً عن حولك وقوتك هنا تحوله الى حول الله وقوته ؟ .. اجل فانك لا تضمن حياتك حتى الأكل ، ولا صحتك وفقدان اي رادع يردعك ! فـ « ان شاء الله » آت في كل ما لم يحصل بعد او لم يتم وأنت فاعله ، إن قولاً فقولاً وان فعلاً فعقداً في الضمير « واذكر ربك اذا نسيت » !

ليس هنا حذف كما اطلالوا طائلات ، وانما باء الملازمة على « إن .. » فتأويل للمصدر : « إلا بمشيئة الله » ، فـ « لا تقولن لشيء اياً كان واياي اني فاعل ذلك غداً الا مصاحباً بمشيئة الله ان افعله او لا افعله فالفعل والترك لمن يعزم على فعل او ترك بحاجة الى إذن تكويني وتوفيق من الله »^(٢) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٥ ح ٥٥ في تفسير العياشي عن ابي حمزة عن ابي جعفر (عليه السلام) ذكر ان آدم لما اسكنه الله الجنة فقال له يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال : نعم ولم يستثن فامر الله بنبيه فقال : «ولا تقولن لشيء اني فاعل ذلك غداً الا ان يشاء الله واذكر ربك اذا نسيت» ولو بعد سنة .

(٢) المصدر ٢٥٤ ح ٤٩ عن الكافي عن ابي جعفر (عليه السلام) في قول الله عز وجل «ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً» قال : فقال : ان الله عز وجل لما قال لآدم : ادخل الجنة قال له : يا آدم لا تقرب هذه الشجرة . قال : واره اياها فقال آدم لربه : كيف اقربها وقد نهيتني عنها انا وزوجتي ؟ قال : فقال لها : لا تقرباها يعني لا تأكلا =

ثم وملابسة القول هذا ليست بواقع المشيئة فانها مجهولة للفاعل وإنما بقول « إن شاء الله » فـ « لا تقولن . . إلا بقول مشيئة الله ترجياً : » « إن شاء الله » !

وقد يعني « إلا ان يشاء الله » منقطع الإستثناء : أن القول « إني فاعل ذلك غداً » ممنوع على أية حال فإن فيه تأكيد الإستقلال ، ولا يجبره الإستثناء ، أترجياً وتردداً بعد تحتم ! إذا فقل ماشئت غير محتتم ، واقرنه بـ « إن شاء الله » تأييداً انه غير محتوم وترجياً لمشيئة الله .

وقد يحتمل اتصال الإستثناء بوجه آخر أن القول « إني فاعل ذلك غداً » ممنوع كمنع الدخول في ملة الشرك إلا ان يشاء الله « وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله » (٧: ٨٩) حيث العودة هذه ولا سيما لنبي مستحيلة إلاذن من الله ! .

وقد يعني الإستثناء كل ذلك حيث يلائمها اللفظ والمعنى وهو اجمل واكمل !

وترى « واذكر ربك اذا نسيت » يخص فقط تركه نسياناً ، فان كان ذاكرةً ربه وترك الاستثناء فلا جيران بعدئذ ؟ بلى حيث الأمر السماح كتوبة خاص بـ « اذا نسيت » ! وكلا حيث النسيان يعم النسيان المعمد وسواه ، تناسياً ونسياناً ، بل ولا عصيان إلا تعمّد (عن) نسيان وإذ لا عمد فلا عصيان : « ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي فلم نجد له عزماً » (٢٠ : ١١٥) « وعصى آدم

= منها فقال آدم وزوجته : نعم يا ربنا لم نقرّبها ولم نأكل منها ولم يستثيا في قولهما نعم فوكلهما الله في ذلك الى انفسهما والى ذكرهما ، قال وقد قال الله عز وجل لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكتاب « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » ان لا افعله فتسبق مشيئة الله في ان لا افعله ، فلا اقدر على ان افعله ، فلذلك قال الله عز وجل « واذكر ربك اذا نسيت » اي استثنى مشيئة الله في فعلك .

ربه فعوى « (١٢٠ : ١٢١) ! ثم وباب التوبة مفتوحة بمصراعيها في كل عصيان فضلاً عن ترك الإستثناء فانه أياً كان ليس محرماً فيه عصيان !
« واذكر .. وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً » .

وكما أن « إن شاء الله » ترج للرحمة من الله ، فـ « عسى .. لأقرب »
ترج ثان إلتماساً للإرتفاع على هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة للإستواء عليه
في كافة الأحوال .

انه ليس يهمني - فقط - رجاء الاجابة عن اسئلتكم هذه وان كان فيها
رشد ، بل و « عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً » اجل « وقل رب
زدني علماً » (٢٠ : ١١٤) فليس حاضراً علم الوحي واقفاً على حده ليوقفني على
حدّه ، فاني التماساً من ربي وترجياً لزائد رحمته غائص في خضم عنايته ،
رحمات بعضها فوق بعض !

ومها لمحت « لا تقولن .. واذكر .. وقل عسى » ان المخاطب فيها هو
الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن « اني فاعل ذلك غداً » لم يكن
من قوله بل هو « آتوني غدا » فان تشمله « لا تقولن » فهو على البذل ،
وبالنسبة للمستقبل .

ثم و « اذا نسيت » نسيان لذكر الرب وليس إلا بسلطان الشيطان و « إن
عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » (١٥ : ٤٢) وهو
أول العابدين والمخلصين « فبعزتك لاغوينهم اجمعين . إلا عبادك منهم
المخلصين » (٣٨ : ٨٣) اللهم إلا ان يكون نسياناً لاستثناء غير لازم كما في
قوله « آتوني غداً » فراجع هنا قول « إن شاء الله » والله يعلمه لكي يتأدب به
فإنه ربه ومؤدبه ، فلم يك ناسياً لربه إن تركه ، ام إن نسيه فنسيانه من
الله لكي يعرفه موقفه أنه في معرض النسيان لولا تثبيت من الله .

ثم ترى انها نص على عدد لبثهم هو ثلاثمائة وتسع سنين ؟ وصيغته الصحيحة هي هذه دون المذكورة في الآية !

او تعني لهم مجموعاً من اللتين فالأصل ثلاثمائة والتسع الزائد عليها يلحقها حيث ازدادوها تطلباً من الله بعد بعثهم عن نومتهم الأولى ؟ ولا طائل تحت هذه الزيادة المزعومة حيث القصد من بعثهم الأولى عن نومتهم الأول حاصل « ثم بعثناهم لنعلم .. وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا .. » وقد حصلت هذه الثلاث فماذا بعد ! ولماذا بعد « تسعاً » ؟ !.

أو أن التسع المزداد انما تعني توفيق حساب الاعداد ، أن الثلاثمائة هي الشمسية فتتحول إلى اضافة التسع حسب القمرية ^(١) ؟ وهذا لا يصح في اي حساب ! فان كانت الثلاثمائة شمسية فاضافة التسع القمرية لا تحولها الى (٣٠٩) قمرية ، وان كانت قمرية فاضافة التسع قمرية وشمسية لا تحولها الى (٣٠٩) شمسية ولا قمرية ^(٢) وان كانت جملة فاضافة احدهما لا تزيدها إلا اجمالاً ! ثم من ذا الذي ازداد الثلاثمائة تسعاً إلا الله في هذا الحساب

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٥٦ ح ٦٢ عن مجمع البيان وروي ان يهودياً سئل علي بن ابي طالب (عليه السلام) عن مدة لبثهم فاخبر بما في القرآن فقال : انا نجد في كتابنا ثلاثمائة فقال (عليه السلام) ذاك بسني الشمس وهذا بسني القمر - .

اقول وهذا حديث مخلق كما بيناه في المتن وفي احتجاج الطبرسي عن ابي عبد الله (عليه السلام) وقد رجع الى الدنيا من مات خلق كثير منهم اصحاب الكهف امامهم الله ثلاثمائة عام وتسعة وبعثهم في زمان قوم انكروا البعث ليقطع حججهم ويريه قدرته وليعلموا ان البعث حق اقول : بين الروایتين تناقض في تسعاً ثم هنا الموت وفي القرآن النوم فهما مختلفان مطروحان ! .

(٢) وهي حسب الشمسية ٢٩١ سنة إلا (١٥) يوماً وبزيادة التسع (٣٠٠) سنة إلا (٩٥) يوماً ! .

التحويل ، ومن ثم فليس القرآن كتاب حساب يحول عدداً الى آخر ، ولو كان لكان التعبير هنا ، « ثلاثمائة سنين هي بالقمرية (٣٠٩) دون » إزدادوا تسعاً » ثم القرآن لا يذكر السنين إلا قمرية كما هي الاصل في احكامه الشرعية ، فايأ كانت تلك السنين تتحول في مستعمل القرآن الى القمرية ! ثم هذه الثلاث قد تنافي « قل الله اعلم بما لبثوا ... » ابعد التصريح هكذا بعددهم تجهل غير الله وتخص علمه بالله ؟ ! .

او ان الثلاثمائة وتسعاً هما من مقالات المتنازعين امرهم بينهم ؟ ! ولا شيء منها مما يقوله الله (١) ؟ وذلك عطف بعيد أن تعطف « ولبثوا .. » بـ « وسيقولون ... » وبينهما الفصل بجملات في الآية وآيتين بعدها وهو خلاف الفصيح ! ولكنه ليس فصلاً بينهما بأجنبي حتى يخالف الفصيح ، و « قل الله أعلم .. » تكفي قرينة على ذلك العطف مهما كان بعيداً بفصله عن أصله !

أو أن الثلاثمائة هي قول الله « وازدادوا تسعاً » نقل الزيادة عليه تأنيباً يؤيده « قل الله أعلم بما لبثوا .. » فكما أن عدتهم ذكرت في تلميحاً ،

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١٨ - اخرج ابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : ان الرجل ليفسر الآية يرى انها كذلك فيهو ابعد ما بين السماء والأرض ثم تلا « ولبثوا في كهفهم » الآية ثم قال : كم لبث لقوم ؟ قالوا : ثلاثمائة وتسع سنين ، قال : لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله : قل الله اعلم بما لبثوا ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة الى قوله رجماً بالغيب واخبر انهم لا يعلمون قال سيقولون ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً .

واخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم عن قتادة قال : في حرف ابن مسعود : وقالوا لبثوا في كهفهم الآية يعني انما قاله الناس ألا ترى انه قال : قل الله اعلم بما لبثوا - اقول « وقالوا » تفسير بيان العطف وليست من الآية واخرج ابن ابي حاتم عن قتادة في الآية قال : هذا قول اهل الكتاب فرد الله عليهم : قل ار اعلم بما لبثوا .

كذلك سنيهم العدة ؟ وهذا أوفق أدبياً ومعنوياً ! ثم إنها من أقوال المتنازعين بلمحة أن الأول مصدق دون الثاني ، ولولا صدقه دونه لكان التعبير « ويقولون ثلاثمائة ويقولون بزيادة تسع ... » !

« قل الله اعلم بما لبثوا » ممن ازدادوا تسعاً ، ام وقالوا ثلاثمائة فان « له غيب السماوات والأرض » وعدة لبثهم من الغيب لا يعلمها إلا هو ، « أبصر به » في عجاب « وأسمع » فلا يبصر أحد ما يبصره ولا يسمع ما يسمعه « ما لهم من دونه من ولي » يلي أمرهم تعليماً لغيب ، تكويناً او تشريعاً فله الولاية المطلقة لا سواء ، وله الحكم مطلقاً لا سواء « ولا يشرك في حكمه أحداً » اللهم إلا حكماً شرعياً وليس بأشراك وإنما برسالة وسواها من تبليغ رسالة امابه .



وَأَنزَلْنَا مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ
وَلَن نَّجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ
عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾
وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ
فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا

وَلَا يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
يَتَسَّ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾
أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ
فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ
سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ
الْثَوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

مرکز تحقیقات کامیویر علوم اسلامی

صرف للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القيل والقال والاصغاء
الى أصحاب المقال في آرائهم واقتراحاتهم الناكبة عن الصراط ، والإلتحاد إلى
الرب وكلماته ، وأن يصبر نفسه مع الذين يدعونه ، ماشياً على صراط
الحق ، متمسكاً بصراح الحق فتعم الثواب ونعم المرتفق !

﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من
دونه ملتحداً ﴾ (٢٧)

اصل التلاوة هي المتابعة « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها » فلا
شأن لك ولا واجب عليك إلا متابعة كتاب ربك قراءة وتفهماً وتفهماً

وابلاغاً وتطبيقاً ، « واتل ما أوحى إليك . . » لا ما أوحاه عقلك آمن
سواك ، وإنما « من كتاب ربك » القرآن العظيم ، دون ان تبخع نفسك على
آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث اسفاً ، أو أن تستعجل وحي ربك فتعدهم
الجواب ناسياً « إن شاء الله » ودون الإلتحاد الى اي وحي او استفتاء او
استيحاء ، وإنما « ما أوحى إليك من كتاب ربك » فحسبك ربك وكتاب
ربك إذ « لا مبدل لكلماته » : ربك ولا كتابه « ولن تجد من دونه » : ربك
ولا كتابة « ملتحداً » .

فهما وصفان متلاحمان لـ « ربك » ولـ « كتاب ربك » : « ولا
مبدل لكلماته » والقرآن أفضل كلماته ، « ولن تجد من دونه ملتحداً »
ولملتحد الموحى إليك هو قرآنه كما هو تعالى ملتحدك في كلما تحتاجه ، ملتحد
تكويناً وملتحد تشريعاً لا مبدل لهما !

فكلماته التشريعية التدوينية ككل لا مبدل لها من غيره تعالى نسخاً إلا
تحريفاً في غير القرآن : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » وكلماته
الآخيرة القرآن ، لا مبدل لها اطلاقاً إذ تمت « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً
لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » (٦ : ١١٥) لا مبدلاً من غير الله
تحريفاً وتحديفاً ، مهما كان لغير القرآن تحريف وتحذيف ، ولا مبدلاً إلهياً نسخاً
وتبديلاً كشرعة تنسخ وتبطل ، فالقرآن كما كان وكما هو الآن قائم مر الدهور
والأعوام الى يوم القيام لا نسخ فيه ولا تحريف يعتريه دون سواء من كلمات
الله وكتابات .

و « ملتحداً » : متمائلاً يحير إليه ، أولاً هو الله لاي ملتحد وعلى أية
حال اجارة وجواراً : « قل إني لن يحيرني من الله أحد ولن أجد من دونه
ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته . . » (٧٢ : ٢٢) ومن ثم لن أجد ملتحداً

من وحيه إلا كلماته الأخيرة القرآن المبين ، فهناك الله وهنا كتاب الله ثم لا سواه ولا سواه .

هنا « لا مبدل لكلماته » في استغراق نفي التبديل يجعل من القرآن كتاباً لا نسخ له ولا تحريف ، إذاً فهو كتاب الزمن وخاتمة الوحي لا كتاب بعده ما طلعت شمس وغربت !

ومن ثم « ولن تجد من دونه ملتحداً » تحيل ملتحداً من دون القرآن كما تحيله من دون الله ، ضرباً الى أعماق الزمن ما بقي الدهر ، فمهما غاب شخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تغب رسالته القرآنية وإذا الرسول وهو أول العابدين « لن تجد . . » فغيره أخرى ان « لن يجد » فـ « لن تجد » وإن كان خطاباً لشخص الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنه بإحالة « لن » وأول العابدين في « تجد » يطوي كل زمان ومكان وكل إنس وجان حتى القيامة الكبرى . فتحيل أي ملتحداً طول الزمان وعرض المكان سوى القرآن كما آله القرآن !

﴿ ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ (٣٥).

ولماذا « ثلاثمائة » دون اضافة وبتميز جمع « سنين » خلاف القاعدة المطردة من اضافتهما الى مفرد ؟

الآن « سنين » نزلت بعد « ثلاثمائة » حين سئل الرسول : اياماً اوشهوراً او سنين ؟^(١) ونزولها دون سنين إهمال في اجمال تبعد عنه ساحة القرآن البيان !

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١٨ اخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن الضحاك قال: نزلت هذه الآية « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة . . » قيل يا رسول الله (صلى -

أم إنها بدل عنها فلا إضافة الى مفرد خلاف التميز ، فثلاثمائة هي سنين مُضمَّنة معنى التمييز ؟ وهذا خلاف المألوف مما يلحق العدد فانه - دوماً - التمييز !

أم إنها قاعدة راجحة او مخيرة فيما إذا كان مضاف العدد المركب جمعاً ، فالتمييز أيضاً لجمعه ، أو مفرد للمضاف اليه « مائة » والقرآن أفضل أصل لاقتباس القواعد فلا يقاس بسائر القياس المستفاد من سائر الأدب العربي شعرا او نثراً ؟ فليؤخذ أدب القرآن لفظيا كما هو معنويا نبراساً لكل قاعدة وفائدة .

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً ﴾ (٣٨).

نفس مطمئنة يروضها ربها بالتقوى إيناساً بربها ووجهه ، وصبراً مع الذين يدعونه يريدون وجهه ، ويرفضها عن الطغوى بطاعة من أغفل قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً .

هنا أمر بصبر نفسه المقدسة معهم ونهي ان يعدو عيناه عنهم ونهي ثان ان يطيع غفلان القلوب ، يتبنى صرح هذه الرسالة السامية عل بساط الفقراء الى الله ، دون الاثرياء الاغبياء الاغنياء في حسابهم عن الله ، مهما طالبت وعودهم وابرق وقودهم: « لو جلست في صدر المجلس وتغييت عن هؤلاء وأرواح جبابهم حادثناك واخذنا عنك »^(١) وكما كان يقول اضرابهم للانبياء قبله من نوح مفتتح الرسالات : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون . قال وما

= الله عليه وآله وسلم) اياماً أم شهوراً أم سنين ؟ فانزل الله : سنين وازدادوا تسعاً .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢١٩ - اخرج ابن مردويه وابو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب

علمي بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين » (٢٦ : ١١٤) وإلى غيره من رسل الله !

يطلب من الرسول هكذا فيرفض كما أمر الله قائلاً : « الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي معكم المحيا والممات »^(١) ولقد كان يجامل فقراء المؤمنين ويكرمهم طول حياته المنيرة على ميزانية تقواهم . وهل ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حدثه نفسه فيما طلبوا إليه رغبة في ايمانهم كما يدعون ؟ هذا بعيد عن ساحته وغريب عن اخلاقه

= الايمان عن سلمان الفارسي قال : جاءت المؤلفة قلوبهم الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وعنده عيينة بن بدر والاقرع بن حابس فقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : وجلست في صدر المجلس وتغييت عن هؤلاء وارواح جبابهم - يعنون سلمان وابا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف - جالسناك او حادثناك واخذنا عنك فأنزل الله : **ورتل ما اوحى** . . الى قوله : اعتدنا للظالمين ناراً احاط بهم سرادقها .

(١) المصدر اخرج ابو الشيخ عن سلمان قال قام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يلتمسهم حتى اصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله فقال : . . واخرج عبد بن حميد عن سلمان قال : نزلت هذه الآية في رجل دخل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومعي شن خوص فوضع مرفقه في صدري فقال : تنح حتى القاني على البساط ثم قال : يا محمد ! أنا ليمنعنا كثير من امرك هذا واضرباه ان ترى لي قدماً وسواداً فلو نحيثهم اذا دخلنا عليك فاذا خرجنا اذنت لهم اذا شئت ، فلما خرج أنزل الله « واصبر نفسك . . الى - فرطاً » واخرج ابن ابي حاتم وابن عساكر من طريق عمر بن ذر عن ابيه ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) انتهى الى نفر من اصحابه منهم عبد الله بن رواحة يذكروهم بالله فلما رآه عبد الله سكث فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ذكر اصحابك ، فقال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! انت احق ! فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : اما انكم الملا الذين امرني الله ان اصبر نفسي معهم ثم تلا « واصبر نفسك . . » .

وسماحته « وانك لعلي خلق عظيم » (٦٨ : ٤) وكيف يطرد المؤمنين رغبة في ايمان المستكبرين ، ثم وأين ايمان من ايمان لو صدقوا وآمنوا ! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم !.

إنما يأمره ربه بما يأمر وينهاه عما ينهى تثبيتاً للمؤمنين وتنديداً بالمستكبرين ، وتبعيداً لهم عن اقتراحهم عليه من طرد المؤمنين ، لا أنه طرد ثم نهي ! فـ « يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » (٨ : ٦٤) «... واخفض : نأحك للمؤمنين » (١٥ : ٨٨) «... لمن اتبعك من المؤمنين » (٢٦ : ١٥) وهو « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم ... » (٩ : ٦١) ! « حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٩ : ١٢٨) !.

فانه لا تقوم الدعوات الرسالية إلا على من يعتنقونها ايقاناً وإيماناً مهما كانوا فقراء دون من يعتوروها متاجرين بها يمشون معها ما تمشيهم في شهواتهم فاذا حصوا بالبلاء قل الديانون !

« واصبر نفسك » وكيف « نفسك » مفعولاً والصبر لازم حيث يتعدى بواسطة ؟ ان الصبر وهو الحبس متعدي الى مفعول محبوس به ، مهما يتعود تعديته بمحبوس فيه او عليه او معه أم ماذا ؟ فاصبر نفسك في الحياة الدنيا على مشاقها وحرماناتها « مع الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي » صبراً في الله والله والى الله !.

كل إمساك واحتباس في ضيق صبر ، منه ممدوح ومنه غير ممدوح ، والصبر مع المؤمنين احتباس للنفس عن الشهوات وتحرير لكافة الطاقات النفسية في التقدم معهم إلى قمة الايمان بمواصلة المجاهدات وتحمل الحرمانات !.

وما هي النفس المحمدية المأمورة بالصبر معهم ؟ إنها كله (صلى الله عليه وآله وسلم) من روحه وجسمه ، بعقله و صدره وقلبه ، في حلة

وترحاله ، وعلى كل حاله ، فكما يصبر في الله في أوامره ونواهيه وفي قوله الثقيل كذلك مع الذين يدعونه بالغداوة والعشي يريدون وجهه ، يحملهم ويتحملهم يهديهم ويدود عنهم ، يجاريهم ويدارهم ولا يفضل عليهم ولا يسوي بهم !

اجل « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (٦ : ٥٢) .

ولماذا تطردهم وهم مؤمنون؟ أرغبة في إيمان من يتأنفون عنهم ، والإنذار لا يفيدهم « وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون » (٦ : ٥١) ! .

تري وماذا تعني « بالغداوة والعشي » حيث يدعون بهما ربهما ؟ الأنهما وقت الصلاة بداية الفرض في العهد المكي طرفي النهار كما في مكيات اخرى « واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار » (٤٠ : ٥٥) ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداوة والعشي .. « (٦ : ٥٢) ؟ ولا بد في سمة الايمان دوامتها والفرض في المدينة خمس وعلى طول الخط ، فليقل : مع المصلين لتشمل الفرض مكيًا ومدنيًا ! وآية العشي والإبكار لا تخص المكي ، بل والمدني أيضًا « واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار » (٣ : ٤١) وكما الكهف علها مدنية او البعض من آياها وعلها منها !

ام لأن الغداة هي الوقت الذي ينتقل فيه الإنسان من نومه الى يقظته ، والعشي تنقلاً من يقظته الى نومه ، وهما يذكّران الحياة بعد الموت ثم الموت بعد الحياة، وهما ركنتا اوقات الليل والنهار . فذكرهما أهم الذكر !

اذا فهما يعنيان أهم الأوقات من الليل والنهار ، فالغداة صباح والعشي عصر الى ليل ، وكما هما في الجنة والنار ركنان في رحمة وعذاب : « ولهم رزقهم

فيها بكرة وعشياً» (١٩ : ٦٢) «النار يعرضون عليها غدواً وعشياً» (٤٠ : ٤٦) فهما اهم اوقات الذكر وسواه وفيما مضى كما هنا : «فاوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشياً» (١٩ : ١١) لا فحسب الإنسان فالجبال ايضاً : «إنا سخرنا الجبال معه يسجن بالعشي والإشراق» (٣٨ : ١٨) .

ثم وفي ردف العشي بالإشراق والغدو بالعشي - على كونها ركني الاوقات - عطف الى ما بينها من أوقات الليل والنهار ، إلا فيما يخصهما بقرينة كرزق البرزخ وعذابه ، فالغداة والعشي في ذكر الرب ودعوته تعني الغداة الى العشي والعشي الى الغداة كما يقال «انا دارس صباح مساء» او «ضارب اعداء الله ظهر بطن» .

فدعوة الرب هي حالهم ومقالمهم ، حلهم وترحالهم ، غدااتهم وعشيهم بما فيها الفرائض الخمس^(١) كإركان الدعوات وتلحقها سائرهما ، كما الغداة والعشي من أركان الاوقات وتلحقها سائرهما .

«يدعون ربهم يريدون وجهه» . «وماذا يعني «وجهه» ؟ هنا وجه الرب كما في عديد سواه^(٢) وهناك وجه الله كما في عديد سواه^(٣) وبينهما فرق

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٠ - اخرج البيهقي في شعب الايمان عن ابراهيم ومجاهد في الآية قالوا : الصلوات الخمس وفي نور الثقلين ٣ : ٢٥٨ عن تفسير العياشي عن زرارة وحران وعن أبي جعفر وابي عبد الله (عليهما السلام) في قوله «واصبر» . بالغداة والعشي» قال : انما عني بها الصلاة .

(٢) كما في ١٣ : ٢٢ : والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم واقامهم الصلاة - ٥٥ : ٢٧ : ويقيم وجه ربك ذو الجلال والاكرام - ٩٢ : ٢٠ : الا ابتغاء وجه ربه الاعلى - ٦ : ٥٢ : يريدون وجهه - فالمجموع خمسة موارد .

(٣) كما في ٢ : ١١٥ : فانيما تولوا فثم وجه الله - ٢ : ٢٧٢ : وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله - ٣٠ : ٣٨ : ذلك خير للذين يريدون وجه الله و ٢٨ : ٨٨ : (الله لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه .

كما بين وجه الله وسواه .

والوجه من كل شيء ما يواجه شيئاً أو يواجه بشيء ، فيختلف حسب اختلاف الاشياء والمواجهات ، فلا يقاس وجه الرب الإله بسائر الوجه ، كما لا تقاس اقامة الوجه إليه وتسليمه لديه بسائر الوجه .

فوجه الرب هو الوجهة التربوية التي يواجه الله بها خليقته يوم الدنيا والآخرة ، ويواجهونه بها في الدنيا والآخرة ، فوجه الله من الوجهة التشريعية يدعون ربهم بالغداة والعشي ، وبهذه الدعوة يريدون الوجهة التربوية ليوم الدنيا تقرباً إليه وتكرماً لديه ، وحظوة مما عنده من حياة إيمانية ، فالؤمن دنياه آخرة ! وليوم الآخرة الوجهة التربوية ثواباً عند الرب وزلفى ، واجهات خمس هي كلها وجه الرب^(١) حيث يريدونه بدعوتهم ربهم بالغداة والعشي ! كما « وجاء ربك والملك صفأصفأ » (٨٩ : ٢٢) يعني الوجهة التربوية الآخروية التي تخصها دون الدنيا ، والدينيوية تخصها دون الآخرة ! فليس وجه الرب وجهاً عضوياً لذاته المقدسة ، فلا أحد يقول به ، ولا من المشبهة المجسمة ، الذين يشبتون الله سبحانه أبعاضاً مؤلفة وأعضاء مُصَرَّفة ، ومن ثم لوجه الله معنى غير ما يعنيه وجه الرب على اشتراكهما في وجه .

فلأنك كأول العاين وكرسول لا تعني من الحياة جاهاً ولا متاعاً ولا عرضاً من الحياة الدنيا ، وإنما وجه ربك ، فاصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه ، تناسباً فتناسقاً وتناصرراً في هذه السبيل .

﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ... ﴾ !

العينان لهما عدو ومد ، وعينا أهل الله لا تمدان الى غير الله واهله ، وما

(١) فللرب وجه يوم الدنيا : شرعته - التقرب اليه بها - الحظوة بهما يوم الدنيا - ووجه يوم الآخرة - قرباه الحظوة الثواب .

سوى الله كله الحياة الدنيا : « لا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجنا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين » (١٥ : ٨٨) « ... منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وابقى » (٢٠ : ١٣١) .

وانما هما ناضرتان ناظرتان الى الرب والذين يدعونه يريدون وجهه ، منحصرتان بهم منحسرتان عن سواهم .

وهل « عيناك » هما الظاهرتان الباصرتان ؟ ومدما اليهم دون رعاية ورقابة ومرحمة ليس مد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ! ام هما عينا عقله وقلبه ، فبعقل الوحي يعقلهم عما لا يحمد ، وبعين القلب يحبهم ام ماذا ؟ ولا يكفيان مداً ، والباصرتان الظاهرتان تعدوانهم الى سواهم ! ام هما عينا القلب بما معه ، والقبال بما معه ، ان يكرس نفسه بطاقاتها وامكانياتها نظرة ناضرة اليهم ، مراقبة عليهم ؟ وهو جمع جميل والله على ما نقول وكيل ! .

﴿ ... ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان امره فرطاً ﴾ (٢٨) .

وهل ان اغفاله سبحانه قلباً يعني وجدانه غافلاً فهو في الحق غافل عاطل ، كما يقال « لله دركم يا بني سليم ! والله لقد قاتلناكم فيما اجبناكم وهاجيناكم فيما افحمناكم وسألناكم فيما ابخلناكم » اي : لم نجدكم جبانين عند النزال ولا أعياء عند المقال ولا ابخال عند السؤال^(١) .

وذلك احتشاماً عن ان يُغفل الله قلباً وهو مذكر لا مُغفل ؟ ولكنها الصحيح والفصيح للتدليل على هذا المعنى لفظه الخاص كـ (وجدنا قلبه غافلاً)

(١) مجازات القرآن وتلخيص البيان للسيد الشريف الرضي ينقله عن عمرو بن معد يكرب لبني سليم ص ٢١٢ .

٨٠ الجزء الخامس عشر

كـ « إنا وجدناه صابراً نعم العبد انه اواب » (٣٨ : ٤٨) دون أصبرناه .

ثم الإغفال لا يختص المسير ، ان يُغفل الله قلباً دوناً اختيار منه وتقصير ، بل انه غفلة معمّدة ثم إقفال ومن ثم إغفال فامتتاعاً للذكر بتعمد واختيار : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » . . ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » (١٦ : ١٠٨) .

فالمغتافلون الغافلون الدائبون في غفلتهم وغفوتهم « وهم في غفلتهم معرضون » (٢١ : ١) أولئك هم الغافلون الذين غفلوا عامدين فاغفل الله قلوبهم عن ذكره طبعاً عليها وختماً .

ثم ترى إن اغفاله لقلوبهم هو تركه لهاها أن « يذرهم في طغيانهم يعمهون » (٧ : ١٨٦) وفي غيهم وغيهم يترددون ، فـ « اغفلنا قلبه » : تركناه غفلاً من السمات والكتابات الإيمانية ، « أولئك كتب في قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه » وهم خلوا القلوب منها ، وكما يقال : اغفل البعير : تركه بلا سمة يعرف بها على عادة العرب في إقامة السمات مقام العلامات ، اللهم إلا الطبع والختم « بل طبع الله عليها بكفرهم فهم لا يؤمنون » ؟ ومجرد الترك وإن كان ينتج بقاء الغفلة ولكنه ليس إغفالاً ، فانه إيجاد للغفلة بعد الذكر ، ام غفلة على غفلة ! -

ام إنه مزيد في غفلة معمّدة معاندة أن تستمر فتزيد جزاءً وفاقاً في الدنيا وفي الآخرة عذاب اليم : ان الله اقل قلوبهم عن الذكرى فاغفلها استمراراً فيها فمزيداً عليها « واتبع هواه » بعد الإغفال كما قبله وأكثر دوناً تفكير في هداه « وكان أمره فرطاً » قبل الإقفال والإغفال ، حيث الغفلة المعمّدة دركات بعضها فوق بعض ، فأغفاله على حسبها دركات بعضها فوق بعض ، آخذة من ترك التوفيق ، فختم وطبع فدفن الى مزيد من الغفلة وهو الدرك الاسفل

من الإغفال .

وقد يعني « اغفلنا » هنا كل هذه مترتبة : ان وجدنا قلبه غافلاً عن عمله فلما استمر في غفلته تركناه على غفلته وحتى شرح بالكفر صدراً فطبعنا على قلبه حتى لا يسطع الرجوع عن غفلته ، اذ كان له قبل طبعه الرجوع الى ربه ثم يمدهم في طغيانهم يعمهون « وكان امره فرطاً » قبل أن أغفلنا قلبه واتبع هواه من قبل ومن بعد في تزايد دركاته ، وما اجمله جمعاً بين معان مترتبة يقتضيها أدب اللفظ وواقع المعنى ! .

اتباع الهوى على غفلة معمّدة وامر فرط مضيع يتبعه جزاء له إقفال القلب فإغفاله فاتباع مفرط للهوى وامر فرط في اتباع الهوى ! « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله » (٥٨: ١٩) « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » (٥٩: ١٩) ! .

لا تطع - وان كانت رجاء لاهتداءهم - من غفلوا عن أنهم عبيد وهو ربهم فأغفلنا قلبه عن ذكرنا فلم يطمأنوا من نخوتهم ولا خففوا من غلوائهم ، ولم يستشعروا جلال الله الذي تتساوى في ظله العباد إلا من اتقى أو هو اتقى ! .

ذلك القلب المقلوب ، المليء من الشهوات والطنطنات ، في أمر امر من فرطات ، انه ليس قلب إنسان ، بل هو مريض الحيوان ومزبل الشيطان ! « تطع ... » .

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً » (٢٩) .

آية محكمة تحكم عرى الاختيار وتبحث جذور الاجبار « فمن شاء ..

ومن شاء « فمشية الايمان والهدى تجلب زياده الهدى من الله واستمراريتها :
« والذين اهتدوا زادهم هدى » كما مشية اللايمان والردى تجلب غفلة دائبة او
زيادتها باغفال من الله .

« وقل الحق من ربكم » حيث يريكم دلالة فتوفيقاً للهدى فمن شاء
وتقبل الحق يثبته عليه ويزيد ، ومن لم يشاء وأعرض عن الحق يختم على قلبه
ويغفله ، فانه ظالم في نكران الحق ، يظلم نفسه ويظلم الحق وأهله .

ليس الحق ملكاً لاحد ولا مخولاً فيه لاحد حتى يجامل فيه فيماري
ويداري « وقل الحق من ربكم » ! فالحق - اذاً - لا يعتر ولا ينتصر بمن لا
يبغونه إلا عوجاً ، وانما يعز وينصر من يبغونه خالصاً بلا تجوير ولا تحوير ،
والذي يترفع عن الذين يبغونه ناصحاً ناصحاً لا يرجى منه اي خير ولا لنفسه
فضلاً عن قبيل الايمان ! .

انه لا حق لاثقاً غير زائع ولا خليطاً بغير حق إلا من ربكم ، والخطأ
جائر كائن لغيره أياً كان إلا من عصمه ربه بوجيه ، فلا تطلبوا مني دجلاً في
حقه ولا بخلاً وانحصاراً في مواجهة حقه . وهذا ختام الكلام ومن ثم .

« إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها .. » .

السرادق هو الفسقاط وسرادق النار هو زبانيته المحيطة والمشملة على
أهلها . فلا ينجو منها ناج ولا يطلق منها عان حيث « وجعلنا جهنم
للكافرين حصيراً » (٨: ١٧) حبساً يحصرهم وطولاً يقصرهم ف « إنها
عليهم مؤصدة . في عمد ممددة » (٩: ١٠٤) فسقاط من نار هي حصير
مؤصدة : مغلقة مطبقة .

هذا وكما أحاطت بهم سرادقات نيران الشهوات وحصرتهم في دنيا
الحياة فهي هي تتمثل سرادق في الحياة الاخرى .

« وان يستغيثوا » على إياسهم من مُغيث ، ولكننا الحالة تلك المزرية المضطربة قد تدعوهم أن يستغيثوا « يغاثوا بماء كالمهل » : دردي الزيت المغلي « يشوي الوجوه » بمواجهته قبل شربه ، وهل يشربونه . وهو كالمهل ؟ اجل^(١) ! لأن الإغاثة ليست فقط عرضاً للماء وان لم يشربوا بل هي إشراب لهم ، ولان سراق النار يضطرهم لشرب اياً كان « إن شجرة الزقوم طعام الاثيم . كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم » (٤٤ : ٤٦) « وسقوا ماء حميماً فقطع أمعائهم » (٤٧ : ١٥) « ويسقي من ماء صديد » (١٤ : ١٦) ! .

« بشس الشراب » ماءه كالمهل « وساءت » النار « مرتفعاً » متكئاً يُعتمد عليه بالمرفق ، كما المرفقة هي المخدة ، وكما « مأواهم جهنم وبئس المهاد » هذا مرتفق النار ثم أهل الجنة « متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً » وأين مرتفق من مرتفق ؟ !

شراب كالمهل « كعكر الزيت فاذا قرب إليه سقطت فروة

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٠ ح ٧٩ في تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله «يوم تبدل الارض غير الارض» قال : تبدل خبزة نقية يأكل الناس منها حتى يفرغ من الحساب فقال له قائل : انهم يومئذ في شغل عن الاكل والشرب ؟ فقال (عليه السلام) له : ان ابن آدم خلق اجوف لا بد له من الطعام والشراب ، اهم اشد شغلاً ام هم في النار فقد استغاثوا « وان تستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل » .

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن ابيه عن جده (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) ان اهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق وصديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ وحميم يغلى به جهنم منذ خلقت كالمهل يشوي الوجوه بشس الشراب وساءت مرتفعاً .

وجهه^(١) مشوياً ، حرقاً من حرارته وحرقاً من ثخونته ، او فضة مذابة وهي أحر وأحرى ان تشوي الوجوه^(٢) ! .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً^(٣) أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً^(٤) .

« أحسن عملاً » لا فقط إيماناً ، وإنما عمل الايمان ، حيث ينبثق العمل من الإيمان ، لا إيماناً دون عمل ، ولا عملاً دون إيمان ، وإحسان العمل هو أن يعمل الصالحات : التي تصلح انبثاقاً من الايمان ، وتصلح لساحة الربوبية قولاً بعمل ، وقولاً وعملاً بنية ، وقولاً وعملاً ونية بإصابة السنة !

لا ضياع هناك في حساب الله لا إيماناً : « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » (٣ : ١٤٣) ولا عملاً « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً » ولا إحساناً أياً كان في عمل ام إيمان « إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » (١٢ : ٩٠) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٠ - اخرج احمد وعبد بن حميد والترمذي وابو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله « بماء كالمهل » قال : كعكر الزيت وفي تفسير القمي قال أبو عبد الله (عليه السلام) المهل الذي يبقى في اصل الزيت المغلي .

(٢) فلعل التشبيه بعكر الزيت لانه المشهود لهم دون الفضة المذابة ، ووجه التشبيه هو الثخونة بحرارة وإن كانت أكثر من الدردى بكثير ، بل ومن الفضة المذابة ايضاً . وفي الدر المنثور ٤ : ٢٢١ - اخرج جماعة عن ابن مسعود انه سئل عن المهل فدعا بذهب وفضة فاذا به فلما ذاب قال : هذا اشبه شيء بالمهل الذي هو شراب اهل النار .

لا تجدد في سائر القرآن ايماناً صالحاً إلا قرناً بعمل صالح ، كلما ازداد الايمان زاد عملاً صالحاً ، وكلما ازداد صالح العمل ازداد ايماناً ، جناحان متناصران في تحليق الإنسان أجواءً صافية ضافية تصلح لطائرته كدحاً الى ربه فملاقية !

« اولئك لهم جنات » بساتين تجنّ أشجارها ارضها، تجري من تحتهم الأنهار » تحت الأرضية ام سطح الأرضية ، فهما تحت الأشجار التي جنتهما بارضها « يجلّون فيها » حلية الرجولة للرجال ، وحلية الأنوثة للنساء « من اساور »^(١) جمع سوار : حلية المعصم ، ام : دستواره الفارسية « من ذهب » فمهما كانت هي محرمة يوم الدنيا للرجال ولكنها حلية محللة يوم الأخرى ، إلا المحرمات الذاتية التي تخرج العبد عن طور العبودية وتمس من كرامة الربوبية « ويلبسون ثياباً خضراً من سندس » : مارق من ديباج و « استبرق » : ما غلظ منه وقد حلت لهم بعدما حرمت^(٢) « متكئين فيها على الأرائك » : السرائر الاربكة^(٣) « نعم الثواب وحسنت مرتفقاً » خلاف ما

(١) الدر المنثور ٤ : ١١١ - اخرج ابن مردويه عن سعد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لو ان رجلاً من اهل الجنة اطلع فبدت أساوره لطمس ضوءه ضوء الشمس كما يطمس ضوء النجوم اقول يعني شمس الآخرة ونجومها فلا يرد عليه انها مكورة او مطموسة وفيه اخرج الطبراني في الاوسط والبيهقي في البعث عن ابي هريرة ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : لو ان اهل الجنة حلية عدلت حليته بحلية اهل الدنيا جميعاً لكان ما يحليه الله به في الآخرة افضل من حلية اهل الدنيا جميعاً .

(٢) المصدر اخرج النسائي والحاكم عن عقبة بن عامر ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمنع اهل الحلية والحرير ويقول : ان كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا وفيه اخرج الطيالسي والبخاري في تاريخه والنسائي والبخاري وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابن عمر وقال قال رسول الله اخبرنا عن ثياب اهل الجنة اخلقوا تخلق ام نسجاً تنسج ؟ قال : بل يشقق عنها ثمر الجنة .

(٣) المصدر اخرج البيهقي في البعث عن ابن عباس قال : لا تكون اريكة حتى يكون

للمظالمين في النار « بشس الشراب وساءت مرتفقاً » وابن مرتفق من مرتفق !
 في مرتفق الجنة تنعم حلوقير ، وفي مرتفق النار تهكم مرير ، : لأولاء
 نار معتدة مؤصدة في عمد ممددة ، وهؤلاء حلية من أساور وثياب خضر من
 سندس وإستبرق ، أولاء يستغيثون من ظمأ النار وحريقه فيغاثون بما
 يزيدهم ظمأً وحريقاً « بماء كالمهل يشوي الوجوه » فكيف بالخلق
 والبطون ، وهؤلاء لهم بهجة المنظر واعتدال النسيم ولهم فيها ما يشتهون
 نزلاً من غفور رحيم !



= السرير في الحجلة فان كان سرير بغير حجلة لم يكن اريكة وان كانت حجلة بغير سرير
 لم تكن اريكة فاذا اجتمعا كانت اريكة وفيه عن الحسن قال : لم تكن ندرى ما الاراتك
 حتى لقينا رجلاً من اهل اليمن ، فاخبرنا الاريكة عندهم الحجلة اذا كان فيها سرير
 واخرجه مثله عن قتادة وعكرمة .

* وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا

رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾ كُلَّتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْثَهَا
وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْعًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ
ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ
مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾
قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ
رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ
قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرِنًا أَقْلٌ مِنْكَ

مَالًا وَوَلَدًا ٧ ٢٩ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ
 وَيُرْسِلَ عَلَيَّهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ٣٠
 أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ٣١
 وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ ٣٢ فَأُصْبِحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا
 وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
 أَحَدًا ٣٣ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ
 وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٣٤ هَٰذَا لَكِ الْوَلِيَّةُ اللَّهُ الْحَقُّ ٣٥ هُوَ خَيْرٌ
 ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ٣٦ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
 فَأُصْبِحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ٣٧ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
 مُّقْتَدِرًا ٣٨ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٣٩ وَالْبَاقِيَتُ
 الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ٤٠

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ (٣٢) «كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً» (٣٣):

«واضرب لهم» لقبيل الايمان والكفر، أهل الجنة والنار «مثلاً» يمثل حالتهم وجوارهم وجوارهم، مبدأهم ومنتهاهم، كنموذجين في مسرح الحياة لطغوى النفس وتقواها، نفس فقيرة مفتقرة الى الله، ونفس ثرية مستغنية عن الله، هذه تذهله الثروة وتبطره النعمة فينسى نفسه وينسى الله، وتلك مؤمنة معتزة بايمانه ذاكرة لربه راضية بقضائه، ماضية في قضائه، حيث يذكر الله ويذكر نفسه انه عبد مفتقر الى الله!

والقرآن يقص القصص الحق من حاق التاريخ وحقه قصاً صالحاً عما سبق، وتذكيراً بها صالحاً فيما يلحق، دونما اختلاف لقصص لا أثرعنها في التاريخ، ام تاريخية لا تأثير لها تربوياً في إبناء التاريخ.

وها هي قصة الجنتين، لهما ميزات اربع تجعل لهما جمالاً راقياً وثمرات رابياً:

﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾ كأنها جمع يلمح بمختلف الأعناب، فلولا هذه اللمحة لكانت «من عنب» جنساً، لا جمعاً: «أعناب» -

﴿وحففناهما بنخل﴾ حفاظاً على الأعناب، وتجيلاً للجنتين، وردفاً لما يثمر كثمرها، غذاءً وإداماً وشراباً، وعلى النخل كأعناب تعني مختلف النخل حيث تأتي مفردة: «كأنهم أعجاز نخل منقعر» وجمعاً: «والنخل

باسقات لها طلع نضيد « اذاً ففيهما ألوان النخل والأعنان، حافة ومحفوظاً بها -
 ٣ - ﴿ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ يزيداً ثمرأً وجمالاً فوق جمال وثمر،
 وعله مختلف الثمر كمختلف النخل والأعنان، فان يكن واحداً جيء
 بصيغته، حنطة او شعير أماذا؟.

٤ - ﴿ وفجرنا خللها نهرأً ﴾ خللاً بينهما يفصلهما عن بعض، وخللاً
 في كل منها سواقي تجري من تحتها، كما تجري من تحت الجنة أنهاراً!
 جنتان مشرتان من مختلف الكروم، محفوفتان بسياج من مختلف
 النخيل، بينهما زروع، ونهر متفجر، ويا له من منظر بهيج وحيوية دافقة
 وجمال رائع ومال جامع ! :

﴿ كلتا الجنة آتت اكلها ﴾ من أعنان ونخل وزرع عدلاً.
 ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ لم تنقص من أكله شيئاً، حيث الظلم هو الإنتقاص
 أياً كان ومن أي كان، جاداً أو نباتاً أو حيواناً أو انساناً، مهما اختلفت إرادة
 وشعوراً أم دونها، اختياراً أو اضطراراً، أم بينهما كما النحل حيث تنحل
 بيتاً وعسلأً غريزياً دون اختيار تام أو اضطرار !

ولكنما الجنة دون النحل إثماراً وتركأً، والظلم في الأصل من الافعال
 الاختيارية القبيحة، ولا تُقبح الجنة في انتقاص الثمر أم تركه، وإنما حسن
 التعبير عن هذا المعنى ألا اختياري ولا القبيح بالظلم حيث كان ثمر الجنة
 البستان كالمستحق لمالكها، الساعي لها، المتعب فيها، فاذا أخذ حقه منها
 على كماله وتمامه حسن القول : أنها « لم تظلم منه شيئاً » حيث لم تمنع
 منه مستحقه، فتكون كالظالم اذا انتقصت من ثمرها، ولأن الظلم أصله
 الإنتقاص اختيارياً أم دونه قبيحاً أم سواء حسب اختلاف الفواعل شعوراً
 وسواء في درجاته، تكليفاً وسواء في درجاته، فهو اذا حقيقة أم استعارة
 لطيفة جميلة !

﴿ وفجرنا خلالها نهراً ﴾ ما يزدادها بهاءً وثمرًا وارتباعاً ! .

ومما يزيده جلالاً مقابلة اللا ظلم من الجنة بالظلم من صاحب الجنة حيث ازدهى ولم يشكر وبطر فاستكبر، وقد امتلى نفسه بالجنيتين وازدها النظر اليهما، احساساً بالزهو، وتنفساً كالديك، واختيالاً كالطاووس، تعالىً على صاحبه وهو يحاوره ويحاوره : « أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً » أماذا من كلام فاض أجوف أخوف .

﴿ وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ (٣٤).

« وكان له » : لما جعلناه له من جنتين - لصاحب الجنيتين - لأكل الجنيتين - او للنهر « ثمر » وكلها معنية - وعلى تنوين التنكير هنا تلويح لكثرة الثمر عدة وعدة ومدة أماذا من ثمر - وقد تلمح « كان » بسابق الثمر زمناً متداوماً ، ام وعلى أقل تقدير بوجود الثمر حينه كما « آتت أكلها . . » .

« فقال لصاحبه » الذي يصاحبه ملكاً او شغلاً أماذا من صحبة وتعارف « وهو يحاوره » حول شؤون الحياة « أنا أكثر منك مالاً » حيث « له ثمر » « وأعز نفراً » من ولد وخدم وأعوان مناصرين لان لي مالاً وثمرًا ! وفي الحق لقد ألهاه التكاثر في حوار هذه ، وتفخياً لجانبه وتذليلاً لصاحبه ، وتغافلاً عن ربه ، ظلماً مثلاً يرجع الى نفسه فنكراناً للنشأة الاخرى ! :

﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ (٣٥) وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ (٣٦) .

« ودخل جنته » وكيف دخل ؟ وكيف هي جنته وهي جنة الله حيث أعطاها إياه : « جعلنا لأحدهما جنتين » ؟

انه دخل على رعونة وكبرياء ، وطنطنة وخيلاء ، متحسباً أنها منه وله دون الله ، وكما قاله أخوه قارون : « إنما أوتيته على علم عندي » (٧٨:٢٨) وتلك الجنة أم أي مال ومنال لأي كان وأيان هي من الله ابتلاء ، امتحاناً او امتهاناً ، فكم من كادح كثيراً لا يفيد إلا قليلاً ، وكم من كادح قليلاً او مرتاح يستفيد كثيراً ! .

فهى - اذاً - جنته اذ جعله الله مستخلفاً له فيها ردحاً باختيار ، وهى جنة الله لأنها من الله فلا قوة إلا بالله .

« دخل جنته وهو ظالم لنفسه » انتقاصاً لها تناسياً عن فطرته وفكرته وعقليته تجاه ربه وهو معترف به : « ولئن رددت إلى ربي » تأييداً لجنته وهى بائدة فانية بعد ردح قل أو كثر « قال ما أظن ان تبيد هذه أبداً » وماذا يعنى هذا الأحق النكد البطر من أبداً جنته ؟ هل البقاء دون فناء ! بقوته ام قوة الله ؟ والدنيا بخذافيرها دار فناء ! ام البقاء ما هو باق ، وماذا الذى يضمن له ذلك البقاء ، وكم من ثراء أثرى أصبحت فناء ! ام ماذا، مما يشهد على أية حال أنه « ظالم لنفسه » فى قوله الخواء البتراء ! .

ومن خلفيات هذا الأبد نكران الساعة : « وما أظن الساعة قائمة » ترى وما هى الرباط بين الأبد لهذه الجنة ونكران دار الأبد ، ان هى إلا جنة الثراء من ثمره وجنته ، ف « هو ظالم لنفسه » فى جنونه المعمد المختار ، تسامحاً عن عقله .

وجنة ثالثة من جنته « ولئن رددت إلى ربي » كاحتمال اخير على بعده فما يضرنى اذاً حيث « لأجدن خيراً منها منقلباً » تخيلاً بخيلائه وكبريائه أنه يملك جنة الساعة باحرى من جنة هذه الساعة ! وما هى الرباط بين الجنتين حيث يجعلهما فى ظنه لزام بعض ؟

هذه ظنة الجاهلين من أثرياء وفقراء ان من اوتي الحياة الدنيا فهو فى

الآخرة أخرى ممن لم يؤتها ، ويكأن الله يجازي ذوي الأنفة والكبرياء والثراء بما طغوا وبغوا ، يجازيهم في الأخرى ثواباً بديل العقاب ، فما اظلمه اذاً من إله « وما ربك بظلام للعبيد » ! .

يظنها الأثرياء بجنة الغرور والكبرياء ، والفقراء لظنهم أن الثراء ثواب من الله وعطاء ، اذاً فلتكن الطغوى بديل التقوى يُستحق بها ثواب الآخرة بعد الاولى ! .

« لأجدن خيراً منها منقلباً » وكيف وبماذا ؟ ألأنكم تملكون الآخرة كما ملكتم الاولى « فله الآخرة والاولى » « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا والآخرة خير عند ربك وأبقى » (٢٨ : ٦٠)

أم لأن الله يخافكم فيفضلكم فيها كما فضلكم - بحسبانكم - في الدنيا - وهو يخاف منه ولا يخاف !

أم لانه يُخلف وعده جهلاً أم ظملاً أم عجزاً أم ماذا ؟ وما ذلك إلا جهالة وجنة ممن أترفته الحياة الدنيا ، تنفخاً منها وتنفجاً فيها ! .

هذه مقالة وحالة صاحب الجنة هنا ، وأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نقر ولا جنة عنده ولا ثمر ، ولكنه غني بالله ، فقير المال غني الحال ، إنه يواجه صاحبه الفقير الحال ، غني المال ، كواعظ منبه ، تنديداً به في حوار ، وتهديداً له في بداره :

﴿ قال له صاحبه^(١) وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم

(١) قوله تعالى « قال له صاحبه - ومن قبل - فقال لصاحبه ، حيث يعبر عن كل من الموحد والمشارك انه صاحب للآخر يدلنا على ان لفظة الصحبة والصحابة ليست لتدل على الصحبة الايمانية او الشريكية ، والا لاصبح هنا المؤمن مشركاً والمشارك مؤمناً ، فاستدلال اخواننا بآية الغار « اذ يقول لصاحبه لا تحزن » ان ابا كبر لكونه صاحب الرسول في الغار وليس غيره في نص القرآن فهو الصحابي المؤمن الوحيد لرسول الله =

من نطفة ثم سواك رجلاً^(٣٧) لكننا هو الله ربي ولا اشرك بربي أحداً^(٣٨) .

هل انت كافرٌ بمثلث : « خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً » ؟ وانت مقرّ انه ربك « ولئن رددت إلى ربي » ! .

الصاحب المؤمن الفقير لا يهاب في حوارهِ صاحبه الكافر النكير ، فلا يبالي مالاً ولا نفراً ، ولا يداري ثراءً ولا بطراً ، ولا يماري إلا مرأً ظاهراً وجدالاً بالتي هي أحسن بصامد الايمان وخالص اليقين والإطمئنان ، بتنديد شديد وتبديد حديد هدم صرح كفره ، تزيفاً لموقفه الكافر وتثبيتاً لموقفه المؤمن : « لكننا هو الله ربي » لا سواء من آلهة مختلفة مختلفة ، هو ربي في حلي وترحالي ، في كافة احوالي ، تتمثل ربوبيته الوحيدة في أية حال ، دون أن اوحده في لفظة القول « ولئن رددت إلى ربي » ثم اشرك به في الفعل : « ما أظن أن تبديد هذه .. وما أظن الساعة قائمة . ولئن رددت .. لأجدن خيراً » كأنه رب لربه يملكه ، دون ان يملكه ربه .. لكننا ..

لكننا لا اشرك به احداً « في اي مقال او حال ، في ماض او مستقبل او حال !

اترى « لكننا » هي لكننا مخففة يعني بها قبيله الايمان ؟ وقد يصح لفظياً ومعنوياً ثم يبعده « ربي » ! ام هي مدغمة « لكن انا » وهو أقرب ، إعراضاً عن الإنيّة والأناية المشتركة لمحاورة الكافر وتعريفاً بكيانه كمؤمن ، ف « هو

= إنه مخدوش بآيتي الكهف ، فالثابت من الصحبة ليس إلا صحبته في الغار وأما الصحبة الايمانية فلا تثبتها كما قد لا تنفيها اللهم إلا قوله تعالى « فأنزل الله سكينته عليه » حيث اختص سكينته بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) دونه وهو بحاجة حين يحزن الى السكينة وقد « أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » (٩ : ٢٦) و (٤٨ : ٢٦) ! راجع تفسير سورة الفتح من الفرقان ج : ٢٦ .

سورة الكهف / آية ٣٧-٣٨ ٩٥

الله ربي « بيان واف لكيانه « أنا » واين « أنا » من كافر و « أنا » من مؤمن ؟ !

الكافر يجعل « أنا » ه محوراً رئيسياً وحتى لربه وكما قال « لاجدن خيراً منها منقلباً » كانه يملك ربه ، والمؤمن يجعل « أنا » ه لا شيء إلا ما رباه ربه « لكن أنا » : « هو الله ربي ولا اشرك بربي احداً » !

هنالك ثالث من « أنا » انحسه دعوى الألوهية من غير الله « أنا ربكم الاعلى » ثم دعوى الوحدة الحقيقية مع الله « أنا هو وهو أنا » ثم أنا المحور والله الحائر حول هذا المحور ، ثالث الانحراف والانجراف الى الإنية والأنانية -

وصالحه « أنا هو الله ربي » حيث « لا قوة إلا بالله » هو الاصل الاصيل ولا خبر عني « أنا » إلا ما هباني ربي ، فانا صفر الوجود وهو صرف الوجود ، أنا مبتدئ هو مُبتدئ وخبره ومبتدئه ومنتهاه « لكننا هو الله ربي » وما احلاه توحيداً^(١) .

أترى أن صاحبه كان مشركاً ناكراً للمعاد لمكان الظنة الكافرة ذات أبعاد - ١ - « ما أظن ان تببد هذه ابداً » تأبيداً للحياة الدنيا - ٢ - « وما أظن الساعة قائمة » ترديداً في الحياة الآخرة - ٣ - وتنديداً بوعده الله للمؤمنين ووعيده لغير المؤمنين : « ولئن رددت الى ربي . . » ! .

أم إنه لم يكن مشركاً وثنياً يعبد أصناماً ، حيث المشركون ينكرون المعاد

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٢ - اخبر ابن ابي حاتم عن اسماء بنت عميس قال علمني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمات اقولهن عند الكرب « الله الله ربي لا اشرك به شيئاً » .

وهو متردد « ما أظن .. ولئن رددت » ولهم ارباب متعددون وهو يقول :
« ربي » .. وهم يعاد عن « ما شاء الله لا قوة الا بالله » إلا ان يؤمنوا ،
وقد رجاء صاحبه ان يقوله !

فهو اذاً أشرك بربه بزهوة الثراء والخيلاء كما هو للأغنياء الاغنياء ذوي
الانفة والكبرياء ، « ولم اشرك بربي أحداً » في تمنّيه بعد الحساب تنديد بنفسه
ان حسب قوته وجنته تكفيان بقاء بادرار واستمرار لشره من دون الله ،
وهذه حالة شركية تتمثل لكل من جنته الثراء وإن كان من الموحدين في
قوله الخواء . « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون .

﴿ ولولا اذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله .. ﴾ (٣٩)

« لولا .. قلت : ما شاء الله كائن لا ما شئته أنا « لا قوة إلا بالله »
دونني أنا ، فانا أنما أمشي وأمضي على هامش مشيئة الله ، دونما استقلال
في نفسي ولا استقلال لمشيئة الله ، و « ما شاء الله » تعم المشيئة التشريعية
والتكوينية سواء ، لا شريك له فيهما سواء ، فلا شرعة صالحة الا من
الله ، ولا تكوين اياً كان إلا من الله ، من خير ف « الخير كله بيديه » ومن
شر ف « الشر ليس اليه » لان تكوينه - اياً كان - ينتهي الى اذنه ، فلولا اذنه
أخيراً بعد اختيار المختار لم يحصل إذ « لا مؤثر في الوجود إلا الله » :

فانه « لا جبر ولا تفويض بل امر بين امرين » .

ليست الاختيارية في فعل إلا بمقدمة او مقدمات اختيارية ، لا أنه
بمقدماته كلها اختيارية ، مهما اختلفت الافعال الاختيارية ثواباً وعقاباً بقله او
كثرة في مقدماتها الاختيارية والاضطرارية ، فما يشاءه الله من شر أنت تفعله
باختيارك لا يصبح اضطرارياً لأنه شاءه ، إذ ما شاءه إلا بعد ما شئته ولكي
لا تجبر على ترك الشر كما ولا تجبر على فعله وفعل الخير او تركه ، مهما يمتاز

الخير بتوفيق من الله ، وليس الله بموفق شريراً في شره :

ف « ما شاء الله » كلمة جامعة تجمع عالمي التكوين والتشريع ، اذ « لا قوة إلا بالله » فان كل قوائك من الله ، وهي لا تكفي حولاً عن معصية الله وقوة في طاعة الله إلا بالله ، فهما بُعدان متناصران في قوة بالله ، ثم ولا تكفي فعلاً لمعصية الله وتركاً في طاعة الله إلا وأخيراً بقوة الله ، فبقوته أعطاك امتحاناً ما تشاء التخلف عنه ، ثم بقوة منه اخرى يشاء ما تشاء مما لا يرضاه تشريعاً ، فهو تكوين في امتحان يخالف تشريعاً ، ليس لأنه مغلوب في عصيانه ، بل تحقيقاً لواقع الاختيار الامتحان .

وقد يعني « لا قوة إلا بالله » معنى « لا حول ولا قوة إلا بالله »^(١) حيث القوة في ترك المعصية حول عن معصية الله ، والقوة على الطاعة قوة بالله ، ف « لا حول عن معصية الله إلا بقوة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله »^(٢).

مركز تحقيق كتاب تيسر علوم إسلامي

وانها باب من ابواب الجنة^(٣) وكنز من كنوز الجنة^(٣) ودافعة كل آفة حتى

(١) المصدر - اخرج ابن ابي شيبة واحمد والنسائي عن معاذ بن جبل ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ألا ادلك على باب من ابواب الجنة ؟ قال : ما هو ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لا حول ولا قوة الا بالله » :

(٢ - ٢) المصدر - اخرج ابن مردويه والخطيب والديلمي من طرق عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : أخبرني جبرئيل ان تفسير لا حول ولا قوة " بالله انه ... وفي معناه ما رواه في كتاب التوحيد عن ابي جعفر محمد بن علي الباقر (عليه السلام) قال : سألت عن معنى « لا حول ولا قوة الا بالله » فقال : معناه : لا حول لنا عن معصية الله الا بعون الله ولا قوة لنا على طاعة الله إلا بتوفيق الله عز وجل .

(٣) المصدر اخرج ابن ابي شيبة واحمد عن ابي ذر قال قال رسول الله (صلى الله عليه =

تأتي المنية^(١) ومبقية لكل عطية إلهية^(٢) وتزجر الشياطين بها الملائكة^(٣) ودواء من كل بلية^(٤) مهما كانت حرقاً أو غرقاً^(٥) أم أية بلية ! ف « لا قوة الا بالله » و « ان القوة لله جميعاً » (٢ : ١٦٥) :

فليقل الموحد « ما شاء الله لا قوة الا الله » وليفعل « ما شاء الله . . » وليعتقد « ما شاء الله . . » ! فيصبح بكيانه ككل « ما شاء الله . . » لا في

= وآله وسلم) الا ادلك على كنز من كنوز الجنة : لا حول ولا قوة الا بالله ؟ واخرج نصه او ما في معناه جماعة آخرون .

(١) المصدر اخرج ابو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما انعم الله على عبد نعمة في اهل او مال او ولد فيقول « ما شاء الله لا قوة الا بالله » الا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته وقرأه ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله .

(٢) المصدر اخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « من انعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها فليكثر من « لا حول ولا قوة الا بالله » ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » اقول وقد فسر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) باضافة الحول كما قدمناه وهنا وقبله يستدل لها بالأية وليس فيها « حول » .

(٣) نور الثقلين ٣ : ٢٦١ ج ٨٥ في محاسن البرقي عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) قال قال لي : اذا خرجت من منزلك في سفر او حضر فقل : بسم الله آمنت بالله توكلت على الله ، ما شاء الله لا حول ولا قوة الا بالله ، فتلقاه الشياطين فتضرب الملائكة وجوهها وتقول : ما سبيلكم عليه وقد سمى الله وآمن به وتوكل على الله وقال « ما شاء الله ولا قوة الا بالله » ؟ !

(٤) الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « ولا حول ولا قوة الا بالله » دواء من تسعة وتسعين داء ايسرها الهم .

(٥) نور الثقلين ٣ : ٢٦٠ ج ٨٤ في تهذيب الاحكام عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : اربع لاربع - الى قوله - : والثالثة للحرق والغرق : ما شاء الله ولا قوة الا بالله وذلك انه يقول « ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله » اقول - وقد احرق جنته بحصبان من السهام فاصبحت صعيداً زلقاً .

لفظة القول دون فعل واعتقاد ام وفي اي منهما ام فيها دون لفظة القول .

انت وكل فاعل مختار انما تعمل بقوة الله ، منك المشية والإختيار
وتقديم ما عندك من طاقات وامكانيات ، ومن الله التوفيق بإزالة الموانع
وتهيئة ما لا تسطع من الاسباب فـ « لا جبر ولا تفويض بل امر بين
امرين » ! .

﴿ .. ان ترن انا اقل منك مالاً وولداً^(٣٩) فعسى ربي ان يؤتين خيراً
من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً^(٤٠) او
يصبح ماءها غوراً فلن تستطيع له طلباً^(٤١) ﴾

لك جنة قد يرسل عليها ربي حسباناً^(١) من السماء خلاف حسبائك
فيها : « ما أظن أن تبید هذه أبداً » ! ولي جنة خير من جنتك هي لا تبید
أبداً ولا يرسل ربي عليها حسباناً من السماء إلا رحمة متواصلة ورضواناً ،
فاين جنة من جنة ، واين عقلية ايمان وجنة ؟ :

و « عسى » هنا ترجح دون تردد تادباً أمام وعد الله الحق ، علّه يؤهل
له ! أنا هنا اقل منك مالاً وولداً وهنالك في يوم الله أكثر بل ليس لك
هنالك إلا حسبان بدل الجنة والرضوان ، وأنت هنا أكثر مني مالاً وولداً قد
يرسل عليها حسبان كما لك هنالك حسبان ، واين حسبان من رضوان .
جنتك قد تصبح بكفرانك صعيداً زلقاً : لا ماء فيها ولا كلاء « او
يصبح ماءها غوراً فلن تستطيع له طلباً » !

(١) الحسبان هو الحساب وهو هنا ما يحاسب عليه فيجازى وهو الظن ، فالحسبان الاول
في المتن هو الثاني والثاني ، هو الثالث ، فقد يكون عذاباً بحسبان او رحمة بحسبان
فليس الحسبان اذاً - فقط - حسبان العذاب .

فقد تصطدم الجنة ببرودة ام حرارة زائدة فتبيس ثم تجبر حيث تعمّر ،
ولكنها الحسبان من السماء يجعلها غير قابلة للزرع والإثماء - إذ « تصبح
صعيداً زلقاً » : دَحْضاً لا نبات فيه .

ام قد يقل الماء المتفجر ام يُسدّ بسدات تحت الأرضية فيرجع بالتنقية ،
ولكنها الغور إبعاد له أو إفناء « فلن تستطيع له طلباً » ! .

« وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على
عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً » (١٢) .

لقد حصل فعلاً ما أنذره صاحبه حيث « أحيط بثمره » بما احاط الله
ثمره بحسبان من السماء أماذا ، فاستأصل ثمره « وكان له ثمر » وقد تكون
هذه الاحاطة السماوية من كل الجوانب كالبحرية : « جاءت بها ريح عاصف
وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم .. » (١٠ : ٢٢)
والإصابة المحيطة هي التي لا منفذ عنها ولا مخلص منها : « فأصبح يقلب
كفيه على ما أنفق فيها » : ثمر مدمّر من كل جانب وكأنه لم يكن له ثمر ،
حيث لم يبق له أثر إلا « صعيداً زلقاً » و « يقلب كفيه » كناية عن الإنفاق
النادم حيث تهدّر دون اي ثمر « وهي » الجنة « خاوية على عروشها »
مهشمة محطمة تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا « وهو يقلّب
كفيه » أسفاً على ماله الضائع بحاله الضائعه « ويقول يا ليتني لم أشرك
بربي أحداً » ولات حين مناص وفرار عما قدّمه ، ومن ورائه جهنم وبئس
القرار ! ترى ولماذا أصبحت الجنتان في سرد القصة كأنهما جنة واحدة :
آت - اكلها - لم تغلّم - جنته - هذه - منها - جنتك - من جنتك - عليها -
فتصبح - ماءها - فيها - عروشها - ؟

علهما لأنها أصبحتا كجنة واحدة لمكان زرع بينهما كما فيهما مهما فصل
بينهما جداراً من نخل ، فدخوله في قسمٍ منها دخول فيهما ، أو أنه دخلهما .

﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾^(٤٣) هنالك
الولاية لله الحق هو خيرٌ ثواباً وخير عقباً ﴿^(٤٤):

ورغم نفره من ولد وسواهم « لم تكن له فئة ينصرونه من دون الله »
حيث أحاط الله وقد كان يعتز بمال ونفر « وما كان منتصراً » وبن ينتصر ؟
بمن لا ينصرونه او ينصرونه ؟ أمن الله ؟ ولا قوة إلا بالله ! او من حساب
السماء ؟ وليس إلا امر الله ! ف « هنالك الولاية لله الحق » لا لسواه إلا
باطلاً .

وماذا تعني « هنالك » حيث تخص بها الولاية لله ؟ وكيف يوصف الله
بالحق ولا اله إلا الله الحق ؟ ثم ثوابه وعقبه خيرٌ من أي كان ولا خير إلا
منه ؟

فهل « هنالك » تشير الى مكانة الحيلة الإلهية بعذاب ألا ناصر فيها إلا
الله حيث تعني الولاية النصر ، فمهما كانت الإصابة من غير الله تدفع بغير
الله ، فالإصابة الخاصة من الله لا دافع عنها إلا الله الحق ، دون الآلهة
الباطلة التي يتخذونها آلهة دونه ، فحين تنقطع الأسباب وتحرار دون الحيلة
الغيبية الألباب ، تصرخ الفطرة أن لا إله الا الله ، و « الولاية لله الحق »
دون سواه !

ولكنه على صحته في نفسه لا يناسب « هو خير ثواباً وخير عقباً » حيث
الموقف هنالك هو العقاب وليس الثواب ! .

ام إن « هنالك » البعيد هي الحياة البعيدة الأخرى ، فالولاية النصر
والمالكية للتدبير هي « لله الحق » دون الآلهة الباطلة « هو خير ثواباً » من
سواه لو كان لهم ثواب ولا ثواب لسواه « وخير عقباً » عاقبة من سواه لو
كان لهم عُقب ولا عقب لسواه ، أو ان « خير » مقابل الشر فليس هنا
تفضيلاً ، فليس الخير ثواباً وعقباً إلا له ، ولمن سواه الشر ثواباً وعقباً !

وهذا على حقه في نفسه ، وبالنسبة لثوابه وعقبه قد لا يناسب الحيلة المدمرة الإلهية ، اللهم إلا وهو أشد تنكيلاً وعقاباً !

أم إن « هنالك » يجمع بين الموقف يوم الجمع ويوم الدنيا حين يحاط بالإنسان فيجمع بين المناسبتين ، فإذا كانت ولاية النصر والتدبير لله الحق دون آلهة الباطل ، ففروا - اذاً - الى الله الحق ، فهل تريدون من الآلهة إلا ثواباً وعقاباً فهو « خير ثواباً وخير عقاباً » !

إن الولايات الهامشية الإختبارية لمن سوى الله ليست إلا من قبل الله كما ولي استخلاقاً دون تخويل ، فلا تركنوا إليها اللهم إلا الى حقها^(١) دون باطلها ، تذرعاً الى تحقيق أمر الله ، والزلفى الى ولاية الله ، ولتكونوا على نبهة دائبة ألا ولي إلا الله ، ولا ثواب ولا عُقْب إلا من الله ، ففي ظل ولاية الله تتواري الولايات كلها ، و « لا قوة إلا بالله » !

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾^(٢٥)

هنا مثل للحياة الدنيا يأتي في يونس أكثر تفصيلاً : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون

(١) ومن حق الولايات الهامشية ولاية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي ظلها ولاية علي (عليه السلام) والائمة المعصومين من ولده ، وقد تبرز ولاية علي (عليه السلام) تأويلاً ل « الولاية لله الحق » كمصداق مختلف فيها في الولايات تحت ظل الولاية المحمدية كما رواه في الكافي بإسناده عن علي بن حسان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سألت عن قوله عز وجل « هنالك الولاية لله الحق » قال : ولاية أمير المؤمنين (عليه السلام) ورواه مثله عن عبد الله الرحمن بن كثير عنه (عليه السلام) .

عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تُغن بالأمس كذلك
نفصل الآيات لقوم يتفكرون» (٢٤).

ألا إن الدنيا «كروضة اعتمَ مرعاها وأعجبت من يراها، عذبُ
شربها، تمج عروقها الثرى وينظف فروعها الندى، حتى إذا بلغ العشب
أبانه واستوى بنانه، هاجب ريح تحت العروق، وتفرق ما أتسق،
فأصبحت كما قال الله «هشياً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء
مقتدراً»^(١) فهي إذا «لا تعدوا إذ تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا
بها أن تكون كما قال الله «كماء أنزلناه من السماء» .. (٢).

اترى «الحياة الدنيا» هنا هي الرديئة الدنيئة؟ و «ماء أنزلناه من
السماء»؟ قد لا يناسبها، فانه رحمة من سماء الرحمة اختلط بها نبات
الارض!

أم هي أدنى الحياة العقلية الينا وأقربها، من وراءها الحياة البرزخية
والاخرى وهما العليا؟ ويناسبها «كماء أنزلناه من السماء» ولكننا العاقبة
«فأصبح هشياً ..» قد لا تناسبها! -

ام هي الدنيا بمعنيها حيث يناسبان موضعها «ماء وهشياً»؟ وهذا
أنسب وأحرى!

فكما الماء النازل من السماء طاهر في نفسه، عال في مكانه ومكانته،
وحين ينزل يختلط به نبات الأرض لينبت، فلولا الماء فلا نبات ولا كلاء،
كما لولا بذور النبات لم يفد الماء، ومن ثم نبات الأرض الظاهر الزاهر

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٦٢ ح ٩٢ في روضة الكافي بإسناده عن علي بن الحسين (عليه
السلام) حديث طويل في الزهد في الدنيا وفيه يقول (عليه السلام) «فهي
كروضة ..»

(٢) عن نهج البلاغة عن الامام امير المؤمنين (عليه السلام) .

بزخرفاته يصبح هشيماً تذروه الرياح ، حيث تنتهي شريط الحياة للنبات .
كذلك الروح الإنساني الطاهر ينزل من سماء المشيئة الإلهية إلى أرض
البدن « ونفخ فيه من روحه » (٣٢: ٩) وأرض الأرض : « قال اهبطوا
بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين » (٧ : ٢٤)
فاختلط به نبات الأرضين زينة وزخرفة ، ثم يصبح البدن ومن ثم أرض
البدن بنباته هشيماً تذوره الرياح ! والهشيم : الكسير الرخو ، والذرو :
التفريق ، فالرياح تفرق كسير النبات ورخوها كأن لم تكن شيئاً !

مشهد للحياة الدنيا ، خاطف قصير يلقي في النفس لها ظل الفناء في
مثلث نزول ماء السماء وخلطه وهشيمه ، فلا بقاء إذاً لدنياها ، والباقي
هو ماء السماء ، روح الإنسان بعد تهشم البدن بدنياه ، فليتزود نازل السماء
من منزل الأرض زاداً لأخراه .

ألهذه الخليطة الهشيمة ، الحطيمة اليتيمة الزهيدة ، القصيرة الوهيدة ،
لهذه تتنافس ، فتتقاعس عن واجب الحياة ، عن اخراها الى اولها ، لحد
تظن ألا تبيد هذه أبداً ؟ ! .

حتى متى الغفلة والغفوة عن حق الحياة وحاقها ، الى باطلها وزائلها
« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (٣٠: ٧) .

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك
ثواباً وخيراً أملاً ﴾ (٤٦) .

أترى أن زينة الحياة الدنيا محرمة على أهلها؟ « قل من حرم زينة الله
التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا
خالصة يوم القيامة .. قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما
بطن .. » (٧ : ٣٣) ! .

فمن هذه الزينة باقيات صالحات هي خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً ،
ومنها زائلات طالحات لا خير فيها ولا ثواب إلا شر وتباب !

الأعمال كلها باقيات أقوالاً وافعالاً ونيات ، من صالحات وطالحات
باغيات ، فالصالحات خير عند ربك ثواباً كما الطالحات شر لا تخلف إلا
عقاباً ، والصالحات خير أملاً يأملها فاعلها في الدارين ، والطالحات شر
أملاً في الدارين : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير
عند ربك ثواباً وخيراً مرداً » (١٩ : ٧٦) وإذا كان الانسان يتعلق بالمال
والأولاد ثواباً وأملاً ومرداً ، فالباقيات الصالحات منها وسواها خير ثواباً
وخيراً أملاً وخيراً مرداً !

وزينة المال والأولاد قد تكون باقية صالحة لحد توخذ في كل مسجد
« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٧ : ٣١) حيث تشمل المال
إنفاقاً له في كل مسجد والأولاد تعبداً كماثالكم في كل مسجد ، فيصبحان
على زينتهما من الباقيات الصالحات ، فزينة المال والأولاد كسائر الزينة في
الحياة الدنيا هي زينة الله حيث زينها الله وجعلها وسيلة للحياة الأخرى ،
ولكنما الشيطان يزينها زينة أخرى أنها دائبة تُرغب في نفسها فتزل فيها قدم
بعد ثبوتها ، او تضل حين ورودها لمن أبصر اليها فاعتمته ولم يبصر بها
فبصرته : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا . . »
(٢ : ٢١٢) « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير
المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع
الحياة الدنيا والله عند حسن المآب » (٣ : ١٤) .

فللزينة قيمة ما تزيد في قيمة الإنسان وهي الباقية الصالحة ، وليست
لها قيمة ما تنقص من قيمة الانسان وتجعله كحيوان ، وهي الباقية
الطالحة ، وما أهونها واحونها زينة تسلب قيمة الانسان بدل أن تجلب قيمة
للانسان !

وَيَوْمَ

نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ
 تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ
 جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ
 لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
 مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنَوِّلُنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ
 لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
 حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
 اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ
 عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ
 دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾
 * مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ
 أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ

يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ
النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن
يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ
سُنَّةٌ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا
هُزُوعًا ﴿٥٦﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ
عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ
فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ

لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ
مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى
أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم تغادر منهم
أحداً ﴾ (٥٧):

وترى أين وأنى يبرز خير الباقيات الصالحات ثواباً وأملاً ومرداً؟
« يوم نسير الجبال .. » وهنا يجمع ردفاً بين يومي القيامة إماتة : « نسير
الجبال .. » واحياء : « وحشرناهم .. » جمعاً للموتى في الحياة فحساباً
وجزاء وفاقاً !

وبماذا يعطف « يوم » في بروز الباقيات الصالحات والطالحات ؟ علّه
قبله يوم البرزخ فانه دار جزاء برزخ ، وقبله الدنيا حيث يرى فيها الباقيات
الصالحات والطالحات بشيء من آثارها، مثلث من الحياة في كل حسبها يرى
آثار الصالحات والطالحات ، وكما آية السعي تسعى : « وأن ليس للانسان
إلا ما سعى » كضابطة عامة تبتدء من الدنيا « وأن سعيه سوف يرى »
انتقالاً إلى البرزخ « ثم يجزاه الجزاء الأوفى » الى الحياة الاخرى ، فليست
المساعي والصالحات موقوفة في ثوابها وأملها ومردّها في الحياة الاخرى ،
بل تبرز بدرجات او دركات في مثلث الحياة .

و « نسير الجبال » هي قيامة الأرض بما فيها وعليها ، باقتلاع الجبال
عن أصولها وتسييرها سريعة لحد « ترى الأرض بارزة » بروز قواعد الجبال
والاكتلال ، وسراباً : « وسيرت الجبال فكانت سراباً » (٧٨ : ٢٠) حيث

« تذلل الشمم الشوامخ والصم الرواسخ فيصير صلدها سراباً رقرقاً ومعهددها قاعاً سملقاً » « ويسألونك عن الجبال قل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » (٢٠ : ١٠٧) أرضاً مستوية ملساء دون انخفاض فيها ولا ارتفاع -

« وحشرناهم فلم يغادر منهم أحداً » في قيامة التعمير بعد قيامة التدمير ، ولكل رجفة تناسبه « يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة » (٧٩ : ٧) « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون » (٣٩ : ٦٩) ولعل من بروز الأرض اشراقها بنور ربها حيث تطوى ظلمتها وظلاماتها طياً ، كما وأنها تبرز أثقالها المخبوءة فيها « وأخرجت الأرض أثقالها » .

وإنه الحشر العام والتام دون ابقاء : « فلم يغادر منهم أحداً » من الأولين والآخرين : « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً » (١٨ : ٩٩) « ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس » (٦ : ١٢٨) .

حشر تبدى فيه الأرض بارزة عارية من أتلال وأشجار وجبال وعن بنايات أمّاذ من حواجز وفواصل بروزها صافية مستوية ، فالقوة التي تسير الجبال وتصيرها كالعهن المنفوش ، ماذا ترى تفعل بما دونها من أتلال أم ماذا ؟ : فللأرض بروز أول رفعاً لحواجزها ، وبروز ثان إخراجاً لأثقالها ، وبروز ثالث إشراقاً بنور ربها ، ومن ثم جمع على ظاهرها الساهرة « وجمعناهم فلم يغادر منهم أحداً »^(١) والمغادرة هي المشاركة والإخلال

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٥ ج ١٠٦ في كتاب جعفر بن محمد الدرويستي بإساده الى ابن =

بالشيء ، فلا متاركة مع أحد ولا إخلال باحد !

تتكشف الأرض وتتكشف خبايا من يُحشر على الأرض فلا تخفى منها
ولا منه خافية :

﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل
زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ (٤٨).

أترى انهم لم يكونوا بمعرض « ربك » حتى « عرضوا » بعد حشرهم ،
« ولا تخفى عليه خافية » في الدنيا والآخرة ، ثم ومن هذا المطلع عليهم قبل
« ربك » حتى يعرضهم على ربك ؟

ان الكون كله بمعرض الله ايأ كان وايان ، ولكننا العرض على
« ربك » عرض على ربوبية ، فهنا عرض أول طول الحياة الدنيا على
ربوبية التكليف وهو أمانة الرب على العواقب « إنا عرضنا الأمانة على
السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها فحملها الانسان
أنه كان ظلوماً جهولاً » (٣٣ : ٧٢) وهناك عرض على ربوبيته الجزاء
« وعرضوا على ربك صفاً » ولا يعرضهم إلا ربك او من يعرضهم من
عماله باذنه لموقف التسائل والحساب فالجزاء ، دون ان تخفى منهم خافية :
« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » (٦٩ : ١٨) فليس العرض كما
الأشهاد لانه خاف عليه خافية « أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد

= عباس قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
« وحشرناهم فلم تغادر منهم احداً » غشي عليه وحل الى حجرة ام سلمة فانتظره
اصحابه وقت الصلاة فلم يخرج فاجتمع المسلمون فقالوا : مالني الله قالت ام سلمة :
أن نبي الله عنكم مشغول ، ثم خرج بعد ذلك فرقى المنبر فقال : ايها الناس انكم
تحشرون يوم القيامة كما خلقتم حفاة عراة ، ثم قرأ على اصحابه « وحشرناهم فلم تغادر
منهم احداً » ثم قرأ « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا انا كنا فاعلين » :

هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين « (١١ : ١٨) .
ولأن العرض فيه الهول المطلع ، وآياته تخص عرض الظالمين ، فهو -
إذاً - خاص بغير المؤمنين ، وأما هم فوافدون إلى ربهم وفد الكرام إلى
الكريم -

« عرضوا .. صفاً » فهم بصفهم في عرضهم يزدادون هولاً ، فهنا
صف هائل لأهله ، حيث لا حكمة فيه إلا هوله ، وفي القتال صف هائل
للعُدو « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »
(٦١ : ٤) وأين صف من صف ! ثم الخطاب الهائل لذلك الصف
والعرض الهائل : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة .. » وي كأنه
خطاب حاضر ، لا مستقبل ، تجسماً وتحضيراً لموقف الخطاب العتاب !
وترى كيف المجيء بمعرض الرب « كما خلقناكم أول مرة » ؟ لقد
خُلِقنا فرادى دون ما خُولنا ولا شفعاء وكذلك نجيئه كما خلقنا : « ولقد
جئتمونا فرادى كما خلقناهم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما
نرى معكم شفعائكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم
وضل عنكم ما كنتم تزعمون » (٦ : ٩٤) هذا مجيء « كما خلقناكم أول
مرة » ومجيء آخر معه « كما بدأنا أول خلق نعيده » (٢١ : ١٠٤) « كما بدأكم
نعودون » (٧ : ٢٩) فكما خلقناكم فرادى جئتمونا فرادى ، وكما خلقناكم من
تراب جئتمونا عائددين كبذئكم من تراب ، كما خلقناكم أول مرة جئتمونا
ثاني مرة :

« بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً
وأنكم إلينا لا ترجعون » (٢٣ : ١١٥) زعمتم إحالة موعد العرض
والحساب ، وحسبتم عبث الخلق وعدم الرجوع والإياب ، ولذلك اثاقلتم
إلى الأرض ورضيتكم بالحياة الدنيا من الآخرة ! :

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ (٤٩).

ذلك الكتاب هو كتاب الأعمال الصوتية والصورية أماذا كما استنسخه الله «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» (٤٥ : ٢٩) استنسخاً لنفس العمل كأعمال فـ «وجدوا ما عملوا حاضراً» «كانه فعله تلك الساعة»^(١) فلو لم تكن نفس الأعمال وكانت حكاية أخرى غيرها لم يجدوا ما عملوا حاضراً ! «ولا يظلم ربك أحداً» أن يكتب ما لم يعمل من سوء ، أو يكتب العامل أزيد من استحقاق جزاء غير وفاق ، أم لا يكتب سوء أو ينقص من سوء ظلماً على تاركه السيء أماذا ؟ .

﴿وضع الكتاب﴾ بمعرض المحشر حيث يراه ويسمعه ويفهمه صاحبه وسواه ، وواويله من هذا العرض وذلك الوضع ، «فترى المجرمين» وهم يتأملونه ويتملونه فاذا هو جامع لما اجرموا دون إبقاء «مشفقين مما فيه» خائفين على حبه ، حباً لانه منهم ، وخوفاً من عقابه الحاضرة ، فالإشفاق «من» يزيد خوفه على حبه ، والاشفاق «في» يزيد حبه على خوفه ، فلان إشفاقهم خالٍ عن رجاء فخوفه زائد على حبه ، بل ولا حب بعد هنيئة يرون جزاء ما فيه ويتمنون فراقه : «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٦ في تفسير العياشي عن خالد بن نجيع عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : اذا كان يوم القيامة رفع الانسان كتابه ثم قيل له : اقرئه - قلت : فيعرف ما فيه ؟ فقال : انه يذكره ، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم إلا يذكره كأنه فعله تلك الساعة فلذلك قالوا : «يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها» وفي نقل آخر وقال (عليه السلام) : يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه كأنه فعله تلك الساعة - ثم استدل (عليه السلام) بالآية :

وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد» (٣ : ٣٠) «ويقولون» والهين حائرين آسفين «يا ويلنا مال هذا الكتاب» ما له من قوة ضابطة حافظة ، لهذا الشريط والمسجلة «لا يغادر» معصية «صغيرة ولا كبيرة إلا احصاها»^(١) احصاءً لنفس الصغيرة والكبيرة ورسمها لا إسمها ، وكل مسجلة ام شاشة تلفزيونية إنما تحضر ما تلقته اذا سلمت وبقيت على حالتها الاولى حين سجلت ، وهذا الكتاب ، المسجلة الأرضية بفضاءها ، والبدنية بأعضاءها أماذا ، نراها تودي أمانتها بعدما تمزقت : «اذا زلزلت الأرض .. يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها ..» «ووجدوا ما عملوا حاضراً» بما سجله الله وأحضره «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء..»! وليس حضور العمل حضوراً لما يحكي عنه من قولة حاكيه ام كتابة ، اللهم إلا حضوره نفسه وقد انقضى ام تجسّمه وهو تجسّم! إذ ليس انقلاب العمل - وهو صورة - الى جسم - على فرض امكانيته ليس هو هو او صورته ، ثم لا مبرر لهكذا قلب للعمل ولا يجدي نفعاً!

إن العمل أياً كان يُستبقى دون عامله بزمانه ومكانه ، ويستنسخ منه صور اخرى : «انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» : ف «وجدوا ما عملوا حاضراً» يعني أصل العمل المستمر وزيادة هي ما استنسخ منه في كتب صوتية وصورية اخرى من أرض بفضائها ، ولا حضور للعمل معقولاً هو

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٩ - اخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : لما فرغ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من غزوة حنين نزلنا قفراً من الارض ليس فيه شيء فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اجمعوا من وجد عوداً فليات به ومن وجد عظماً او شيئاً فليات به ، قال : فما كان الا ساعة حتى جعلناه ركماً فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اتروا هذا فكذلك تجتمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا فليتنق الله رجل لا يذنب صغيرة ولا كبيرة فانها محصاة عليه .

حجة على العامل إلا نفسه ، وتزيده ما معه من صور مستنسخة أخرى ، إذا فتجسّمه تجسّم وليس به ، واللفظ أو الكتاب الحاكيان ليسا نفس العمل ، فلا معنى صحيحاً ممكناً هو حجة على العامل إلا حضور العمل ، أم حضور صورته التي استنسخها الله « انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » سواء أكان عمل القلب أو القلب ، في مثلث من الصور المعنوية والصوتية والصورية ، كذلك الله يفعل ما يشاء ، حجة عينية حاضرة ، وصورة حاذرة ، وحضبا في سيرته ، فـ « إنما تجزون ما كنتم تعملون » مثلث من الأهداف العادلة الكافلة لما يرام من العمل يوم القيام ! « ولا يظلم ربك أحداً » !

في ذلك الكتاب مربع من الشهادات ، عينية سجلتها الارض - ١ - والأعضاء - ٢ - ، وقوليه - ٣ - يشهد بها الشهداء من الأنبياء ، أماذا - ٤ - كتبها الكرام الكاتبون ، يعلمون ما تفعلون ، علّه قوله أم كتابة التعبير ، أم تسجيله لصور الاعمال واصوات الاقوال في سجلات الارض والاعضاء أماذا ؟
وعلى هنالك كتباً ودواوين منها ديوان السيآت كما الحسنات والنعمة على حدّ المروي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)^(١) فالكتاب الموضوع جنسه الشامل لها ، يشمل كل كتاب يحصي الاعمال كما يشمل كتاب كل من العمال ! :

وترى هذه الكبيرة تُحصى في كتاب الاعمال فما بال الصغيرة تحصى وهي مكفرة ؟

ان الصغيرة مكفرة اذا تُركت للذين آمنوا : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » ولكنما الصغيرة التي تعمل

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٢٩ - اخرج البزاز عن انس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين ، ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله عليه .

مع الكبيرة ، اولغير المؤمنين لا تكفر ! ويكفي الكفر كبيرة تحصى معه كل صغيرة وان لم يأت بكبيرة اخرى !

﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ (٥٠)

لقد كرمكم ربكم إذا امر الملائكة بالسجود لآدم ، وأهانكم ابليس إذ فسق عن أمر ربه ، ثم انتم هؤلاء تتخذونه وذريته أولياء وهم لكم عدو ، وترفضون ولاية ربكم ، فاذكروا فيما تذكرون . . . » واذ قلنا . . .

وترى أن إبليس « وكان من الجن » فلم يكن من الملائكة ، كيف - إذا - يشملُه ضمن الملائكة الأمر بالسجود لآدم ؟

اجل انه لم يكن من الملائكة - قطعاً - فانهم « عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول ويفعلون ما يؤمرون » (٢١ - ٢٧) - « ان الملائكة معصومون محفوظون من الكفر والقبائح بالطفاف الله تعالى » (١) .

انه « كان من الجن » وكان مع الملائكة وكانت الملائكة تراه أنه منها ، وكان الله يعلم أنه ليس منها فلما امر بالسجود كان منه ما كان « (٢) » فاستخرج ما في نفسه بالحمية والغضب « (٣) » .

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٧ ج ١١٧ في عيون الاخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) في هاروت وماروت وفيه بعدان مدح (عليه السلام) الملائكة وقال : معاذ الله من ذلك ان الملائكة . . بالطفاف الله تعالى - قالوا قلنا له (عليه السلام) : فعل هذا لم يكن ابليس ايضاً ملكاً : فقال : لا - كان من الجن اما تسمعان الله تعالى يقول : « . . كان من الجن » فاخبر عز وجل انه كان من الجن وهو الذي قال الله تعالى « واجنان خلقناه من قبل من نار السموم » .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٦٧ ج ١١٩ في تفسير العياشي عن جميل بن دراج عن أبي عبد =

نتلمح كتصريح من عدم اعتراضه على الله : « لم يشملني الأمر إذ لم أكن من الملائكة » وإن الله أمره بخصوصه أم في الملائكة « ما منعك أن تسجد إذ أمرتك » (١٢: ٧) أنه شمله الأمر « وكان من الجن » فهو أعقل من أن يتحول إلى قياس باطل بدل البرهان ! فقد « كان من الجن » كوناً ، ومن الملائكة كياناً ومحتداً في ظاهره حتى تبين أمره حين تخلف عن أمر ربه !

وقد فرغ فسوقه عن أمر ربه بكونه من الجن، ولو كان من الملائكة لم يفسق .

أم ويعني معنى ثانياً : كان ممن يجن ويستر عن الملائكة كونه من الجن وكونه كافراً « ففسق عن أمر ربه » فتبين لهم أنه كان من الجن وأنه كافر ، وعمل المعنيين معنيان وما أجملها جمعاً ومما يلمح لثانيهما « كان » حيث الأول كائن ما كان دون حاجة إلى صيغة الماضي ، ولكن إخفاء عنهم كوناً أو كينونة هو الذي « كان » ثم « ففسق » تفريع للاول ، وعطف ترتيب للثاني ! فسق عن أمر ربه لأنه لم يكن من الملائكة وهم معصومون بل كان من الجن الوارد منهم الفسق ، وكان ممن يجن حالته الكافرة ، « وكان من الكافرين » ففسق عن أمر ربه بالسجود إذ لم يتمالك نفسه العاتية المستكبرة أمام آدم ! ثم و « إلا ابليس » عله استثناء منقطع إذ كان من الجن ، وأمره بالسجود يخصه كما أمرهم يخصهم ، أم متصل عني من الملائكة الكيان الملائكي في واجهة الأعمال الإيمانية الملائكية ، إذ كان معهم يعبد الله

= الله (عليه السلام) : قال : سألت عن إبليس كان من الملائكة وهل كان يلي من أمر السماء شيئاً ؟ قال : لم يكن من الملائكة ولم يكن يلي من أمر السماء شيئاً كان من الجن . . .

(٣) المصدر ج ١٨ في أصول الكافي عنه عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : إن الملائكة كانوا يتحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنه ليس منهم فاستخرج :

بضعة آلاف من السنين لحد اعتبروه منهم ولأقل تقدير كياناً ، ام أمر بامرین يخصه « إذ أمرتك » ويعمه مع الملائكة « اذ قلنا للملائكة » وعله اجل حيث المتمرد بحاجة الى تأكد من الامر ، فليؤمر بامرین !

« افتتخذونه وذريته اولياء من دوني وهم لكم عدو » حيث لم يسجد لآدم ، وعدو لله حيث عصاه - تتركوني وأنا ربكم وتتولونه وهو عدو لكم ولربكم « بشئ للظالمين بدلاً » يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ! وماذا تعني ولاية الشيطان وذريته ؟ قد تعني الولايات الإلهية كلها حسب مختلف دركات العقائد في اتخاذ الشيطان وذريته اولياء .

من ولاية العبادة « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (٣٩ : ٣) « وجعلوا لله شركاء الجن » (٦ : ١٠٠) « بل كانوا يعبدون الجن » (٣٤ : ٤١) فمن الناس من يعبد الشيطان خوفاً منه وتقية لكيلا يضره ، وعبادته أضر الأضرار ، فراراً أخبث من الحفرة بدخول البثرة .

ومن ولاية الطاعة « ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » « والذين كفروا أوليائهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » .

ومن ولاية التكوين والتدبير والتشريع والتقدير ، بمختلف العقائد الشاردة الماردة عن صراط الحق في ذلك البذل البعيد السحيق و « بشئ للظالمين بدلاً » ! « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً » (١١٩ : ٤) :

وترى كيف انتشاء الذرية وانتسال الانسال من إبليس ؟ أمن زواج الزوجين ؟ ولم يأت ذكر ولا إشارة في الذكر الحكيم عن شيطانة ، وقد ذكرت إنسانة : « وجعل منها زوجها » !

ولكن التعبير بـ « رجال من الجن » يلمح أن فيهم ايضاً نساء حيث الرجولة والأنوثة من المضايقات ، كل تطلب الأخرى ، فلتكن الذرية منهم بين رجال ونساء ، دون أن تباض بيضات كما في بعض الروايات !

و « رجال من الجن » هنا هم من القدة غير الصالحة « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » (٧٢ : ٧) فلا موقع للقول : لعل التناسل هو بين صالحى الجن دون من دون ذلك ! مع أن الصلاحية هنا لا تعني صلوح التناسل ، وإنما العقيدة والعمل ، ووحدة الجنس بين الصالحين ودون ذلك الشامل للشياطين ، إنها تحكم بوحدة الكيفية في انتسال الأنسال !

﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ (٥١) :

اترى من « هم » في « ما أشهدتهم » و « أنفسهم » ؟ أهم فيهما ابليس وذريته كما هما محور البحث في آية السجود من عصيانه النكير وولايته بذريته ! فسلب الاشهاد في الخلقين لزامه سلب ولايتهم الإلهية كيفما كانت ؟ حيث الولاية التامة لزامها الإحاطة العلمية وفي القدرة ، أن يحيط فيهما بخلق السماوات والأرض ، أم - وعلى اقل تقدير - بخلق انفسهم ، فيصبحوا إذاً من أعضاد الربوبية ، بُعدان بعيدان عمن سوى الله اياً كان !

فلو كان الإشهاد بإحضارهم على علم ، فليكونوا كائنين قبل كونهم ، وقد خلّقوا بعد خلق السماوات والأرض فكيف يُشْهَدون خلقهما ، وقد خلّقوا ولم يكونوا شيئاً مذكوراً فكيف يُشْهَدون خلق انفسهم ؟

و إن كان إشهاداً دون إحضارهم ، بان عرفهم حقيقة خلقهما وخلقهم أنفسهم بعد خلقهما وخلقهم ، كأنهم كانوا حضوراً حين الخلقين ،

فأحاطوا بهما علماً وقدره ، فلهم الولاية إذا بما أشهدوا ؟ ولكن الله ما أشهدهم ! ولو أشهدهم لكانوا يعلمون غيب السماوات والارض كما الله ، ام وغيب انفسهم كما الله ، فكانوا قادرين عليهما وعلى انفسهم كما الله ، حيث العلم التام هو القدرة التامة ! وهي الولاية الإلهية على سواء .

ثم لو امكن اعتضاده تعالى بعضد مستحيل في بعدين كالاول ، ام في بعد واحد كالثاني ، لكان يعتضد بعدول هادين دون المضلين « وما كنت متخذ المضلين عضداً !

ان الله تعالى يحيط ببعض الشيء كإشهاد ثان بعض عباده شيئاً من كونه او كله ، اراءة للملكوت ، وولاية جزئية دوئماً اعتضاد لنفسه ولا تخويل لهم ، ولكنهم هداة وفي قمة العبودية والعدالة ، وأما أن يتخذ المضلين عضداً « وما كنت منذ بدء التكوين » متخذ المضلين عضداً « ولماذا عضد لمن هو على كل شيء قدير » ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ؟ ولماذا المضلين وشأنه الرحمة والهداية ؟ !

إذا فآية ولاية آلهية بعيدة عن الشيطان وذريته في أبعاد عدة ، بعد الإستحالة في نفسه كما الإشهاد الاول ام في ساحة الربوبية كما الثاني ! . ثم « وهو لكم عدو » كما هم أعداء الله ، فكيف يتخذهم عضداً ، اللهم إلا لمزيد اضلال فيما الله يعجز عنه فيعتضد بالشيطان وذريته ! فسبحانه سبحانه وتعالى عما يشركون !

فهل يتخذ الله من غير المضلين عضداً حتى يتخذهم وهم مضلون عضداً ؟ صيغة صائغة مجاراتاً لأوهام المشركين لاستئصالها ببرهان مكين متين !

انه لا عضد لله يعتضد به ، وإنما له أولياء في شرعته بما أشهدهم اياها : ولاية شرعية ، دون ولاية تشريعية ، أن لم يشهدهم جذور مصالح

التشريع حتى يشرعوا بل هو الذي « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٤٢ : ١٣) دون ان يخوّلهم تشريعاً اللهم إلا حكماً بشرعته جماعياً وفردياً وفي كافة الحاجيات المختلف فيها بين الأهواء والعقول وفي مختلف الحقول !

واما ولاية التكوين ، فهي منحصرة في الله في أصلها : التكوين لا من شيء ، وقد يمنحها الله في فرعها : التكوين من شيء كآيات النبوات بقلة في اراءه الملكوت كإحياء الموت فيما تطلبه ابراهيم « رب أرني كيف تحيي الموتى » (٣ : ٣٦٠) وبكثرة فيما هم فيها مظاهر لفعله كخلق الطير للمسيح فانه في جسمه باذنه ، وفي روحه باذنه ، دون تكوين للمسيح إلا خلق الطين كهيئة الطير في صورة ، واما هيئته في حقيقته « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني » فضلاً عن روحه « فننفخ فيه فتكون طيراً باذني » (٥ : ١١٠) فانما هما من تكوينه تعالى لا تكوينه !

فلا ولاية إلهية هي من خلفيات العلم المحيط بالكون ، لأحد من خلقه ، اللهم إلا شرعية بما أوحى ، او تكوينية كاداة صورية لا حقيقية !

ثم لـ « هم » في « اشهدتهم » و « انفسهم » وجوه ثلاثة أخرى وما قدمناه أصح وأحرى .

١ - انها راجعان الى من يتولون الشيطان وذريته في كل ماضى من إشهاد وهو في نفسه صحيح ، لا لهم فحسب ، بل ولن سوى الله ككل ، حيث ما أشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم - ولكنه لا يناسب « وما كنت متخذ المضلين عضداً » حيث المتولون هؤلاء لم يدعوا كونهم انفسهم أعضاء الله ، وانما الشيطان وذريته حيث يتولونهم كأنهم أعضاء الله !

٢- ان الاول راجع الى الشياطين والثاني من يتولونهم ، أن الشياطين ما أشهدوا خلق الكون ليُتخذوا أولياء ، وهم ما أشهدوا خلق أنفسهم ، أنها في الكيان بحيث يتخذونهم أولياء ؟ ولكننا التولي هكذا لا يحتاج هكذا إسهاد لخلق أنفسهم ، وإنما وحي أو كتاب أو ائارة من علم أماذا ؟ ثم يكفي سلباً لهذا التولي « وما كنت متخذاً المضلين عضداً » .

٣- عكس الثاني ان المتولين الشياطين ما أشهدوا خلق السماوات والأرض، والشياطين ما أشهدوا خلق أنفسهم، فاذا لا يحيطون علماً بالسماوات والأرض فكيف يتخذون الشياطين أولياء من دون الله ، أتحرصاً على الغيب أن الله اتخذهم لهم أولياء وأذن لهم ؟ ام علماً بالغيب « ما أشهدتهم » وما أشهدت الشياطين خلق أنفسهم انهم خلّقوا أولياء ؟ ولكننا الولاية الإلهية يكفيها الإعلام ، دون إسهاد لخلق أنفسهم !

او يقال : إذا لم يشهدوا خلق أنفسهم فأولى ألا يشهدوا خلق السماوات والأرض، فأنّ لهم الولاية الإلهية ولزامها العلم التام والقدرة ؟ وهذا في نفسه صحيح ، ولكنه بنفسه غير فصيح ، ولا تتحملة لفظ الآية ، حيث « ولا خلق أنفسهم » عطف على « ما أشهدتهم » فـ « هم » فيها - اذاً - جماعة واحدة ، حيث اللفظة الصحيحة الفصيحة لاختلافهما « ولا أشهدتهم خلق أنفسهم » بل « ولا أشهدت هؤلاء .. » ! ٤ - وقد تعنيها الآية جمعاً بين الحجتين .

ووجه خامس « ولا خلق أنفسهم » اي ما أشهدت ابليس وذريته خلق السماوات والأرض سناداً لولايتهم ، ولا أشهدت المتولين لهم خلق انفس ابليس وذريته ليحيطوا علماً بتأهلهم لذلك الولاية !

ووجه سادس يجمع بين الوجوه الصحيحة في نفسها .

وأولى الوجوه هو الاول، ثم هي بين غلط وصحيح ما ضمن الاول،

والجمع بين الصحيحة هو أصح الوجوه !:

انه تعالى ما أشهد الشياطين ولا المتولين لهم ولا المؤمنين ولا اولياءه المكرمين ، خلق السماوات والارض ولا خلق أنفسهم ، لإشهاد الحضور حيث لم يكونوا حضوراً ، ولا إشهاد الإحاطة علماً وقدره ، فانه ولاية إلهية لا تثني ولا إشهاد الإطلاع للمتولين الشياطين أن لهم ذلك التولي ! او لشياطينهم تلك الولاية - ولا انه يعتضد بمن سواه ، ولو كان معتضداً لم يكن بالمضلين « وما كنت متخذ المضلين عضداً » -

فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو أول العابدين وآخر المرسلين ليس عضداً ولا وكيلاً ولا ولياً تكوينياً ولا تشريعياً عن رب العالمين : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (٧ : ١٨٨) « قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب .. » (٦ : ٥٠) مركز تحقيق كاتبيت علوم إسلامي

واشهاد خلق السماوات والأرض وإشهاد نفس المشهود له لنفسه ككل فيه علم الغيب كله ، والقدرة على الغيب كله ، فإذا لا ولاية عامة لأول العابدين الهادين فكيف إذا حال أول المضلين ؟ « وما كنت متخذ المضلين عضداً !

وكما ان للعضد الخير الهدى درجات كلها منفية لله ، كذلك للعضد الشر الضلال دركات وأخرى ان تكون منفية عن الله ، من عضد الولاية الإلهية ، او الرسالة وما دونها من دعوة إلهية بمراتبها ، ثم وغير العضد المستحيل لله ايأ كان ، من أنصار الله فيما صح وامكن ، ليس إلا لمن هو على هدى ويهدي الى الحق « افمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون » (١٠ : ٣٥) ذلك اعتضاد مستحيل

لله على أية حال ولندرس منه حرمة اعتضاد المضلين فيما أمكن على أية حال كما لم يتخذ الإمام علي معاوية عضداً^(١).

إن المضل وإن في جهة من الجهات أو وجه من الوجهات - ما صدق عليه مضل - لا يُعتضد ، كما لم يعتضد الإمام الحسين (عليه السلام) من

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٨ ج ١٢٢ في أمالي شيخ الطائفة بإسناده إلى جيلة بن سحيم عن أبيه قال : لما بويح أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بلغه أن معاوية قد توقف عن اظهار البيعة له وقال : ان اقربي على الشام أو الأعمال التي ولانيها عثمان بايعته ، فجاء المغيرة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له : يا أمير المؤمنين ! ان معاوية من قد عرفت وقد ولاه الشام من كان قبلك ، قوله انت كيما يتسق عرى الأمور ثم اعزله إن بدا لك ، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : اتضمن لي عمري يا مغيرة فيما بين توليته إلى خلعه ؟ قال : لا ! قال : لا يسألني الله عز وجل عن توليته على رجلين من المسلمين ليلة سوداء ابداً « وما كنت متخذ المضلين عضداً » .

وفيه ١٢٤ في كتاب الخصال عن جابر الجعفي عن أبي جعفر (عليه السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه (عليه السلام) وقد ذكر معاوية بن حرب : واعجب العجب انه لما رأى ربي تبارك وتعالى قد رد إلى حقي في معدنه وانقطع طمعه في ان يصير في دين الله رابعاً وفي امانة حملناها حاكماً كر على العاص بن العاص فاستماله فمال إليه ثم اقبل به بعد ان اطعمه مصر وحرام عليه ان يأخذ من القمىء دون قسمته درهماً ، وحرام على الراعي ايصال درهم إليه فوق حقه ، فاقبل يحيط البلاد بالظلم ويطأهم بالغشم ، فمن تابعه ارضاه ومن خالفه نواه ، ثم توجه إلى ناكشاً علينا مغيراً في البلاد شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً ، والانباء تأتيني ، والاخبار تسرد علي بذلك فأتاني اعور ثقيف فأشار علي ان اوليه البلاد التي هو بها ، لأداريه بما اوليه منها ، وفي الذي أشار به الرأي في امر الدنيا لو وجدت عند الله عز وجل في توليه لي مخرجاً ، أو أصبت لنفسي في ذلك عذراً ، فاعملت الرأي في ذلك ، وشاورت من أثق بنصيحته الله عز وجل ورسوله (عليه السلام) ولي وللمؤمنين ، فكان رأيه في ابن آكلة الاكباد رأيي ينهاني عن توليته ، ويحذرنى ان ادخل في امر المسلمين يده ، ولم يكن الله ليراني ان اتخذ المضلين عضداً !

ثأبي عن نصرته بنفسه ، وعرض عليه فرسه وسيفه^(١) !

﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم
وجعلنا بينهم موبقاً ﴾^(٥٢) !

هنا يوم يتجاهلون أن شركاءهم لا يجيبونهم اذ يدعون ، وهناك يوم لا
يسطعون تجاهلهم .. « يوم يقول .. » موقف بائس كارث لا تحدي فيه
دعوى بلا برهان حيث الديان يطالبهم قائلاً : « نادوا شركائي الذين
زعمتم » وهل يقدرّون او يجسرون ألاّ ينادوهم لأنهم يعلمون انهم لا
يستجيبون ؟ كلاً ! « فدعوهم » اصناماً لا يعقلون « فلم يستجيبوا لهم » او
طواغيب يعقلون « فلم يستجيبوا لهم » نداء من زعموهم بدعائهم شركاء
حيث تبلى السرائر ولا تخبأ الجرائر ، ام صلحاء من ملائكة وانبياء ، امن
ذا وحاشاهم ان يستجيبوا نداء المشركين « فلم يستجيبوا لهم » اذ يعلم هؤلاء
وهؤلاء أنهم ما كانوا اياهم يعبدون فقد كانوا يعبدون اهواءهم « ثم نقول
للذين اشركوا مكانكم انتم وشركائكم فزيلنا بينهم وقال شركاءهم ما كنتم
إيانا تعبدون » (١٠ : ٢٨) « وجعلنا بينهم موبقاً » : مهلكاً يهلك رباطاً
بينهم كانوا يزعمون ويهلكهم بما كانوا يزعمون ، ويهلك غير المؤمنين من
شركائهم أوثاناً وطواغيب : « وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم
فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون » (٦ :

(٩٤) :

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٨ ج ١٢٣ في كتاب مقتل الحسين (عليه السلام) لابي مخنف
ان الحسين (عليه السلام) قام يتمشى الى عبد الله بن الحر الجعفي وهو في فسطاطه
حتى دخل عليه وسلم عليه ، فقام اليه ابن الحر واخلى له المجلس فجلس ودعاه الى
نصرته فقال عبيد الله بن الحر : والله ما خرجت من الكوفة الا مخافة ان تدخلها ، ولا
اقاقل معك ، ولو قاتلت لكنت أول مقتول ، ولكن هذا سيفي وفرسي فخذهما فاعرض
عنه بوجهه فقال : اذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا في مالك « وما كنت متخذ
المضلين عضداً » :

﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ (٥٣).

تري واذا « لم يجدوا عنها مصرفاً » وهم عارفون أنهم أهل النار وهم يرونها ، فكيف « ظنوا أنهم مواقعوها » ولم يستيقنوا ؟

ان واقعة النار وهي الوقوع من جانبي النار واهل النار ، هي دخولهم في النار واشتعال النار بهم « واولئك هم وقود النار » . . هذه الواقعة رغم أنها واقعة لهم دون شك ، ولكنهم حيث يترجون مهلة لهم بين رؤية النار ومواقعتها من ناحية ، ويرونها قريبين إليها من أخرى « فظنوا أنهم مواقعوها » أو أنهم على احتمال النجاة من النار ان يجدوا عنها مصرفاً كما يرجوا كل مجرم « فظنوا أنهم مواقعوها » حال أنهم « ولم يجدوا عنها مصرفاً » : صرفاً أو مكاناً أو زماناً للصرف عنها ، خلاف ما ظنوه من مصرف أياً كان وإيان .

فليس الظن هنا ولا في غيرها علماً كما العلم أياً كان ليس ظناً ، فاي منها ليس بفصيح ولا صحيح حتى اذا قرن بقريئة وليست في أي منها ! والحديث الوارد في ظن اليقين مطروح او مؤول (١).

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٦٩ ج ١٢٥ في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه وقد سأل رجل عما اشتبه عليه من الآيات وأما قوله « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها » يعني ايقنوا أنهم داخلوها ورواه في الاحتجاج مثله عنه (عليه السلام) وقد يكون بعض ظن الكافرين يقينا وذلك قوله « ورأى . . »

اقول : قد يعني كون ظنهم يقيناً ان ما يظنونه متيقن الوقوع وان كانوا يظنونه دون تيقن كما نرى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يرى ظنهم فني الدر المنشور عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ينصب الكافر يوم القيامة مقدار خمسين الف سنة ما لم يعمل في الدنيا وان الكافر ليرى جهنم ويظن انها مواقعته من مسيرة اربعين سنة والله اعلم »

﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ (٥٤).

« ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا

= اقول : فظن الواقعة من هذه المسيرة كما قلناه انهم يرونهم قريبين اليها من جهة ويعيدون من اخرى فظنوا قريبا « انهم واقعوها » فاسم الفاعل دليل الوقوع حالاً رغم استقبال الوقوع مسيرة اربعين سنة في مرآهم !

ففي ٦٢ موضعاً من القرآن ذكر فيها الظن بمختلف صيغه لا نجد ظناً بمعنى اليقين كما العلم واليقين لانجدهما في ساير القرآن بمعنى الظن ، ولماذا يستعمل كل في الآخر حقيقة وليس بها ام مجازاً ولا مجوز محسناً له ودون اية قرينة ، وحتى لو كانت ما كانت محسنة لمجازه ! .

ولو تأملوا فيها تأولوه بالعلم واليقين لرجعوا الى معنى الظن دون تأويل واليكم موارد من ٦٢ موضعاً : (١) « وذا النون اذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه » ٢١ : ٨٧ - ظن بربه خيراً أن لن يضيق عليه بذهابه عن قومه مغاضباً ، فلا موضع هنا لليقين ، حيث المقام محتمل الضيق جزاء ذهابه عن قومه ، ولكنه ظن لحسن ظنه بربه ، ف « الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء » (٤٨ : ٦) !

(١) « اني ظننت اني ملاق حسابه » ٦٩ : ٢٠ وهو ظن من اوتي كتابه بيمينه وملاقاته حسابه هو لقاء ثوابه ، وظنه تواضع منه وحسن ظن بربه ، فاليقين منه كان مطالبة حق ثابت .

(٢) « ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » ٧٥ : ٢٥ - فانها ترجو رجاء كاذباً ألا يفقرهم العذاب تنحياً عن فقاره ام عن اصل العذاب .

(٣) « الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم :: » (٢ : ٤٦) في وصف الخاشعين وهو ظن القلب حيث الخشوع فعل القلب ، وظن القلب يوازي يقين العقل ثم وفي ثالث اليقين « حق اليقين » يصبح يقيناً في القلب كما في العقل وقد يعنيه :

(٤) « قال الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » ٢ : ٢٤٩ ، افهل يكون صحيحاً او فصيحاً حمل الظن في هذه الخمس على اليقين دون قرينة الاعداء التامل ضمن ٦٢ موضعاً من القرآن العظيم ؟ :

كفوراً» (١٧ : ٨٩) (١) :

ومهما كان الإنسان أكثر شيء جدلاً فـ «قد صرفنا في هذا القرآن» لكل جدلٍ مثلاً يواصف المقصود بما يمثله ويقرّبه إلى الأفهام تحقيقاً للحق المرام -

فأية صورة من جدل الإنسان لا تقوى دحضاً لمثل القرآن حيث يضرب إلى أعماق البرهان ، فطرة وعقلاً وحساً حيث لا تبقى باقية ، مهما بغت جدال الانسان باغية ، فإين مَثَلٌ من جدل ، وهَطلٌ من وحل !

هنا نعرف مدى جدل الإنسان في حق أو باطل ، فهو «أكثر شيء جدلاً» من شيء الملائكة في حق ومن شيء الجن في حق أو باطل ، ومن شيء كائن يوازي الإنسان أيا كان !

إنسان الحق يجادل في التفتيش عن الحق وتحقيقه بكل مثل ، وإنسان الباطل يجادل في تهديم صرح الحق وتحقيق الباطل ، وأمثال القرآن تحلّق في أجواء الباطل لإبطاله ، وفي أجواء الحق لإحقاقه ، دحضاً لحجج الباطل دون ابقاء ، وقفراً لتحقيق الحق دون ابقاء .

إن مثل الحق صيغة سائغة للتصريف بمختلف الصيغ ، والله يصرف مثل الحق إلى كافة الصيغ السائغة لتنظيم جدل الإنسان فتقويم حقه وتحطيم باطله !

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ (٥٥) .

موانع مخيرة لا مسيرة تصدّ عن الايمان والاستغفار ، من أمنعها الترفّ والاستكبار : «وما منع الناس ان يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا

(١) مضى تفسيرها في الاسراء فلا يفصله هنا -

أبعث الله بشراً رسولاً (١٧ : ٩٤) سنة بثيثة تعيسة للأولين منهم والآخرين ، طيلة الرسالات الإلهية حتى الأخيرة ، في جدال بالتي هي أسوء : « أبعث الله بشراً رسولاً » « لو ما تأتينا بالملائكة » « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » وأضرابها من الأعذار اللا معقولة حيث تمنعهم أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم .

ومن هذه السنة مطالبة العذاب إن كانت الهدى حقاً : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » (٨ : ٣٢) .

ولكن هذه السنة أو تلك كائنة للمستكبرين ككل وهنا « إلا أن تأتيمهم » ومن اين تأتيمهم وكيف وهي لزام لهم عندهم ؟

قد تدخل في هذه السنة أو هي الأصل هنا ، سنة الاولين في عذاب الاستئصال : « فهل ينظرون إلا سنة الاولين » (٣٥ : ٤٣) فعدم اتيان عذاب الاستئصال ، أو عدم إتيانه قبلاً كان من موانع الايمان في زعمهم الى سائر موانعه ! وعند تحقق سنة الاولين عذاباً واقعاً لا يبقى مدعي الايمان حينه حتى يؤمن ! وعند رؤية العذاب قبلاً لا يفيد الايمان « فلما رأوا بأسناد قالوا آمنا فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده » (٤٠ : ٨٥) حيث خيل لهم أن مانعهم عن ايمانهم عدم ايقانهم ، فبرؤية البأس يوقنون فيؤمنون .

فاتيان سنة العذاب المستأصل أو العذاب قبلاً - ولما يأت - هو في عداد موانع الايمان والإستغفار ، موانع حمقاء ، ليست إلا اعداراً أسوء من حماقات الطغيان .

وليس إتيان سنة العذاب قبلاً أو استئصالاً لإثبات الحق من سنة الرسل وإنما هم يبشرون وينذرون حجاجاً وجدالاً بالتي هي أحسن دوغما

حاجة إلى عذاب أمّاذا ؟ ثم العذاب او الثواب من الله :

﴿ وما نرسل المرسلين إلّا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ﴾ (٥٦).

هذه الآية وكثيرة أمثالها تحصر رسالة المرسلين في التبشير والانذار وتحصرها عما سواها مما يتعنته الكفار من الاتيان بما يتطلّبون من آيات وما يتكلّبون خلاف الرسالة الإلهية من أصحاب الرسالات ، أمّا يتمناه الرسل فيتحسرون إذ لا ينالون من هدي من لا يهتدي ، فتتواتر الآيات قارعة متطلبات المتفتي ، متصدية لتسلية خواطر المرسلين « وما نرسل المرسلين إلّا مبشرين ومنذرين .. » ولكن :

« ويجادل الذين كفروا بالباطل .. » فقد يكون الجدل بالحق ، وبالتي هي أحسن تفتيشاً عن الحق وثبثاً للحق فواجب على أهل الحق ودعائه ، وقد يكون لتزييف الحق او تضعيفه ، بالباطل كان ام بالحق^(١)، وكلاهما جدال بالباطل لدحض الحق ، فحرام مطلق !

وأصل الدحض الزلّق ؛ فهم أولاء يجادلون بالباطل ليزلقوا الحق بعد ثباته ، ويزيلوه عن مستقراته ، فيكون كالكسير بعد قوته والمائل بعد استقامته « واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا » : آيات الرسل وآيات الرسالات ، وما أنذروا من مخلفات التكذيب بتلكم الآيات ، اتخذوها هزواً ، يجادلون بالباطل : طريقة باطلة لا تعني حقاً ، وإنما هزء ولعبة لتوهين الحق وتهوينه أمام العالمين وهم اظلم الظالمين .

(١) كأن يجادل ويستدل بقرآن ام سنة لئلا يبطل القرآن والسنة وهو من انحس الجدل ، وهو جدال بالباطل حيث الاستدلال لابطل الحق بمادة الحق وصورته ، بتحريف في كيفية الجدل هي من اضل المزال للاقدام .

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يدها
إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى
الهدى فلن يهتدوا إذا ابداً ﴾ (٥٧) :

هنالك قلوب مفتحة لاستقبال الحق ، تفتحها أصحابها فزادهم الله
تفتيحاً « والذين اهتدوا زادهم هدى » وهنا قلوب مقلوبة مغلقة عن تقبل
الحق بإعراض أصحابها عما ذكروا بآيات الرب وتناسي ما قدمت أيديهم
فزادهم الله إغلاقاً جزاءً وفاقاً « وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا
ابداً » !

فكنّ القلوب عن استقبال الحق ووقر الآذان عن إسماعه ووعيه هما بما
اعرضوا وقدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

هنالك تذكير بآيات الرب « ذكّر بآيات ربه » لكي يهتدوا « وإن تدعهم
إلى الهدى » ولكنهم بدل أن يتذكروا ويهتدوا ويشكروا نعمة ربهم بالذكرى
والهدى « فأعرض عنها » : عناداً وتعمداً « ونسي ما قدمت يدها » : نسيان
التناسي المتعمد ما قدمت يدها من إعراض عن آيات الرب وخلفياته ، لحد
قد يحسبه بحسن صنعاً : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

فهناك - إذا - الطامة الكبرى : « إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن
يفقهوه » أكنة بما قدموها « وفي آذانهم وقراً » بما وقروها فسيا وقروها ، اثنان
بائنين في وفاق عدداً وعدداً ، ثم النتيجة العاجلة « وإن تدعهم إلى الهدى
فلن يهتدوا إذا ابداً » ثم الآجلة هي أشد وانكى !

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤأخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب
بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴾ (٥٨) وتلك القرى اهلكناها لما
ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴿ (٥٩) .

« الغفور » هو معدن الغفر والستر ومنبعه، فهو اذاً « ذو الرحمة »
 الواسعة ما وجد لها سبيل ، لا الرحمة الفوضى التي هي زحمة على الصالحين
 وراحة للطالحين ! « لو » أنه « يواخذهم » هؤلاء البغاة الطغاة « بما كسبوا »
 اخذة عاجلة « لعجل لهم العذاب » في الاولى قبل الاخرى « بل »
 كضابطة عامة لا تستثنى « لهم موعد » لمواخذتهم بما كسبوا منذ الموت الى
 يوم يقوم الحساب « لن يجدوا من دونه مؤثلاً » : مخلصاً .

ثم وموعدهم لآخر لمن تمادى في الطغيان يوم الدنيا ومن امثاله « تلك
 القرى » الغاربة في عمق التاريخ « اهلكناهم لما ظلموا » حيث الظلم ليس
 ليُصبر عليه مهما كانت الدنيا دار عمل والآخره دار جزاء ، « وجعلنا
 لمهلكهم موعداً » بالسنة رسلهم ، فلا يغرنكم إمهال الله لهم فانه إملال ،
 وان موعدهم آت في مستقبل أم حال ، وسنة الله لا تتخلف على أية
 حال .

مركز تحقيق كاميون علوم اسلامی

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ
 أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
 فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ
 إِنَّا غَدَاةٌ نَأْكُلُ لَحْمَ الْبَقَرِ مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَسَبًا ﴿٥٩﴾ قَالَ

أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ
وَمَا أُنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى
ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ
رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى
هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ
إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى
مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا
تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْعًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ

إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا
نَسِيتُ وَلَا تَزِرْ وَفَظِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٨﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّى
إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي بِغَيْرِ نَفْسٍ
لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴿٧٩﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ
لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ
بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٨١﴾
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَابُوا
أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٨٢﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾
أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ
أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٨٤﴾

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا
زَكَّوْهُ وَاقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ
يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا
رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ^٤ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

حلقة منقطعة النظير في القرآن كله عن سيرة موسى (عليه السلام)
مع من تعلم هو منه شيئاً مما كان يجمله ، تقص مقاطع هامة من قصته ثم
السالكين سبيل الهدى ، المتعلمين على سبيل نجاة من الردى .

إنها ليست اسطورة مختلفة كما يهرفها الخارفون ، بل هي حقيقة تُقَصُّ
من عمق التاريخ كسائر القصص القرآنية ، تحمل أمثالا حقة من التربية
الإلهية ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد .

وترى إن موسى القصة هو ابن عمران ثالث اولى العزم من الرسل
الذين دارت عليهم الرضى ؟ وأولوا العزم هم المفضلون على من سواهم

من رسل وانبياء آمن ذا في زمنهم وحتى ولاية عزم اخرى علماً وعملاً لدنيا من عند ربنا ، فكيف يحمل موسى هذا نصباً في سفره حتى يلقي لنفسه معلماً بأمر الله : « عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ، قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ، قال إنك لن .. » ؟! ومعلمه هذا ايأ كان هو من أمته ومتعلمه في شرعته خضراً آمن ذا ؟ !

فهل هو - اذاً - موسى غير ابن عمران ، نبياً او ايأ كان ، بتعلم من معلّم له هو فوّه علماً وخبراً ؟ وقد ذكر موسى فيما ذكر (١٣٤) مرة يعنى به ابن عمران ، أفي هاتين المرتين اليتيمتين هنا يعنى به غيره دوغما أية قرينة ولا إشارة ؟ سبحانك اللهم إن هذا إلا خرافة جارفة جازفة لا صحيحة في ادب التعبير ولا فصيحة !^(١).

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٩ - اخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الاسماء والصفات من طريق سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس : ان نوحاً البكالي يزعم ان موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بني اسرائيل ؟ قال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا ابي بن كعب انه سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فمثل اي الناس اعلم ؟ فقال : انا ! فغضب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه فاوحى الله اليه ان لي عبداً يجمع البحرين هو اعلم منك قال موسى : يا رب كيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً تجعله في مكمل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم تأخذ حوتاً فجعله في مكمل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى اذا اتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكمل فخرج فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً - الى آخر القصة وقد نذكر مواضع منها حسب المناسبات - انشاء الله تعالى .

وفي نقل اخر بنفس السند عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) ان موسى بني اسرائيل سأل ربه فقال اي رب ان كان في عبادك احد اعلم مني فدلي عليه قال : نعم في عبادي من هو اعلم منك فنعت له مكانه ، فان له في لقية فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت =

إنه هنا موسى بن عمران كما في سائر القرآن ، وقد ابتلى بسفوره النَّصَب بسبب منه حيث خيَّل إليه أنه أعلم ممن سواه في علمي الظاهر والباطن ، فقد وكلَّ موسى بعلم لا يطيقه خضر كما وكلَّ خضر بعلم لا يطيقه موسى فليتعلم كلُّ ما عند الآخر ليكتمل بما عند الآخر كما وأصف بن برخيا وزير سليمان كان أعلم منه حيث آتاه عرش بلقيس قبل ان يرتد إليه طرفه ، وكان أصف من امته في الشريعة الظاهرة .

فعلم الشريعة الظاهرة وعلم الباطن قد يفترقان كما في موسى وخضر وسليمان وأصف وقد يجتمعان كما في أهل بيت الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) وكما قد ينتفيان كمن يجهلها وحياً أماذا ؟ .

وخضر هذا نبياً كان ام غير نبي هو كلقمان^(١) كان أعلم من موسى بن

مليح قد قيل اذا حسي هذا الحوت في مكان فصاحبك هنالك وقد ادركت حاجتك . .
وفي نور الثقلين ٣ : ٢٧ ج ١٢٨ في تفسير القمي وفي العياشي عن ابي عبد الله (عليه السلام) وكان سبب ذلك انه كلم الله موسى تكليماً وانزل عليه الألواح وفيها كما قال الله عز وجل « وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء » رجع موسى (عليه السلام) الى بني اسرائيل فصعد المنبر فاخبرهم ان الله عز وجل قد انزل عليه التوراة وكلمه وقال في نفسه : ما خلق الله خلقاً اعلم مني فاوحى الله عز وجل الى جبرئيل (عليه السلام) ادرك موسى قد هلك واعلمه ان عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجل اعلم منك فصر اليه وتعلم منه فنزل جبرئيل (عليه السلام) على موسى (عليه السلام) واخبره فذل موسى في نفسه وعلم انه اخطأ ودخله الرعب وقال لوصيه يوشع : ان الله عز وجل قد امرني ان اتبع رجلاً عند ملتقى البحرين واتعلم منه فزود يوشع حوتاً مملوحاً فلما خرجا وبلغا ذلك المكان وجدا رجلاً مستلقياً على قفاه فلم يعرفاه ، فاخرج موسى الحوت وغسله الماء ووضع على الصخرة ومضيا ونسيا الحوت وكان ذلك الماء ماء الحيوان فحس الحوت ودخل الماء : :

(١) تتضارب الروايات هنا في ان خضر كان نبياً او لم يكن نبياً ، ولا دلالة في هذه الآيات على نبوته ، ولا اثر عنه في ساير القرآن .

عمران في التأويل : « آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً .. » -
 « قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تسطع عليه صبراً !
 « وفوق كل ذي علم عليم » اللهم إلا علام الغيوب ، أو من علمه من
 علم ما كان وما يكون وما هو كائن كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله
 وسلم) وأهل بيته المعصومين !

ولان القرآن لا يذكر زمن هذه القصة ، أكانت في نبوة موسى قبل
 رسالته ؟ ام كانت في بداية رسالته ولما تنضج النضجة الكاملة بعلم
 التأويل ، ام في نبوته بولاية عزمة وفي قمته ، اذا فكل محتمل ، مع العلم
 أنه كان يوحى إليه ، وإلا فكيف عرف ذلك الموقف لمجمع البحرين و
 « قال ذلك ما كنا نبغ » ولا يأتي مثل هذا الغيب إلا بوحي ، اللهم إلا
 وحياً دون نبوة كما « أوحينا إلى أم موسى ان أرضعيه » فقد تكون هذه
 المصاحبة قبل نبوته ام فيها قبل رسالته ، ام فيها قبل ولاية عزمه ، ام وفي
 ولاية عزمه ، فعلى أية حال لا يبقى اشكال في كيف يتعلم موسى من
 خضر ؟ فان ولاية العزم في الشريعة الظاهرة لا تلزمها الولاية الباطنة مهما
 تجتمعان في البعض من أولياء العزم كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله
 وسلم) .

ولكن الرقابة على تكاليف الشريعة تنتج نورانية في الباطن فـ « من يتق
 الله يجعل له مخرجاً » و « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويجعل لكم نوراً
 تمشون به في الظلمات » فكيف إذا كانت رقابة العصمة في ولي العزم ،
 فليعلم موسى من علم الباطن ما يعلمه خضر وسواه بل واكثر واخرى ،
 فكيف يتطلب منه ان « تعلمني مما علمت رشداً » ؟

علّه لانه كما علم الشريعة قد يحصل بتحصيل ، وقد لا يحصل إلا
 بوحي ، فما كل متعلم محاول للحصول عليه بوحي إليه ، كذلك علم
 الباطن منه ما يحصل بتلك الرقابة ، ورقابة العصمة اخرى وأجري

للحصول عليه ولكن منه ما لا يحصل برقابة كالعالم الباطن اللدني ، فعلم الوحي الشريعة لا يستلزم ذلك العلم اللدني مهما يستلزم علماً دون ذلك ، فقد أوتي خضراً رحمة من عند الله وعلم علماً من لدن الله ليس من مخلفات وحي الشريعة والرقابة التامة عليه ! .

ولان ولاية العزم لزامها الحفاظ على حقوق الامة ومصالحها في الباطن كما الظاهر ، فليعلم موسى الرسول في ولايته العظيمة العزيمة ، تأويل قضايا كمثّل السفينة والغلام والجدار ، فقد يحتمل أن القصة كانت في بداية أمره ولما يعظم ويعزم امر رسالته القمة - والله اعلم حيث يجعل رسالته ! .

﴿ وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً ﴾ (٦١)

مجمع البحرين هو عنوان ملتقاء مع خضر كما أوحى إليه ولكن موسى لا يعرفه بتفصيل ، فلو كان عارفه فلماذا « أو أمضي حقباً » سنة الى ثمانين وكما جاوزة إذ نسيا حوتها ، فقد يعرف ان فيه ملتقاء وأنه في سفرته هذه يمر عليه ، كما تلمح له « مجمع البحرين » لا « مجمعا لبحرين » حتى تكون له مصاديق عدة ، وإنما قال كغير عارف بالملتقى « أو أمضي حقباً » لأن مجمع بينهما كان متسعاً شاسعاً قد يحتاج الوصول الى منتهاه الى ان يمضي حقباً واقله التأكيد على ذلك التصميم وإن لم يحتج وصوله الى مضي حقب ، فحق لموسى وفتهاه لما بلغا مجمع بينهما أن ينسيا حوتها حيث بهرهما بلوغ المجمع نظرة الملتقى ، وأما فتاه فزاد نسياناً على نسيان لما أويا الى الصخرة .

موسى الرسول ما كان يعرفه بعينه ، ولا أن القرآن عرفه لنا ، فما لنا من سبيل الى معرفته القطعية إلاّ حدسيات : أنه منطقة كانت مسرح

تاريخ بني اسرائيل بعد خروجهم من مصر كملتقى بحري الروم والفلزم أي الأبيض والأحمر ، ومجمعها في منطقة البحيرات المرة وبحيرة التسماح ، او مجمع خليجي العقبة والسويس الأحمر ، او ما ينتهي اليه بحر الروم من الجانب الشرقي وبحر الفرس من الجانب الغربي أمّاذا ؟

إلا ان مسرح تاريخ بني اسرائيل المعلوم لدى الجميع يختلف عن مسرح موسى الرسول (صلوات الله عليه) الخاص به، وهولا يعرفه بتفصيل ، والا فلماذا « أو أمضي حُقباً » ؟ فلتترك ما تركه القرآن ونسكت عما سكت الله عنه ، وقصارى ما يعرفه موسى من ذلك الملتقى أنه مجمع البحرين وفيه حياة الموق كما اتخذ غذائه الحوت فيه « سبيله في البحر سرباً .. وعجباً » قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارها قصصاً، فوجدنا ... »

وفتى موسى هو صاحبه الخاص فعله وصيه يوشع بن نون بفتوة صحبة الايمان^(١) وقد يكون « وإذ قال .. » معطوفاً على « عذوف يناسبه ام على قصة اصحاب الكهف ان يذكره الرسول ومن معه ذكرى ثانية للرحمة الخاصة الإلهية الحانية على عباده الأخصاء وهو من أخصهم ، فلتتواتر عليه رحمة من لدنه وعلم من لدنه ، ربوة على كل عالم ومرحوم !

و ﴿ لا أبرح ﴾ تصريحاً بملاحقة السير في هذه السفرة إذ يقصد من ورائها أمراً أُمر بالحصول عليه اعلاناً لفتاه في البداية استعداداً لوعثاء السفر ونصّبه ، مهما طال الزمن : « أو أمضي حُقباً » تعبيراً حاسماً عن

(١) الدر المنثور في الحديث السابق عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) « ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون .. وفي نور الثقلين ٣ : ٢٧٢ ج ١٣٠ عن ابي حمزة عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : كان وصي موسى بن عمران يوشع بن نون وهو فتاه الذي ذكره الله في كتابه .

تصميمه القاطع ، عارفاً صارماً بوصوله عاجلاً أو آجلاً الى ملتقاه في مجمع البحرين .

وهذه من السنن الحسنة مع رفقة السفر التابعين لك ان تعلن دون إسرار كالشمس في رابعة النهار مسيرك ومصيرك في سفرتك دون تحميل عليهم كما « قال موسى لفته لا أبرح حتى أبلغ » دون « لا نبرح حتى نبلغ .. » وليجعل صاحبه في سعة من أمره إن شاء لزمه عارفاً بالسفرة وان شاء تركه .

و « لا أبرح » يعني لا ازال سائراً مسافراً دوغماً انقطاع، مما يوحي باهمية بالغة للهدف المرام، اعداداً لفته إن شاء استعد على علم بهامة السفر ونصبه .

وليلغنه مدى تصميمه مقصداً وزمناً لأقصى حده كما أبلغه « أو امضي حقاً ! » و « مجمع البحرين » هنا هو الغاية القصوى من السفر النصب وليجمع فيه بين بحري العلم الظاهر من موسى والباطن من خضر ، او بحري الرسالة الظاهرة والولاية الباطنة ، وكما قال له خضر في ملتقاه « إني وكُلت بامر لا تُطيقه ووُكُلت بامر لا أُطيقه » .

فيا لمجمع البحرين من نبضات الحياة ومضاتها حيث الحوت المطبوخ الغذاء فيه يحيى^(١) واتخذ سبيله في البحر سرباً « وعجباً » وموسى الرسول يزداد حياة من علم الباطن إلى علمه الظاهر وكما الخضر يزداد علم الظاهر إلى علمه الباطن .

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً^(٢) فلما جاوزا قال لفته آتينا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً^(٣) قال أرايت إذ

(١) في الدر المنثور في حديثه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القصة : : فلما نزلوا ومس الحوت الماء حيي فاتخذ سبيله في البحر سرباً .. وكما في احاديث عدة ولا نجد في اي حديث أنه كان حياً .

أوتينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً^(١) قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً^(٢).

الحوت هو السمك العظيم ، والسَرَب هو المنحدر المسبل ذهاباً مخيراً ، لا سقوطاً أو انقفازاً مسيراً ، أترى أن حوتها الغذاء أخذاه من مجمع بينهما ؟ و « نسيا حوتها » عند بلوغ المجمع ! فقد كان معها قبل بلوغه ! أو أنه كان حياً معها في سفرتها ليطبخاه إذا جاعا ؟ ولزامه ان يأخذها معها ماءً بقدر يكفيه بقية الحياة ، وهذا غريب في سفرة كهذه النصب ، جلاً لكثير الماء ليعيش فيه الحوت : السمك العظيم ولماذا هذا التعب الشغب نصباً على نصب ؟ !

حوتها هذا كان غداءهما فليكن مطبوخاً جاهزاً لغذائهما حيث السفرة لا تسمح للطبخة ولا سيما تلك الساذجة الناصبة ، فقد كان ميتاً مطبوخاً وكما في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣)

ثم « واتخذ سبيله في البحر عجباً » تصرّيحة بخيائه ، فلتكن بعد موته ، إذ لا عجب لحيوان البحر أن يتخذ سبيله في البحر سرباً منحدرأً إليه ، بل وتركه عجباً^(٤).

(١) اتفقت الاحاديث التي تنقل القصة ان الحوت حي عند الصخرة واتخذ سبيله في البحر سرباً وعجباً ، ولكنه تختلف في انه كان مشوباً او مملوحاً وفي مرسله القمي وروايات الشيخين والنسائي والترمذي وغيرهم انه كانت عند الصخرة عين الحياة وفي رواية مسلم ان الماء كان ماء الحياة من شرب منه خلّد ولا يقاربه شيء ميت الا حي فلما نزلا ومس الحوت الماء حي ، وفي بعضها ان فتي موسى توضأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحي ، وفي ثالث انه شرب منه الفتى ولم يكن له ذلك فاخذه الخضر وطابقه في سفينة وتركها في البحر فهو بين امواجها حتى تقوم الساعة ، وفي رابع انه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر ثم الباقية خالية من ذكرها -
ثم في رواية الاحتجاج وغيرها ان الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً =

ترى وماذا كان يدري موسى من الملتقى وماذا لا يدري ؟ « حتى أبلغ مجمع البحرين » دليل أنه كان يدري ان مكاناً من المجمع هو الملتقى ، ولكنه اين هو الذي يحى فيه ميت وما هو ؟ لا يدري أنه حوته وإلا لم ينسه ! ولم يطلبه بعد ذكره غداءه !

فقد « قال ذلك ما كنا نبغ » فما كان يدري ان الملتقى هو المجمع الذي بلغاه ، وإلا لما تجاوزه ! ولا أن الذي فيه يحى هو حوتها ، وإلا لماذا اتخذه غداءهما ، ولماذا نسيه ؟ معلومان ومجهولان لموسى ، وفتاه يجهل ثالثاً هو أن حياة ميت فيه آية انه الملتقى المبتغى وإلا لما نسيه إذ رأى الحوت « اتخذ سبيله في البحر عجباً » ! .

« فلما بلغا مجمع بينهما » : بين البحرين وبين موسى وخضر ، وما درى موسى منه ملتقاه وإلا لما تجاوزه « نسيا حوتها » موسى وفتاه ، نسيان موسى كان بطبيعة الحال حيث السالك يركز على الغاية الملتقى فينسى الغداء أماذا من وسائل اللقاء ، ولكننا الفتى لماذا ينسى وقد حمل جملة والحفاظ عليه ؟ علّه لانه يتابع مسيرة موسى فعلى هامشه ينسى أمام الغاية غيرها ! وهذا النسيان المشترك كان عند بلوغهما المجمع .

ثم هنالك نسيان ثان يخص فتاه لما أويا الصخرة « فاني نسيت

= فامسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، وفي بعض ان موسى لما رجع ابصر اثر الحوت فاخذ اثر الحوت بمشيان على الماء حتى انتهيا الى جزيرة من جزائر العرب ، وفي حديث الطبري عن ابن عباس فرجع موسى حتى اى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر الا يمس حتى يكون صخرة ، وفي اكثرها ان موسى لقي الخضر عند الصخرة ، وفي بعضها انه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر ، وفي بعضها انه وجده على سطح الماء جالساً او متكئاً .

الحوت : « أنسياناً مع موسى فهناك نسيا وهنا نسيت؟ فهو إذا نسيان ثان تدخل فيه الشيطان يخص فتاه : « فاني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن اذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً » .. هنا « واتخذ سبيله .. » عطفاً على نسيانه ، وهناك « فاتخذ سبيله .. » تفریعاً على نسيانها ، فبينها فرق قد لا يكون إلا أن النسيان الأول أغفلها عن كونه معها « فاتخذ سبيله .. » والنسيان الثاني هو بعد ذكر « واتخذ سبيله في البحر عجباً » فالواو إذا للحال ، أنني نسيته حال أنه اتخذ سبيله في البحر عجباً ، نسيت أن اذكره بعد ذلك واذكرک ، وعله لأنه ما اهمته غداثها رغم ذلك العجب أمام غايتها القصوى ، فقد ينسى الطريق والرفيق فضلاً عن الغداء أماذا :

« فلما .. نسيا حوتها » استغفلاً عنه إذ لم يكن محوراً في تلك السفرة « فاتخذ سبيله في البحر سرباً » لم يدره موسى وذراه فتاه وكما اخبر « واتخذ سبيله في البحر عجباً » وترى ما هي سبيله السرب ؟ « قال ارأيت إذ أرينا الى الصخرة فإني نسيت الحوت » فمن الصخرة العالية منحدرٌ يتخذ إليه سبيلٌ سرب فالسبيل هو الطريق المنحدر ، والسرب هنا انحدار ثان يزيد السبيل سُبلة وانحداراً .

أو هي عين الحياة المنحدرة من الصخرة الى البحر^(١) وقد حيي بها

(١) في عديد من الروايات انه عين الحياة كما في نور الثقلين ٣ : ٢٧٢ ح ١٣١ في عيون الاخبار عن الرضا (عليه السلام) قال قال علي (عليه السلام) وقد سأله بعض اليهود عن مسائل - وانتم تقولون ان أول عين نبعت على وجه الارض العين التي ببيت المقدس وكذبتم ، هي عين الحياة التي غسل يوشع بن نون السمكة وهي العين التي شرب منها الخضر (عليه السلام) ، وليس يشرب منها احد الا حيي ؟ قال : صدقت والله انه لبخط هارون واملاء موسى ورواه مثله في كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى ابي الطفيل عامر بن واثلة عن علي (عليه السلام) وفيه ايضاً باسناده الى ابراهيم بن يحيى المدائني عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه : عليه السلام) ان علياً .. وفيه ايضاً باسناده الى الحكم بن مسكين عن صالح عن =

الحوت فاتخذها سبيلاً ؟ ام ساقية اخرى وقد حيي بغيرها ؟ ام قفزة من منحدره ام لزقة فانزلاقاً الى البحر وبينه وبينه برٌّ امّاذاً ؟ على أية حال « فاتخذ سبيله في البحر سرباً عجياً » !

فاتخاذ سبيل سرب عجب ذو دلالات على أن حوتها الغداء الشواء أصبح حياً على الصخرة على غفلة لموسى وذكرٍ لفتاه ، ومن ثم تناساه فنسي ان يخبر موسى بأمره :

« فلما جاوزا » بداية المجمع والسرب العجب « قال » موسى « لفتاه آتنا غداءنا » الحوت « لقد » تأكيداً ذا بعدين « لقينا من سفرنا هذا نصباً » فلتتغذّ لكي نستجدّ طاقة بدنية نواصل بها سفرنا ، مما يدل أنه كان متغافلاً جوعهما مع نسيان حوتها ، ثم النصّب ذكره غداءهما الحوت فطلبه من فتاه ، فانه التعب المنسوب تأتياً في مُداه :

والغداء هي غداء الغداة ، فلعلهما جاوزا مجمع بينهما ليلاً ، ولم يعتبره موسى ملتقاه اذ لم ير ما يريه انه هو ملتقاه حتى أخبره به فتاه :

« قال أرأيت إذ أوينا الى الصخرة » المظلة على البحر ، فأتت رأيت إذ أوينا إليها تخفيفاً عن وعشاء السفر ، او وانتظاراً علّه هو الملتقى « فاني نسيت الحوت » ماذا حصل له وماذا فعل ، بعدما نسيناه مع بعض « وما أنسانيه إلا الشيطان ان اذكره » واتخذ : حال انه « اتخذ سبيله في البحر عجياً » نسيان عجب بعدما رأيته اتخذ سبيله في البحر عجياً حيث الحوت الميت المطبوخ يمشي في سبيله السرب إلى البحر ! ولم يكن نسياناً مني تغافلاً عن أمره العجب وانما ذلك الشيطان انسانيه ان اذكره فاذكرك بسربه العجب .

= جعفر بن محمد (عليه السلام) عن علي (عليه السلام) اقول : على اختلاف في بعض الالفاظ واتفاق في عين الحياة :

أفترى الشيطان له سبيل إلى الأنبياء ، وكان فتاه يوشع منهم ؟ علّه لم يكن حينذاك نبياً ، فقد كان وصياً ثم بعد موت موسى أصبح نبياً وصياً !
 ام بقى وصياً دون نبوة ؟^(١)

أم إن هكذا نسيان ليس في عداد نسيان ذكر الرب حتى يُنحى عنه الشيطان ، فانما هو حسب الظاهر نسيان الغداء أولاً ومن ثم نسيان السرب العجب ، وقد يبرّر ان أمام الهدف الإمام وهو التحري عن ملتقى البحرين ، ولم يكن يدري فتاه أن من آيات ملتقاه حياة ميت او علّها هي منها حتى يتذاكر الخوت ، رغم أن سربه العجب هو آية الملتقى :

﴿ قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾^(٦٤): ذلك البعيد المدى العظيم المحتوى ، الملتقى المدلول عليه بآية السرب العجب « ما كنا طول سفرنا » نبغ » هـ - فلنرجع الى مجمع بينهما من نفس الطريق الذي جئنا « فارتدا » رجوعاً إليه « على آثارهما » آثار الأقدام في مشيتهما « قصصاً » : تتبّعاً لتلكم الآثار كيلا يخطئها

﴿ فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾^(٦٥).

فيا لو جَد الوجدان من شَعَف وشَعَف ، ما يُنسي نَصَب السفر ووعثاءه ، وكيف عرف موسى خضره ؟ طبعاً كما عُرِف بوحى الله مكانه ، كذلك عُرِف مكانته والمؤمن ينظر بنور الله !

تعريف إلهي لطيف بخضر في زوايا ثلاث ١ - « عبداً من عبادنا »
 ٢ - « آتيناه رحمة من عندنا » - ٣ - « وعلمناه من لدنا علماً » !
 هنالك عبودية في كمالها دون أكملها - فانه لا أول العابدين - فرحمة على

(١) لا دلالة في القرآن ولا في السنة واضحة ان فنى موسى كان حينذاك نبياً :

صاحبها : « من عندنا » خاصة ، ثم « من لدنا علماً » دون تعلم خلقي ، إنما علماً لدنياً بوحىٍ أو إلهام ليس في نطاق وحي النبوة لزماً ، إلا الأنبياء الأولياء الذين جمعوا علمي الوحي ظاهراً وباطناً كالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) واضربه في الوحي القمة أو إلهامه^(١).

وتلك الرحمة ليست هي العلم لقرنها به ، فهي من مدارج الرحمة المعرفية والمعارج العملية ، فلقد كانت عبودية ذات جناحين ، لا علماً دون معرفة ولا معرفة دون علم ، مهما كان علم ظاهر الشريعة تقليدياً عن رسول كما كان هو يقلد موسى الرسول (عليه السلام) ، رغم أنه معلمه من علم الباطن وكما قال : « إني وكلتُ بعلم لا تطيقه ووكلت بعلم لا أطيعه »^(٢) وقال « إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت وأنت على علم من علم الله لا أعلمه »^(٣).

وقد يكون تنكير « عبداً » هنا للتفخيم كما الإضافة « من عبادنا » للإفاضة والتعظيم .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٧٥ ج ١٤٢ في اصول الكافي بإسناده إلى سيف التمار قال : كنا مع أبي عبد الله (عليه السلام) جماعة من الشيعة في الحجر فقال (عليه السلام) علينا عين ، فأنفتنا بمنة ويسرة فلم نر أحداً فقلنا : ليس علينا عين فقال : ورب الكعبة - ثلاث مرات - لو كنت بين موسى وخضر لاخبرتهما إني أعلم منهما وإنبأتهما بما ليس في أيديهما لأن موسى والخضر (عليهما السلام) أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة وقد ورثناه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وراثته .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢٨١ ج ١٥٤ في كتاب علل الشرايع عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال له الخضر « انك لن تستطيع معي صبراً » لاني وكلت . . وفي البحار ١٣ : ٢٧٩ بدل بعلم « بأمر » .

(٣) المصدر

وخضر هذا تتواتر في شأنه الروايات الإسلامية وسواها^(١) وأنه باق الى قيام المهدي (صلوات الله عليه) ولا تنافي حياته لهذا الحد اصل من الأصول الإسلامية، اللهم إلا اذا كان نبياً، إلا بانقطاع الوحي عنه يوم نبيء الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث لا نبوة بعد نبوته ولا وحي بعد وحيه الى يوم القيامة، وكما في المسيح (عليه السلام) وهو في السماء حيث ينزل زمن المهدي (صلوات الله عليه)، فالخضر والمسيح وسائر المكلفين أياً كانوا وأيان، إنهم منذ بزوغ الرسالة المحمدية أصبحوا من امته وتحت لوائه، وهل عزل المسيح عن رسالته بعد نصبه؟ إنه انعزال عن امته وليس عزلاً! ثم لا بأس بعزل ليس فيه مهانه!

﴿ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علّمت رشداً ﴾^(٢).

عند اللقاء الحبيب سلم عليه موسى (عليه السلام) فقال الخضر: وأنى بارضك السلام؟ قال: أنا موسى! قال: موسى بني اسرائيل؟ قال: نعم - اتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، يا موسى! اني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه انت وانت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه^(٣)، إني وكلت بأمر لا تطيقه

(١) هنالك في مختلف النقل والتاريخ قبيلات ومقالات حول خضر لا يهمننا ذكرها الا ما نبه عليه القرآن في مثلث التعريف بـ «عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً»!

وقد رويت القصة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في البدر المشور بعدة طرق من ارباب الجوامع كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن ابن عباس عن ابي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

(٢) من حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد ذكرنا شطرات منها .

ووكلت بأمر لا اطيعه»^(١):

موسى الرسول (عليه السلام) بعدما يتحمل أعباء السفر ووعثاءه ليلقى الخضر ، تراه كيف يحترمه ويتأدب عنده ، وهو رسول إليه في الشرعة الإلهية ، وولي عليه ، وان كان الخضر علم من علم التأويل ما لم يعلمه موسى فليكونا - لاقول تقدير - على سواء !

ولكنه يعلمنا أن المتعلم اياً كان عليه في سبيل التعلم من أي كان ان يحترمه ويتأدب لديه : « هل أتبعك .. » ؟ دون ان تاخذه طنطنة الأعلمية الرسالية فيقول : « إتبعني آخذ عنك مما عندك » او يتنزل شيئاً : « أتبعك .. » ولكنه قال : « هل أتبعك .. » استيذاناً منه في اتباعه تعلماً ، حال أنه رسول الله ، وقد أمره الله ان يتعلم مما عنده !

« أتبعك » اتباعاً لامرك في سبيل التعلم ، ومتابعة لك اينما تذهب ، دونما استقلال أمامك فاستغلالك لصالح التعلم ، وانما « أتبعك » إن تسمح لي ، تواضعاً مضاعفاً أمام المعلم مهما كان المتعلم إمامه في شرعته وهو يقتضي كونه متبوعاً او مساوياً ومستقلاً بجنبه لا تابعاً ، ولكنه في مقام التعلم يتأدب هكذا !

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٧ ح ١٢٨ - القمي حدثني محمد بن علي بن هلال عن يونس قال : اختلف يونس وهشام ابن ابراهيم في العالم الذي اتاه موسى (عليه السلام) ايها كما اعلم وهل يجوز ان يكون على موسى حجة في وقته وهو حجة الله عز وجل على خلقه ؟ فقال قاسم الصيقل : فكتبوا الى ابي الحسن الرضا (عليه السلام) يسألونه عن ذلك فكتب في الجواب اتي موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر فاما جالساً واما متكئاً فسلم عليه موسى فانكر السلام اذ كان بارض ليس فيها سلام قال : من انت ؟ قال : انا موسى بن عمران - قال : انت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليماً ؟ قال : نعم - قال : فما حاجتك ؟ قال : جئت لتعلمني مما علمت رشداً ، قال : اتي وكنيت بأمر لا تطيقه ووكلت بأمر لا اطيعه ...

و « مما علمت » دون « ما علمت » تواضع آخر أنني لا أعني من هذه المتابعة ان اصبح مثلك وإنما « مما علمت » أن تعلمني بعض ما علّمت ! .

ثم وليس ذلك الإتياع تقليداً أعمى وإنما « على ان تعلّمين مما علّمت رشداً » :

رشداً في اتباعك ورشداً فيما تعلمني ورشداً مما علّمت، فاتباع المعلم وتعليم الرشيد في أسلوب غير رشيدة ، غير سديد ، كتعليم الضلال في أسلوب رشيدة ، فانه ضلال بعيد حيث يخيّل الى المتعلم أنه رشيد..

فعلى المتعلم أن يكون على بصيرة للحصول على رشدي التعلم بعد رشد الإتياع : « فلينظر الإنسان إلى طعامه » : اي الى علمه الذي يأخذه عن يأخذه وكيف يأخذه ؟ .

وبهذا الأدب اللائق بنبي يستفهم دون جزم ويطلب العلم الراشد من المعلم الراشد ، باتباع راشد فانه ليس ليستسلم أمام ذلك التعليم ما لم توافق مواده موازين العقل والشرعة الإلهية ! لذلك ينبه العبد الصالح بما يؤول أمره ، لاختلاف ميزاني الظاهر عند المتعلم ، والباطن عند المعلم .

﴿ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾^(٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴿^(٦٨)

إحالة في تأكيدني : « إن - لن » ان يصبر معه صبراً ، ولا في مادة واحدة ، حيث النكرة في نطاق النفي المؤكد ولا سيما المحيل ، إنها تفيد الإستغراق الحاسم الجاسم .

ولكي لا تكون هذه البداية مزعجة غير مترقبة من صالح الى نبي ، وبعد هذه الآداب ، والحرمان المسبقة ، يعذره المعلم في « لن تستطيع » بـ « وكيف تصبر » على ما ترى من خلاف الشرعة وهو خلاف العدالة

والعصمة أن يسكت صاحب الرسالة عن التنديد بأمر إمر، أو نُكر، أو خلاف العقل، حيث التقرير زاوية من مثلث السنة! يعذره عن أن يصبر «على ما لم تحط به خبراً» وحيطة الخبر لزأم عقلي وشرعي فيها يخالف ظاهره الشرع أو العقل، لكي يتغلب باطنه الأمين على ظاهره غير الأمين فيصبر على إمر الظاهر لأمر الباطن، والصبر ما أوله مرّ وآخره حلوفمن دخله من أواخره فقد دخل ومن دخله من أوائله فقد خرج ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر. ^(١) وموسى يعرف قدر الصبر وموقعه فلا يصبر عما منه الصبر وهو عصيان في ظاهر الشرعة وحتى في احتمال أن آخره حلوف!

فالشرعة الإلهية أعلى محتدأً وأوجب رعاية وحرمة من حرمة المعلم أيّا كان، إذا تناحرنا، فلا طاعة لمخلوق - ولا رعاية - في معصية الخالق، وكما لا معصية لمخلوق في طاعة الخالق، وإنما هي طاعة الله لا سواء، واحاطة الخبر فريضة عادلة في كل فعل أو ترك ان يعرف وجهه في شرعة الله فيؤق به أو يترك، بوحى أو اجتهاد أو تقليد صالح، وليس موسى بمن يقلد خضراً فانما يمشي ويمضي بوحى، ثم التقليد الصالح قد يجابه بما يجير العقل فسؤالاً وجواباً مقنعاً أم تركاً واعتراضاً محتاطاً!

ومهما يكفي خبراً ما في فعل أو ترك لا يرفضه العقل، ويفرضه ظاهر الشرع، فلا يكفي فيما يرفضه حكم العقل وظاهر الشرع إلا احاطة الخبر لحدّ يحوله الى مسموح أو مفروض!

نرى موسى حينما يواجهه ويجابه بـ «لن تستطع» حيث تحيل أهليته

(١) مصباح الشريعة عن الامام الصادق (عليه السلام) واستدل في ختامه بالآية قال الله تعالى في قصة موسى والخضر (عليهما السلام) «وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً!»

لذلك التعلم ، لا يتبرّم وينزعج فيترك تعلماً فيه مهانة ، بل يجيبه بما يؤهله « إن شاء الله » ويعذره « ان شاء الله » فيمضي في هذه الرحلة الدراسية على ضوء « ان شاء الله » تعليم صعب وتعلم صعب على عبيدين من الرعيل الأعلى في علم الظاهر والباطن .

﴿ قال ستجدني ان شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ (٦٩).

يقولها موسى ولا يدري أنه يواجه أمراً إمرأ أو نكراً أو خلاف العقل !
وحيث الصبر - وبمشية الله في هكذا أمر - لا يترجّاه مؤمن فضلاً عن موسى الرسول (عليه السلام) .

و « ان شاء الله » هنا هي مشية الله تشريعاً فتكويناً فـ « ستجدني .. صابراً ولا أعصي لك أمراً » مهماً أبهم أمره ، ما وافق شرعة الله ثم شاءه الله توفيقاً لما أشاءه .

وهذه تكفل حتمية الصبر من موسى (ع) شرط « ان شاء الله » في بُعديها ، فلا خلف في وعده ولا تخلف عن مشيئة الله إذ لم يصبر على أمر إمرأ أو نكر ، إذ لا يشاءه الله في شرعة ظاهرة ، ولا تكويناً بعد ان لا يصبر موسى حسب تكليفه الظاهر .

اجل « ولا أعصي لك أمراً » إلّا ان يكون أمرك عصياناً لله وإمرأ ، فقد تمت شروط وأداب التعلم من موسى (عليه السلام) وثم ماذا من الخضر ؟

﴿ قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ (٧٠)

ينبّه أن أمره يثير السؤال العاجل وقد لا يصبر عنه إلى أجل ، فلذلك يشترط عليه لآخر المطاف ترك العجال في السؤال ويربطه بمتابعته التي هي أول المطاف في هذا المجال ! « فان اتبعني » دون ان يفرض عليه عدم السؤال إلا بشرط اتباعه المطلق في رحلته المدرسية ، الذي لزامه التسليم

أمام المعلم كما يراه لصالح التعليم ، تأدباً أمام موسى الرسول (عليه السلام) كما تأدب هو أمامه مع أنه إمامه في الشرعة الإلهية !

إذاً فلا سؤال فيما يأتي من امره كيفما كان « حتى أحدث » دون سؤال « لك منه ذكراً » هو اجابة عن كل سؤال على أية حال في هذه الرحلة العلمية لإحداثاً منه وابتداءً دون سؤال ! ، ويا لها من صعوبة ان موسى الرسول المحيط خبراً بكل ما يفعل او يقول ، او يؤتى أمامه عن اي فاعل او قائل ، أن يسكت طول هذه الرحلة عن مجاهيل الأمر ، على احتمال ان فيه نكراً او إمرأ !

لكنه مأمور لمواصلة هذه الرحلة ، وهكذا مأمور معذور إلا فيما لا يُعذر ، فعليه التحمل ما لم يكن جمللاً لا يحمله الشرع والعقل ، فيرضى موسى محتاطاً في صبره وعدم عصيانه وسؤاله بـ « إن شاء الله » رقابة تامة على ظاهر الشرعة ، وعلى ضوئها ما يحدث في رحلته مواصلة لها ، وقد يتناسى لرعاية الشرعة لزوم صبره وإن كان على أمر إمر ، وخضر يستأجله في تأويل ما لم يحيط به خبراً ، ولكنها التعود على الالتزام بظاهر الشرع ولرسول معصوم لا يمهله ان يصبر حيث يراه إهمالاً للشرع ! .

﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ ﴾ (٧١)

« فانطلقا » هنا دون « انطلقوا » دليل ان موسى ترك فتاه في الملتقى ، ولأن الإنطلاق هو التخلي عن وثاق كما الطلاق تخلية عن وثاق ، فقد كان وثاق حتى الملتقى فمن هناك الانطلاق ، وثاق موسى بفتاه ، ووثاقه بعلم الظاهر ، ثم وثاق خضر بوحدته وبعلم الباطن ، « فانطلقا » يعني لكل انطلاقين والى مجمع بحري الظاهر والباطن :

« .. حتى إذا ركبا في السفينة » .. « السفينة » معرفة تلمح أنها

بخصوصها كانت مقصودة للخضر كأول المطاف في هذه الرحلة ، فلم يقل « سفينة » كما وأن « إذا » تؤيد هذه المعرفة المستبقة عن السفينة ، فهما إذاً في هذه الرحلة المدرسية « في السفينة » يتابعان واجب التعليم والتعلم ! -

« خرقها » ! مسافر باجرة ام دون اجرة^(١) ولا يملك السفينة وحتى لو ملكها « خرقها » ؟ أمرٌ أمرٌ : داهية عظيمة ، تستقبل موسى بداية الأمر ! لن يستطيع موسى امامه صبراً فيبتدر في اعتراض : « قال أخرقتها لتغرق أهلها » كغاية يخلفها خرقها وان لم يقصد به غرقها ولكنه حسب العادة يعرف غرقها بخرقها ! « لقد جئت شيئاً إمرأ » حكم على أمره بإمره في تأكيدين : « لقد » حيث الإمر وهو الداهية العظيمة هناك ، كان إمرأ من جهات عدة اعظمها الذي ذكره كغاية كانها المقصودة فقط : « لتغرق أهلها » وفيه ضمن أهلها غرقها ، وفيه - لاقل تقدير - تصرف ضار في مال الغير ، فلان تعريض الغير ولا سيما جماعة الى الخطر انكر من تعريض النفس كما هو انكر من اتلاف المال ، لا يأتي هنا من إمر أمره إلا « لتغرق أهلها » حيث الخرق كان لحد الغرق .

(١) الدر المنثور في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القصة « فانطلقا بمشيان على ساحل البحر فمرت بهم سفينة فكلموهم فعرّفوا الخضر فحملوه بغير نول فلما ركبا السفينة فلم يفجأه الا والخضر وقد قلع لوحاً من الواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عهدت الى سفيتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد شئنا إمرأ ... قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كانت الاولى من موسى نسياناً قال وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله الامثل نقص هذا العصفور من هذا البحر . :

وفي نور الثقلين ٣ : ٢٧ ح ١٥١ في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن سيابة عن ابي عبد الله (عليه السلام) وساق القصة الى قوله (عليه السلام) فانطلقا حتى انتهيا الى معبر (سفينة) فلما نظر اليهم اهل المعبر قالوا : والله لا نأخذ من هؤلاء اجراً اليوم فحمل عليهم فلما ذهب السفينة وكثرت الماء خرقها ...

لقد كان موسى (عليه السلام) هنا معذوراً في اعتراضه بلفظة قاسية ، ويعذره موقفه الرسالي من ناحية ، وعله لم يدر ان خرق السفينة هو من موارد تعليمه ومواده من اخرى ، حيث تعود التعلم بوحى الشرعة قولاً ، وأما ان عملاً ما كهذا داخل في التعليم فلم يتعوده رسالياً ، ففوجاً هنا بالخرق الغرق فانبرى غضبانياً أَيْسافاً « أخرجتها .. إمراً » ؟!

سفينة تحملها بركاب لها وهم وسط اللجة تلعب بها في جزرها ومدها ، ثم يأتي عبد صالح في رحلة تعليمية لموسى الرسول (عليه السلام) فيخرقها ليغرقها واهلها ، انها طامة كبرى ودامية عظمى تغطي على موقف المعلم وما وعده موسى « ستجدني إن شاء الله صابراً » ولكن كيف يشاء الله صبراً في مثل هذه الداهية ، فحق له أن ينسى ما وعده وإن لم يستثن وقد استثنى ! ثم العبد الصالح لا يزيد على ما بدء .

﴿ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ (٧٢) : وهذه أول خطوة في رحلتنا ما صبرت معها ، وكما قلت لك بداية الرحلة ، وما هي القائدة في تعليم لا تتوفر شروطه ولن : ؟! إذا فتركني وشأنك وشأني ، ام حاول لإحالة ظاهر الحال الأمر إلى باطن الامر بصبر هو مفتاح الفرج !

﴿ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسراً ﴾ (٧٣) فاما نسيت وعدك دون تقصير ، بل نسيان او تناس واجب بظاهر الشرع فترك ذلك النسيان عصيان ، فلا تؤاخذني ! « ولا ترهقني » : لا تغشني بقهر في تكليف التكلف ألا أنسى ومن حقي أن انسى أو أتناسى « لا ترهقني من امري » تعلماً في هذه الرحلة العسيرة « عسراً » على عسرها ، فان لم اصبر أنا ولن .. فاصبر أنت إذا ، ولكي نُنهي أمرنا على إمره ، فلا تزد إمراً على إمر وعسراً على عسر ! والتكليف في عسر مرفوض في ظاهر الشرع فـ « لا ترهقني من امري عسراً » !

و « امري » يشمل امري النسيان والرحلة المدرسية ، فلا تندد بي إذ نسيت ولا تترك تعليمي بعدما نسيت .

نرى هنالك اجتمعت المشيئتان التكوينية والتشريعية التي تبتتها أن لم يصبر على أمره الأمر ، وينهاه موسى عن موآخذته بما نسي وإرهاقه من أمره النسيان والتعليم عسراً ، ولو كان نسيانه محظوراً لكانت الموآخذة عليه حقاً في ظاهر الشرع ، فلماذا ينهاه موسى عن موآخذة وارهاق وليس لينهى إلا حسب الشرع ، كما لم يصبر حسب الشرع !

وترى « اخرقتها لتفرق .. » لم تكن فرية على الخضر وحكماً على أمره بأمره ، وبجمال الإحتمال لخلية أمره واقع حيث التنبيه المسبق « إنك لن تستطيع معي صبراً .. ولا تسألن .. » ؟

الجواب انه سؤال استفهام وليس حكماً ، ولم تكن المؤآخذة « ألم اقل .. » إلا على سؤاله لا فريته ، و « لقد جئت شيئاً إمرأ » حكم على فرض عدم الجواب المقنع ، أو حكم بظاهر الشرع دون باطنه فلا محذور فيه ، وقد أعذره الخضر !

﴿ فانطلقا حتى اذا لقيا غلاماً فقتله قال اقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ (٧٤).

« فانطلقا » إنطلاقة ثانية في مواصلة الرحلة المدرسية ، انطلق موسى تخلياً وتخلصاً عن وثاق الوعد : النسيان الإعتراض في سؤال التنديد ، وانطلق الخضر عن المؤآخذة بما نسي موسى (عليه السلام) إرهاقه العسر « حتى إذا » وقعا في وثاق ثان « لقيا غلاماً فقتله » : قتله فور لقاءه دون حوار ، وحسب الظاهر دون معرفة مسبقة عن حاله ، وهذا أمر وأدهى من خرق السفينة^(١) فانه يخلف الغرق وقد يمنعه مانع من سد

(١) الدر المنثور في حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن القصة ثم خرجا =

الخرق كما فعل ، ولكننا القتل واقع لا يجبر بشيء ، فانبرى موسى نبرة أشد من الأولى ناسياً وعده هنا وكان أخرى إذ يرى نكراً بعدما رأى إمرأاً « قال اقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً » .

تري وكيف عرف ان الغلام نفس زكية ، أو أن قتله كان بغير نفس ؟
 أكانت زكية حيث الغلام لائح في غير البالغ ، وهو نفس زكية على أية حال حيث كونه مرفوع القلم حتى وان قتل نفساً فالدية أذاً على العاقلة دونه .
 ولكن فرض الدية على العاقلة لا يجعل القاتل غير البالغ زكياً وغير قاتل ، وان لم يجز قتله حيث القلم عنه مرفوع !

أو أنه كان بالغاً والغلام من بلغ حد الغلومة والشبق بالغاً وسواه ، وقد نتبلغ بلوغه هنا من « بغير نفس » اللائح في تجويز قتله بنفس ، ومن ثم الجواب في تجويز قتله بكفره المرهق « فخشينا ان يرهقهما طغياناً وكفراً » والكفر المرهق الطاغي مما يفرض القتل فانه فتنة وفساد كبير والفتنة اكبر من القتل « فانها قتل لنفوس مؤمنة لايمانها ! »

وكيف عرف موسى انه نفس زكية دون معرفة عنه مسابقة ، وانه لم يقتل نفساً أو لم يأت بما يهدر دمه ؟ علّه لانها كانت لقياء الاولى ، والأصل في كل نفس كونها زكية غير كافرة ، وانها لم تقتل نفساً ، أو انها زكية عن قتل الغير ان كانت اللقيا في ارض كافرة ، فـ « بغير نفس » تأكيد لكونها زكية ، وأصل البراءة حكم من ظاهر الشرع يحكم بهذه وتلك ، إلا ما خرج بدليل ، ولا دليل على خلافه حاضراً في هذه اللقيا ، وموسى (عليه السلام) رسول وامام يحكم بظاهر الشرع : « لقد جئت شيئاً نكراً » : يستنكره كل عارف بموقفه ! .

= من السفينة فيبينها هما يمشيان على الساحل اذا ابصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان
 فاخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى . . . وهذه اشد من الاولى . .

او ان حكمه لم يكن بتأ حيث احتمال البراءة قائم ، فانما حكم شرط كونها « نفساً زكية بغير نفس » و اذا « لقد جئت شيئاً نكراً » .

ولماذا يذكر موسى مسوغاً واحداً للقتل « بغير نفس » ان قتل النفس إنما يجوز بنفس ؟ علته لانه المسوغ الاصل لقتل النفس قصاصاً ثم يلحقه غيره من فساد في الأرض ام ماذا « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » (٣٢: ٥) نقلاً قرآنياً عن ذلك الحكم في التوراة !

او ان « زكية » تلمح الى سبب عام في هدر الدم ، انها كافرة بارتداد أمّاذا ، ام مفسدة في الارض ؟ وقد أجمل عن أسباب أخرى كهذه حيث الغلام بعيد عنه أفساد على غلمته !

فاذا كانت المرحلة الاولى من هذه الرحلة خرق السفينة واحتمال غرق من فيها ، ففي الثانية « قتل نفس زكية بغير نفس » امرٌ نكر لا يستطيع موسى أن يصبر عليه ، فقد يستنكر هنا دوغماً نسيان ، وكما لم يعتذر كالاولى « بما نسي » وانما « ان سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني .. » دوغماً تأول سبب يعتذره -

هنا - وبعد هذا السؤال العضال - يردد المعلم تنديده الأديب .

﴿ قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معي صبراً ﴾ (٧٥) .

كما مضى دون زيادة إلا « لك » أقل لك موسى الرسول كلیم الله متابعي في هذه الرحلة ، لك لا سواك ، لك مرتين : قبل الرحلة وعند الخطوة الاولى « انك لن .. » كمستحيل عليك ان تستطيع معي صبراً ، حيث « وكلتُ بامر لا تطيقه ووكلتُ بامر لا اطيقه » فكما لا تطيق أنت معي صبراً بحكم الشرعة الظاهرة ، كذلك أنا لا أطيق على سؤالك صبراً بحكم الشرعة الباطنة !

ولو كانت لهذا المعلم ولاية مطلقة إلهية على ذلك المتعلم كان عليه التسليم المطلق ، ولكنها الولاية المطلقة هناك انما كانت لموسى (عليه السلام) على خضر (عليه السلام) وهو من أمته ، فكيف يستلم له في رحلته وان كان وعده متابعتة واتباعه ، ولكنه استثنائها بمشيئة الله في بعديها ، وهذه تختلف في بعد المشيئة التشريعية عن المتابعة المطلقة لمن له الولاية المطلقة كأنبيااء الله وأضرابهم ، والبعد التكويني في استثناء المشيئة كائن اياً كان ولاي كان وكما الرسول « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله » .

لذلك لا يستسلم موسى أمام الخضر إلا على ضوء ظاهر الشرعة الإلهية مهما بلغ في رحلته من رَهَق الصعوبة او الحرمان .

﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ (٧٦) .

إن المرة الثالثة بعد الأولى والثانية هي آخر المرات وليست آخر الخطوات ، ولكنك لا تحملني وأنا لا أحملك لاختلاف المعيارين ، فـ « إن سألتك عن شيء بعدها » وأحاول ألا أسأل « إن شاء الله » - « فلا تصاحبني » استمراراً في هذه الرحلة فـ « قد بلغت » إذاً « من لدني عذراً » حيث أعذرك في ترك الصحبة إذ لا تتحمل سؤالي قبل ان تحدث لي جواباً ، ولكنني أحملك في تأجيل الجواب مهما لا أحملك عن تعجيل السؤال ، والفرق لائح من « قد بلغت من لدني » دون « قد بلغت عذراً من لدني ولدنك ! فحياه إلى المشهد الثالث والآخر .

﴿ فانطلقا حتى أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ (٧٧) .

خطوة ثالثة وهي الاخيرة من تلك الرحلة المدرسية هي اخف وطأة من

سابقتيها فانها في ظاهر الحال خلاف العقل وليس محرماً شرعياً ام يخف !
 « فانطلقا » كل من وثاقه « حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها »
 الأهل الثاني عليهم الأهل من أهلها : من فيه الأهلية ان يُستطعم ، أترى
 كيف يجوز عليهما الإستطعام ؟ أسوأ وهو حرام إلا عند الضرورة المدقعة
 بقية على حياة ولم تكن حيث أقام الجدار ! ام استضيافاً كما « فابوا أن
 يضيفوهما » ؟ فكذلك الأمر وان كان أهين .

عله كان جوعاً لحد الحرج حيث لا يستطيعان مواصلة الرحلة الواجبة ،
 والإستضياف عنده ، ومن يؤهل للإضافة هو في حدّ الوجوب ، ام لاقل
 تقدير يجوز ، ثم وليظهر لهم لؤمهم ، فتظهر إقامة الجدار دون طلب لأجر
 أكثر واطهر عجائب موسى فتكتمل الرحلة بذلك الأمر الإمر العجائب ،
 وليخجلوا لما رأوا إقامة الجدار دون بغية الأجر ، أماذا من حكم مجوزة او
 موجبة لاستضيافهما .

وما الأهم حيث « أبوا أن يضيفوهما » وقد يروى أنهم لما سمعوا نزول
 هذه الآية استحيوا وجاءوا الى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)
 بجمل من الذهب وقالوا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :
 نشترى بهذا الذهب ان تجعل الباء في « أبوا » تاء : « أتوا » ليندفع عنا هذا
 اللؤم ؟ فامتنع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . .^(١)

اترى بعد هذه اللثامة اللعينة والإهانة المهينة يستحق أهل هذه القرية
 كرامة متعبة مجانة وعلى رهق الجوعة المهلكة ؟ ولكن « فوجدا فيها جداراً

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ج ٢١ ص ١٥٧ : رأيت في كتب الحكايات . . .
 وفي رواية ابن بابويه والقيمي ان هذه القرية هي الناصرة التي تنسب الى النصارى ، وفي
 بعضها أن الارض كانت آذربيجان والقرية باجر وكان أهلها لثاماً وعن القرظي أنها
 طنجة .

يريد أن ينقض فأقامه « على وعشاء السفر وشقوة الجوع ولثامة أهلها « فأقامه » الخضر ، وطبعاً لا يساعده موسى حيث السؤال الفادح : « قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً » و « لو » هنا تلمح الى حالة من الجوع والنصب يُرثى لها ويُحِيل اي عمل فضلاً عن إقامة الجدار ، ف « لو شئت » عملاً كمستحيل تحميلاً على نفسك لاتخذت قبله عليه أجراً .

جدار يريد أن ينقض ، وكيف يريد الجدار ولا إرادة للجماذ ، إلا تصويراً لمقارفة الإنتقاض ، حيث ظهرت فيه إماراته من ميل بعد ثبات واضطراب بعد انتصاب !

وترى ان الخضر استأذن صاحب الجدار فأقامه ؟ و « كان لغلامين يتيمين في المدينة » إنه اقامه بولاية شرعية ، ولكنه مجهول لدى موسى فيعترض « لو شئت . . » . وترى « لاتخذت عليه أجراً » بعدما أقامه ؟ وليس لغير الاجير أجر ، بل وعله عليه وزر تصرفاً في مال الغير بدون إذنه ! طبعاً قبل ما أقامه عليه أن يستأذن أهله على اجر ، حيث الضرورة قائمة هناك على أخذ الأجر ، مما يفرض عرض الإنسان نفسه لعمل باجر ببقية على حياة وتداوماً في تلك الرحلة الواجبة .

فحسب الظاهر ليس هذا الموقف موقف الترحم على هؤلاء اللثام ، فليرحم نفسه وصاحبه بأخذ الاجر ، فتركه خلاف العقل ولا يسمح الشرع ! .

﴿ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ (٧٨) .

فراق حسب الشرط « فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً » وقد تعلم منه مما علمه رشداً ، وقد تبين الرشد في كليهما معلماً ومتعلماً بكل احترام دون اخترام .

في الخطوة الاولى والثانية اعتذرت فأعذرتك وللثالثة أعذرتُ دون
اعتذار فـ « هذا » السؤال دون إعدار « فراق بيني وبينك » كما اتفقنا
« سأنبئك » كما وعدتك : « حتى أحدث .. » بتأويل مأخذ ومرجع « ما
لم تستطع عليه صبراً ! »

فراق حنون بعد وفاق حنون وكل خطى خطواته كما علم ، وقد حصل
ما قصد كأن يعلم موسى أن في أمته من هو أعلم منه في علم الباطن ،
مهما كان هو أعلم منه في علم الظاهر ، فـ « فوق كل ذي علم عليم »
اللهم إلا علام الغيوب ، فلا يزعم أحد أنه أعلم الخلق أجمعين وإن
كان كموسى الرسول ، فضلاً عن سواه ، حيث العطيات موزعات بعلم
العليم الحكيم حسب القابليات !

﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها
وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ (٧٩).

أراد الله أن تبقى السفينة لمساكينها ، ولو شاء لحقق ما يشاء بصرف
أماذا من خارقة . ولكنه شاء بفعل من غيره غير خارق : « فأردت أن
أعيبها » اردته تحقيقاً لمشئته تشريعية ، واخرى تأييدة تكوينية إلهية كما في
كافة الواجبات .

لم يقل أردنا حيث لم يشاركه موسى ، ولا أراد الله حيث لم يرد الله
الإعابة بفعله خارقة ، وإنما أراد تعالى اصلاحها بما أعابها الخضر ، فالإعابة
فعله بسماع شرعي ، والإصلاح فعل الله بسماع تكويني .

« وكان وراءهم ملك » : ملك وراء المساكين يلاحقهم اياً كانوا « يأخذ
كل سفينة غصباً » فليست الورا هنا وراء الخلف ، (١) وإنما وراء التخلف

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣٧ - اخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم =

والملاحقة من أية جهة كانت و « كل سفينة » تعني من مساكين وسواهم حيث هي صالحة للإستثمار ، فلتكن صالحة غير معيبة ، « فاردت أن أعيبها » في الظاهر لأصلح أصلها لكيلا تغتصب .

على الملوك أن يكونوا وراء الشعوب ولا سيما المساكين خدمة لهم وإصلاحاً ، وهذا الملك كان وراءهم خيانة وإفساداً « ياخذ كل سفينة غصباً » فلأنني أحطت بذلك خبراً أعبتها للحفاظ على أصلها ، ثم الحفاظ على أهلها عن غرقها حاصل بما سدنا ثغرتها .

بهذا العيب الصغير نجت السفينة عن الضرر الكبير الذي يكنه الغيب إن لم يكن لها عيب ، ولتكن هذه سنة للحفاظ على الأصلح وكما عاب الإمام الصادق (عليه السلام) زرارة في ظهر الغيب حفاظاً على نفسه، وبهذا المعنى الغاية تبرر الوسيلة ، فإعابة السفينة محرمة لولا هذه الغاية ، دون أن تبرر كل وسيلة بكل غاية ، وإنما الغاية الأهم بوسيلة دون الأهم ، فغاية توطيد اركان الخلافة بواسطة تثبيت معاوية رديحاً من الزمن لا تبرر ، حيث الخلافة العادلة لا ترضى ظلماً يتبناها او يوطئها ، وإبقاء معاوية إبقاء للظلم ريثما يثبت العدل ثم يزيل معاوية الظلم ، ومن ذا الذي يضمن بقاء الإمام في هذه الفترة حتى يعزل معاوية ، ومن ذا يضمن إمكانية عزله إن

= وصححه وابن مردويه عن ابن عباس ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقرأ « وكان امامهم ملك ياخذ كل سفينة صالحة غصباً » .

اقول : اما « صالحة » فهي تفسير بيان للسفينة ، واما « امامهم » فقد يعني « بين ايديهم » دون ان يكون « امامهم » بدل « وراءهم » و « صالحة » محذوفة عن القرآن ، حيث تطارده احاديث العرض ولا تصدق الا كتب القرآن المتواتر والمجمع عليه طوال القرون الاسلامية !

ويشهد لذلك ما رواه العياشي عن حريز عن ابي عبد الله (عليه السلام) انه كان يقرء « وكان وراءهم ملك » يعني امامهم « ياخذ كل سفينة صالحة غصباً » .

بقي الإمام وهو يقوى كما الإمام يقوى ، حيث هما في سبيلهما إلى الاستبقاء !

فهنا نرى ان في امهال معاوية الطاغية رعاية لاستحكام حكم علوي مجهول ، وابقاء لاستمرار واستحكام ظلم الطاغية وهو معلوم ، بيد ان غاية العدل لا يبررها اي ظلم !

فليست « الغاية تبرر الوسيلة » ضابطة صالحة لا تستثنى ، ولا حابطة طالحة لا تصلح ، وانما الضوابط الشرعية الاخرى هي التي قد تبرر وقد لا تبرر ، كما بررت في خرق السفينة ، دون إمهال معاوية !

إذاً فكل ما دون قتل النفس من المحرمات تبرر كمقدمات للحفاظ على النفس ، كأن تغتاب اخاك او تقتري عليه او تهتكه وتضربه أماذا حفاظاً على نفسه ، وكلما هو فوق القتل كضياع الشرع أماذا لا تبرر للحفاظ على النفس ، وهذه الفوقية والتحتية مستفادة من الشرع ، فإذا كانا على سواء فعلى سواء ، ضابطة عامة في تقديم الأهم على المهم !

هنالك شروط عدة في تبرير الغاية الوسيلة ، من كونها أهم من الوسيلة كما في زرارة والسفينة ، وكون الغاية الأهم قطعية كالوسيلة ، فان كانت هي محتملة والوسيلة قطعية فلا تبرر ، إلا فيما المحتملة ايضاً أهم من تلك الوسيلة ، كمظنة حفظ النفس او احتماله حيث تبرر وسيلة خفيفة كضرب او شتم او اغتياب أماذا ؟

وان تتوارد الغاية والوسيلة على فرد او جماعة ، كأن تظلم فرداً او جماعة بظلم لثلاث يظلم باكثر منه كما في السفينة ، فأما ان تظلم فلاناً ليسلم غيره من ظلم وان اكثر منه فلا كما في إبقاء معاوية تظلم الجماعة المؤمنة في فترة بقاء معاوية لسد ظلم اكثر منه - ولا اكثر منه ! - في مستقبل مجهول وعن جماعة غير معلومة ، عل فيها من هؤلاء - لا كلهم - وعلمهم ليسوا فيها ! .

لا نستطيع في هذا المجال الخاصر الحاصر ان نستعرض كل المعارضات بين الوسائل والغايات من الفقه كله، فنحشر الفقه لنحشركم على حافة من المسرح العام، فليتبّع وفي كلّ ضابطته علماً بان الغاية ليست لتبرر الوسيلة كضابطة عامة، فقد تبرر بضابطة وقد لا تبرر بضابطة، فليست هي إذا ضابطة وانما السلب والايجاب لتبريرها حسب الضوابط المقررة في مجالاتها.

ومن أهم السياسات الحفاظية على الصالحين كسرهم عند من يريد كسحهم حتى لا يببدهم وكما فعل الامام الصادق (عليه السلام) بوزارة معتذراً إليه في تعييبه اياه موضحاً له موقفه قائلاً له «يرحمك الله فانك والله أحب الناس إلي وأحب أصحاب أبي إلي حياً وميتاً فإنك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وإن من ورائك للملكاً ظلوماً غصبوا يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليغصبها وأهلها فرحة الله عليك حياً وميتاً ورحمته ورضوانه عليك ميتاً»^(١).

وفي دوران الامرين المهم والاهم لا بد من تشخيص ذلك من اجتهاد او تقليد كما يصح: دون الهوسات والتصورات السطحية الخاطئة، حيث

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٨٥ ح ١٦٣ في كتاب تلخيص الاقوال في تحقيق احوال الرجال في ترجمة وزارة ابن اعرين روى في الصحيح ان ابا عبد الله (عليه السلام) ارسل اليه انما اعيبك دفاعاً مني عنك ! فان الناس والعدو يسارعون الى كل من قربناه وحمدناه مكانه لادخال الاذى فيمن نحبه ونقربه ويذمونه لمحبتنا له وقربه وذنوه منا ويرون ادخال الاذى عليه وقتله ويحمدون كل من عباه فانما اعيبك لانك رجل اشتهرت بنا ويميلك اليها وانت في ذلك مذموم عند الناس فيكون ذلك دافع شرهم عنك لقول الله عز وجل «واما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فاردت ان اعيبها وكان وراءهم ملك ياخذ كل سفينة غصباً» هذا الرسل من عند الله صالحة، والله ما عابها الا لكي تسلم من الملك، فانهم المثل يرحمك الله فانك والله احب الناس الي واصحاب أبي الي حياً وميتاً فانك أفضل سفن ذلك البحر القمقام وان من ورائك للملكاً ظلوماً غصبوا يرقب عبور كل سفينة.

تورط الى طامة كبرى لا علاج لها ام يصعب .

فـ « الغاية تبرر الوسيلة » ليست ضابطة فقهية عامة ، حتى تلعب بها العمامة كما تستعملها الخاصة ، وحتى اذا كانت ضابطة فلا تنضبط في التحقيق والتطبيق إلا عند أهلها الخاصة ، ولكنها كما نبهنا ليست آية من كتاب أم رواية من سنة ، بل هي حسب المظاهر المواتية للواقع ، ضابطة سياسية يرربها الساسة دسائسهم الجهنمية ، وكما نجدتها في الأصل عند الصهيونية العالمية ، حيث أوصلوها الى حدّ إقحام آيات في التورات وتحريف آيات أخرى أماذا من اقتحامات ضالة مضلة .

ثم على ضوء الفقه الاسلامي السامي نصلح هذه الضابطة غير الضابطة بحيث تصلح في العناوين الثانوية حسب الضوابط الاسلامية القاطعة .

﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقها طغياناً وكفراً^(٨٠) فاردنا أن يبدلها ربها خيراً منه زكاة وأقرب رحماً^(٨١) .

هنا يررب الخضر قتل الغلام بفساده كفراً وإفساده أن يرهق أبويه المؤمنين طغياناً وكفراً ، « والفتنة اكبر من القتل » والإفساد في الارض من مبررات القتل « وكتبنا فيها أن من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » (٣٢: ٥) .

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا . . » (٣٣: ٥) وإرهاق الابوين المؤمنين طغياناً وكفراً - وهما يستحقان رحمة اكثر ممن سواهما - انه من أبرز الإفساد والسعي فيه .

فكون الغلام حينذاك كافراً دليل كونه مكلفاً!^(١) وكون أبويه مؤمنين

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٣٦ - اخرج ابن ابي حاتم عن سعيد بن عبد العزيز في قوله : =

يجعله مرتداً فطرياً يستحق القتل ولا يستتاب وإن تاب لم تقبل !
فخشية ارهاقه اياهما طغياناً وكفراً يهذر دمه ثانياً بعد تهدره بارتداده !
وارادة ابداهما ربهما خيراً منه زكاة واقرب رحماً ، زاوية ثالثة تفرض قتله !
فحتى لو كان غير بالغ لكان يحق القتل دفعاً للإفساد المحتوم .

فهذا الغلام الذي لا يبدو في ظاهره وحاضره انه مستحق القتل ، إذا
هو في متن الغيب كافر طاغ يخشى ان يرهق ابويه طغياناً وكفراً .

وترى لماذا هنا « خشينا .. فاردنا » وهنالك « أردت أن أعيها » لان
إرادة الاعابة لم تكن إلا منه دون موسى حيث ندد بها ! وحتى إذا عرف
موسى جوازها فلا حاجة في الإعابة إلا ارادة واعابة واحدة ، واما الخشية
من الإرهاق ، فهي كائنة للخضر ومقدرة لموسى وعلى كل مؤمن بالله أن يخشى
الارهاق ، مهما كان دفع الخشية بالقتل يكفيه واحداً ، وبعد العلم والخشية

= لقياً غلاماً قال كان غلاماً ابن عشرين سنة فيه - اخرج مسلم وابو داود والترمذي وعبد
الله بن احمد في زوائد المسند وابن مردويه عن ابي بن كعب عن النبي (صلى الله عليه
 وآله وسلم) قال : الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ولو ادرك لأرهق ابويه
 طغياناً وكفراً وروى مثله عن ابن عباس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا ذيله ،
 اقول : قد يعني « طبع كافراً » انه منذ ان بلغ طبع نفسه كافراً فان الله لا يطبع أحداً
 على الكفر فكل مولود يولد على الفطرة ، ثم « ولو ادرك » يؤول الى ادراكه ابويه على
 كفره ارهاقاً لها كفراً .

وفي نور الثقلين ٣ : ٢٨٥ ح ١٦٤ في جمع البيان روى عن ابي عبد الله (عليه
 السلام) « اما الغلام فكان كافراً وابواه مؤمنين - اقول : وهذا تفسير وليس نقلاً لاصل
 الآية .

وفيه (١٦٧) عن اسحاق بن عمار عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : سمعته
 يقول : بينا العالم يمشي مع موسى اذ هم بغلام يلعب قال : فوكزه العالم فقتله قال له
 موسى « اقتلت .. » قال : فادخل العالم يده فاقطلع كتفه فاذا عليه مكتوب « كافر
 مطبوع » .

تأتي الإرادة « ان يبدلها ربها خيراً ... » .

يا موسى لست أنا الوحيد في هذا الميدان ، فأنت معي وكل مؤمن بالله أن نخشى ما أخشاه ونريد ما أريده بعد العلم بموقف الغلام وأبويه المؤمنين ، وأما إرادة الإغابة فيكفيها واحد ثم لا يريد سائر من يعرف الواقع إلا الحفاظ على سفينة المساكين بآية طريقة ممكنة ، دون ضرورة إيمانية في إرادة جماهيرية للإغابة !

وترى إن خشية الإرهاق طغياناً وكفراً وهي دون العلم كيف تبرر القتل ولا علم ولا إرهاق حينذاك ؟

هنالك المبرر لقتل الغلام يكفي كونه مرتدّاً فطرياً وفي حالة الإفساد ولما يرهق أبويه ، ثم الخشية لا تنافي العلم الحاضر الظاهر ، حيث الواقع قد يتخلف عما تعلم ، فالصيغة الأدبية عن العلم الظاهر فيما لا يجوز هي الخشية ، خوفاً ان يستقبل خلاف ما يعلمه حاضراً ، فلم يكن - اذاً - قتل الغلام قصاصاً قبل الجناية ، حيث الإرتداد الفطري هو جنايته الحاضرة ، اضافة الى خشية الإرهاق حيث تلمح الى حاضر السعي في الإفساد ، ولكي يبدلها ربها خيراً منه زكاة واقرب رحماً .

اترى ان الغلام كان خيراً وقريب الرحم حتى يبدلها ربها خيراً منه زكاة واقرب رحماً ؟ كلاً فلا خير في هذا الكافر ولا رُحم لأبويه ، وإنما الافضلية في « خيراً واقرب » مجارة ظاهرة في خير الغلام ورُحمه .

وهل إن « طغياناً وكفراً » مفعولان لـ « يرهقها » ان يغشيها بقهر طغياناً وكفراً ، ليطغيا ويكفرا ؟ ام حالان لـ « يرهقها » إرهاقاً لها حالة الكفر والطغيان ؟

قد يعنيهما المنصوبان حالين حال كونهما مفعولين حيث يتحملهما أدب اللفظ وجمال المعنى ، فالمرهق حالة الطغيان والكفر يرهق الى حالة الطغيان

والكفر دون زكاة منه ولأرحم أكثر مما في غير حالته .

ولقد سلبت « خشيننا » بقتله وتحققت « أردنا » حيث أبدلها ربها خيراً منه زكاة : طهارة وإيماناً في نفسه ، واقرب رُحماً : رحمة لابويه^(١) .

مثلث من موجبات القتل يسبب قتل هذا الغلام الكافر وزاوية منه كافية ومثلث آخر هي من موجبات الرحمة يفرض إقامة الجدار دون اجر:

﴿ واما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾^(٢) .

.. جدار هو ليتيمين في المدينة يريد أن ينقض ، تجب إقامته مجاناً على ولي اليتيم والخضر من أفضل الاولياء « وكان تحته كنز لهما » يجب الحفاظ عليه باقامة الجدار مجاناً ، « وكان أبوهما صالحاً » ويكرم الرجل في ولده ، فتجب اقامة الجدار اكراماً لوالديه المؤمنين مجاناً ، زوايا ثلاث من فرض إقامة الجدار لا أجر فيها مادياً وكما قال الله « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » (٤: ٦) ولم يكن موسى والخضر فقيرين رغم حاجتهما الحاضرة المفقرة ، ولو كانا فقيرين فكيف يأكلان هنا بالمعروف ولا مال لليتيمين إلا الكنز^(٣) الواجب حفظه حتى « يبلغا أشدهما ويستخرجا

(١) في تفسير القمي عن عثمان عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية إنه وُلدت له جارية فولدت غلاماً فكان نبياً وفي أكثر الروايات انها ولد منه سبعون نبياً .

(٢) في بعض الروايات ان الكنز كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه مواعظ ، وفي الاب الصالح انه ابوهما الاقرب او السابع او العاشر او بينهما سبعون اباً او سبعمائة سنة .

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٣٥ - اخرج ابن مردويه عن علي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله : وكان تحته كنز لهما - قال : لوح من ذهب مكتوب فيه : شهدت ان لا اله الا الله شهدت ان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) رسول الله عجبت لمن ايمن بالقدر كيف يحزن عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح عجبت لمن تفكر في قلب الليل =

كترهما » وحتى إذا كان لهما مالٌ سوى كثرهما فالفقر المجوز لاكل الولي هو الناتج عن ولايته عملياً ، ولولاها لما افتقر ثم ولولا اقامة الجدار لم يكن هنا شغل له أجر ! والرحمة الربانية تقتضي ألا يؤخذ من مال اليتيم ، وليس « فليأكل بالمعروف » للولي الفقير إلا سماحاً حالة الضرورة لا فرضاً ، فترك الأكل « رحمة من ربك » كما إقامة الجدار حفاظاً عليه وعلى الكثر رحمة من ربك ، والإطلاع على واقع الأمر رحمة من ربك « وما فعلته من أمري » فكل ذلك كان بأمر من ربك ، يرى موسى في الخطوة الاولى إمرأ وفي الثانية نكرأ ، هما في الظاهر من أشد القساوة ، ثم يرى في الثالثة رحمة زائدة لحد لا يبررها موسى الرسول وهو رسول الرحمة ، كتضاد في خلق الخضر يشبه طرفي النقيض ، فكان لموسى موقفاً حرجاً لن يستطيع معه صبراً !

ولماذا « فاراد ربك ورحمة من ربك » ولم يقم الجدار إلا الخضر ، لا موسى ولا ربه ؟ اما الإرادة فلم تكن إلا من ربك فان بلوغهما الأشد من إرادة ربك ، وكذلك الرحمة هنا في كل زواياها ليست إلا من ربك .

= والنهار ويأمن فجأتها حالاً فحالاً !

وفي تفسير العياشي عن اسحاق بن عمار قال سمعت ابا عبد الله (عليه السلام) يقول : ان الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله ثم ذكر الغلامين فقال « وكان ابوهما صالحاً » ألم تر ان الله شكر صلاح ابوهما لهما .

وفيه عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن آبائه (عليهما السلام) ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الله ليخلف العبد الصالح بعد موته في اهله وماله وان كان اهله اهل سوء ثم قرء هذه الآية « وكان ابوهما صالحاً » .

وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه عن جابر قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده واهل دويرات حوله فيما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم .

اعلاماً له أن تحته كنز لها ، وامراً باقامته حفظاً لكثرهما ، وترك الأجر وجوباً في شرعة الله كأجر ، وأكلاً دون اجر رحمة وفضلاً !

ثم و « ربك » تعني التربية التشريعية وليس رسولها المبلغ لها إلا موسى ، والتربية التكوينية وموسى هو امام الخضر فيما اخذ منها ، فهذه حرمة وحسن ادب من الخضر الى موسى ان « اراد ربك .. رحمة من ربك » فانما انا الخضر ماثراً على ضوء التربية الإلهية المتمثلة فيك كإمام ، المتحققة عملياً بيدي كماموم ، وان كنت لم تدره حيث الشرعة ظاهرة وتلك من الغيب ، كما لم اكن ادريه لولا رسالتك بالشرعة الظاهرة « ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً » !

وقد نرى الافعال المنسوبة الى فاعليها كلها في محالها ، فإرادة الاعابة بفعلها هي من الخضر ، لا وموسى ولا ان الله أرادها تكويناً إلا كما يريد فعل كل مختار ، وخشية الإرهاق هي شريطة الايمان لكل مطلع على ضمير الغيب ولكننا الله لا يخشى ، وإرادة إبداهما خيراً تتبع قتله وخشيتهما ، وما اراد الله الابدال الا في ظرف هذه الإرادة ، والإبدال فعل من الله دون سواه ، كما وإرادة بلوغهما أشدهما ليست إلا من الله . .

« وما فعلته » كل ذلك « عن امري » وإنما عن أمر ربك ، فمهما غاب عنك الموضوع فالحكم نازل عليك رسولاً إلي واماماً علي فاننا على ضوء شرعتك ، فبأمر من ربك فعلت ما فعلت : « ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً » !

في هذه المسارح الثلاثة كانت معارضة بين الحكم الظاهر والباطن باختلاف ظاهري الموضوع وباطنه ، وقد طبق كل من موسى وخضر واجبه ، وتوحي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيما يروى عنه « يرحم الله

موسى وددنا انه لو صبر حتى يقصّ علينا من حديثهما » يضرب الى عمق الغيب دون تنديد بموسى (عليه السلام) كما وهو (صلى الله عليه وآله وسلم) يحيله بـ «لو» وكما ان «علينا» قد تعني غيره (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث جمع ، وقد اوتي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما اوتي كل من يعلم ظاهراً او باطناً في الطول التاريخي والعرض الجغرافي وكل خليقة اياً كان وايان !

وقد أعذر الإمام الحسن نفسه في صلحه مع معاوية في قوله (عليه السلام) : « إذا كنت إماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب ان يسفه رأيي فيما أتيت من مهادة او محاربة ، وإن كان وجه الحكمة فيما أتيت ملتبساً ، ألا ترى إلى الخضر (عليه السلام) لما خرق السفينة وقتل الغلام واقام الجدار سخط موسى (عليه السلام) فعله لاشتباه وجه الحكمة عليه حتى أخبره فرضي ، هكذا أنا سخطتم علي بجهلكم بوجه الحكمة فيه ولولا ما أتيت لما ترك من شيعتنا على وجه الأرض أحد إلا قتل »^(١).

وانتم أدنى من موسى وكان يحق له السؤال لولايته على خضر ، وانا أعلى من خضر وموسى ، ولي الولاية عليكم فما كان يحق لكم سؤالي سخطاً وتنديداً ! ..

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٩ ج ١٩٢ في كتاب علل الشرايع باسناده الى ابي سعيد عقيصا قال قلت للحسن ابن علي بن ابي طالب (عليه السلام) يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! لم هادنت معاوية وصالحته وقد علمت ان الحق لك دونه وان معاوية ضال باغ ؟ فقال : يا ابا سعيد ! الست حجة الله تعالى ذكره على خلقه واماماً عليهم بعد ابي (عليه السلام) قلت : بلى - قال : الست الذي قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لي ولاخي الحسين : امامان قاما او قعدا ؟ قلت : بلى - قال : انا فإذا امام لو قمت وانا امام اذا قعدت ، يا ابا سعيد علة مصالحتي لمعاوية علة مصالحة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لبني ضمرة ، وبني اشجع ولاهل مكة حين انصرف من الحديبية ، اولئك كفار بالتزويل ومعاوية واصحابه كفار بالتأويل ، يا ابا سعيد اذا كنت اماماً من قبل الله تعالى ذكره لم يجب ان يسفه رأيي فيما أتيت ... »

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ
 قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٧﴾ إِنَّا مَكَّاهُ فِي الْأَرْضِ
 وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٨﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّى
 إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
 وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ
 وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٩٠﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ
 نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا ﴿٩١﴾ وَأَمَّا
 مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ
 لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٩٢﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا
 بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ
 لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٤﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا
 لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩٥﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ

السَّيِّئِينَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ
 قَوْلًا ﴿١٤﴾ قَالُوا يَنْذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
 مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ نَجْعَلَ
 بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿١٥﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ
 فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿١٦﴾ ءَاتُونِي
 زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا
 حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿١٧﴾
 فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿١٨﴾
 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ
 وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٩﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ
 يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٢٠﴾
 وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٢١﴾ الَّذِينَ

كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
 سَمْعًا ﴿١٠١﴾ الْحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي
 مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
 نُزُلًا ﴿١٠٢﴾



﴿ ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ (٨٣).

« ذي القرنين » لم يذكر في سائر القرآن إلا هنا جواباً عن سؤال ،
 فهل كان نبياً ؟ لخصوص « قلنا يا ذا القرنين » خطاباً يلمح أنه وحي ،
 وعموم « وآتيناه من كل شيء سبباً » ومنه سبب الوحي ؟ ولكنها القول من
 الله لا يخص وحي النبوة وحتى قول الوحي كما « واوحينا الى ام موسى »
 فضلاً عن « قلنا » وفي هذه اليتيمة فقط ! ويشاركه فيه غيره « وإذ قلنا
 ادخلوا هذه القرية » ولم يكونوا أنبياء ! « وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك
 الجنة » وما كان نبياً حينذاك او « قال يا ابليس » ولن يكون نبياً ! فقد يعنى
 « قلنا يا ذا القرنين » إلهاماً دون وسيط كما في هؤلاء ، ام وحيّاً بوسيط كما في
 سائر الوحي إلى الناس أجمعين ! وظاهر القول الخطاب هو الإلهام كما في أم
 موسى ، وليس في قوله تعالى هنا ما يحمل مادة الوحي النبوة !

والسبب هو ما يتوصل به الى المقصود لا يشمل سبب الوحي والنبوة ، فلا يؤق النبي سبب النبوة بل نفسها ، فانما سببها عند الله وبيد الله ، ومن ثم لو كان نبياً لكان من أبرز التعريف به تصريحه النبوة ، دون اختصاصه بالقدرات الأرضية ، فلم يك نبياً وكما في احاديثنا^(١).

وهل كان ملكاً؟ قد يعنيه « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً » ! ولا يؤق ملك من كل شيء سبباً ! فقد يكون دون النبي وفوق الملك عبداً صالحاً^(٢) قوياً بما آتاه الله ، مؤيداً من عند الله ! كمثّل طالوت الملك على ضوء نبوة منفصلة !

ونعرف من الإجابات التالية حول ذي القرنين أن السؤال كان حول أفعاله الخارقة ، دون نبوته او ملكه او نسبه وبلده ، أم وإذا كان يعم ذلك كله او يخص الثاني كما هو دأب القصصيين فلم يأت الجواب حسب الحكمة إلا المفيد المفيد الذي فيه دعوة إلهية وذكرى إيمانية !

(١) كما في الدر المنثور ٤ : ٢٤١ اخرج ابن مردويه عن سالم بن ابي الجعد قال سئل علي (عليه السلام) عن ذي القرنين انبي هو ؟ فقال : سمعت نبيكم (عليه السلام) يقول : هو عبد ناصح الله فنصحه .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٤١ - اخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن المنذر وابن ابي حاتم وابو الشيخ في العظمة عن خالد بن معد ان الكلاعي ان رسول الله لا (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل عن ذي القرنين فقال ملك مسح الارض من تحتها بالاسباب وفيه اخرج ماله الشيرازي في الالقاب عن جبير بن نفير ان احباراً من اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حدثنا عن ذي القرنين ان كنت نبياً فقال : ..

وقد تضارب الحديث عن علي (عليه السلام) انه كان نبياً ام لا وقد نفى كونه ملكاً وعله بفتح اللام رداً على من زعمه ملكاً ، وهناك روايات متضاربة اخرى في نفى نبوته واثباتها .

ثم « ويسألونك » يشمل زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وإلى اعماق المستقبل ، فلا جواب صالحاً عن ذي القرنين إلا ما أجاب ، ومهما كان السؤال عنه في العهد الرسولي من اليهود^(١) ولكنها العهد الرسالي وهو منذ الرسول الى يوم الدين تشمله « ويسألونك » !

و « ذكراً » هنا يدلنا أنه لا يقص قصص ذي القرنين إلا طرفاً منها هاماً يذكرنا موقفه في تمكنه في الأرض ، حيث لم يستخدمه إلا لخدمة للناس وطرداً للسناس الخناس .. و « ذكراً » يعني قرآناً يذكر قدر الواجب الصالح تذكرة .

ولا يستثني هنا بمشيئة الله حيث القائل هو الله ، وإنما الناقل هو رسول الله والله لا يستثني ما يريده بمشيئته اللهم إلا تعليماً « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » !

(١)- المصدر ٢٤٠ - اخرج ابن ابي حاتم عن السدي قال قالت اليهود للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا محمد ! انما تذكر ابراهيم وموسى وعيسى والنبيين ، انك سمعت ذكرهم منا فاخبرنا عن نبي لم يذكره الله في التوراة الا في مكان واحد ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ومن هو ؟ قالوا : ذو القرنين ، قال : ما بلغني عنه شيء فخرجو فرحين وقد غلبوا في انفسهم فلم يبلغوا باب البيت حتى نزل جبرئيل (عليه السلام) بهؤلاء الآيات « ويسألونك عن ذي القرنين . : » .

وفيه واخرج ابن ابي حاتم عن عمر مولى غفر قال : دخل بعض اهل الكتاب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسألوه فقالوا : يا ابا القاسم كيف تقول في رجل كان يسبح في الارض ؟ قال : لا علم لي به ! فبينما هم على ذلك اذ سمعوا نقيضاً في السقف ووجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غمة الوحي ثم سرى عنه فتلا « ويسألونك عن ذي القرنين الآية فلما ذكر السد قالوا : اتاك خبره يا ابا القاسم حسبك !

ولقد تضاربت الآراء والروايات حول « من هو ذو القرنين هذا » ؟ ولا يهمننا شخصه كما سكنت عنه القرآن وإنما شخصيته بذكره أياً كان وأيان !

قصارى ما يستفاد من إسمه أنه عربي ، وليس من دأب القرآن مسح الأسماء الأعجمية ، وإنما تغيير ما قدر ما يجعله وفق الأدب العربي كإبراهيم معرب إبراهيم وموسى معرب موسى ، و « ذي القرنين » لا يلمح بسمه غير عربية ، و « ذي » تلمح كأنه من الأذواء اليمنيين وأنه اسمه الخاص أم أشهر أسمائه قضية للغة الفصحى في « بيان للناس » !

فاسمه يدلنا على أنه أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن وقد تردد ذكره في عديد من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية^(١) .

= وفي نور الثقلين : ٢٩٣ ج ١٩٩ في قرب الاسناد للحميري باسناده الى موسى بن جعفر (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه آيات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وفيه : ومن ذلك ان نفراً من اليهود اتوه فقالوا لابي الحسن جدي استأذن لنا على ابن عمك نسأله قال : فدخل علي فاعلمه فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : وما يريدون مني ؟ فاني عبد الله لا اعلم الا ما علمني ربي ثم قال : ائذن لهم فدخلوا فقال : اسئلوني عما جئتم له ام انبئكم ؟ قالوا : نبئنا - قال : جئتم تسألوني عن ذي القرنين ؟ قالوا : نعم - قال : كان غلاماً من اهل الروم ثم ملك وأق مطلع الشمس ومغربها ثم بنى السد فيها قالوا : نشهد ان هذا كذا وكذا :

(١) ذكر جمع من المؤرخين ان ذا القرنين احد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالاصمعي في تاريخ العرب قبل الاسلام وابن هشام في السيرة والبيهقي في تاريخ البيروني في الآثار الباقية ونشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم - واختلفوا في اسمه انه مصعب بن عبد الله او صعب بن ذي المرائد وهو أول التبابعة وهو الذي حكم لابراهيم في بئر السبع اوتبع الاقرن واسمه حسان او اسعد الكامل الرابع من =

= التباينة بن حسان الاقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الاول او اسمه
« شمير عرش » :

وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدة من اشعار الحميريين وبعض شعراء
الجاهلية ففي البداية والنهاية انشد ابن هشام للأعشى :

والصعب ذو القرنين اصبح ثاوياً بالجنو في جدث اشم مقبياً
وانشد عثمان بن ابي الحاضر لابن عباس قول بعض الحميريين .

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتحشد
بلغ المشارق والمغارب يبتغي اسباب امر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثا ط حرمه
وفيه يقول النعمان بن بشير :

فمن ذا يعاودنا من الناس معشراً كراماً فذو القرنين منا وحاتم
ويقول فيه الحارثي :

سموا لنا واحداً منكم فتعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملاً
كالتبعين وذو القرنين يقبله اهل الحجى فاحق القول ما قبلا
ويقول ابن ابي ذئب الخزاعي :

منا الذي بالخافقين تغرباً واصعد في كل البلاد وصوباً
فقد نال قرن الشمس شرقاً ومغرباً وفي ردم يأجوج بنى ثم نصباً
وذلك ذو القرنين تفخر حير بعسكر فيل ليس يحصى فيحسب
ولقد حفظت اسماء الأذواء كالملوك الثامنة وهم ثمانية اذواء حيث ناهضوا حير ايام
دولتهم كما يقول شاعرهم :

ابن الثامنة الملوك وملكهم ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو شجر وذو جدن وذو صرواح
او ذو مغار بعد او ذو جوفز ولقد محاذوا عثكلان ما حي
ثم سائر الأذواء اكبرهم مرثد وهو جد الناظم قال فيه :

او ذو مرثد جدنا القليل بن ذي شجر ابو الأذواء رجب الساح
ثم يذكر في اشعاره التسعة عشر ٥٣ آخرين من الأذواء كـ : ذونين - ذو سفر - ذو =

ولأن هذا الاسم وصفي وليس الاسم الخاص فقد يجوز كونه ترجمة عربية عن حالته الخاصة التي تميزه عن غيره بميزة وحيدة ، إضافة الى سائر أفعاله المذكورة في هذه الآيات ، فقد يجوز عدم كونه عربياً كاسكندر الثاني المقدوني المعروف لدى الخاص والعام بذوي القرنين ، المنسوب إليه السد لحد صار مثلاً يقال : كسّد الإسكندر؟ وكما ورد في بعض الروايات^(١) وقد سيطر على الشرق والغرب بما لا مزيد عليه^(٢).

ولأن هذه السيطرة لا تخصه ، وأنه كان وثنياً من الصابئين وقد ذبح ذبيحته للمشتري ، والقرآن يصف ذا القرنين بالعدل وصلاح العبودية لله ،

= عمران - ذوبيان - ذو الرمحين - ذو يرحم - ذو بهر - ذو يزن - ذونوش - ذو نوح - ذو الانواح - ذو تيقان - ذو اصبح - ذو الشعبين - ذو حوال - ذو مناح - ذو غمدان - ذو فائش - ذو رعين و...
 مركز تحقيق كتاب توير علوم اسلامی

(١) كرواية عقبة بن عامر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورواية قرب الاسناد عن موسى بن جعفر (عليه السلام) وذهب اليه جماعة من قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين كعماد بن جبل وقتادة ومن المتأخرين الامام الرازي في تفسيره .

(٢) يؤكد عليه الرازي في تفسيره قائلاً : ان اسكندر المقدوني جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى الى البحر الأخضر ثم الى مصر وبني الاسكندرية ثم دخل الشام وقصد بني اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف الى ارمينيا وباب الابواب ودان له العراقيون والقبط والبربر واستولى على ايران وقصد الهند والصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبني المدن الكثيرة ثم رجع الى العراق ومات في شهر رز او رومية المدائن وحمل الى اسكندرية ودفن بها وعاش ثلاثاً وثلاثين سنة ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة ، فلما ثبت بالقرآن ان ذا القرنين ملك اكثر المعمورة وثبت بالتواريخ أنه الاسكندر فليكن ذو القرنين هو الاسكندر .

إذا فليس هو المقدوني ، وقد يجوز أنه الإسكندر الأول ، وبينها أزيد من ألفي سنة (٢٣٠٠) ق م فقد كان عبداً مؤمناً صالحاً وملكاً عادلاً^(١) وكان وزيره الخضر ؟

ولان التاريخ لا يسجل لنا ملكاً قبل المسيح بأكثر من ألفين وثلاثمائة ملك الأرض من أقصاها إلى أقصاها وبني السدو .. فقد لا ينطبق ذو القرنين على واحد منها !

وان كان المحتمل هو الاول قوياً ، مهما لا يوجد « ذو » في الاغريقين اليونان حيث الوصفية في التسمية تحل هذه المشكلة ! .

وعله هو « كورش » أحد ملوك الفرس الهخامنشيين (٥٣٩ - ٥٦٠ ق م) فقد جمع بين مملكتي الفارس ومادو سخر بابل وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى اورشليم وساعد في بناء الهيكل وسخر مصر ثم اجتاز إلى يونان فغلبهم وبلغ المغرب ثم سار إلى اقاصي المعمورة شرقاً^(٢) وتشهد كتب

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٤١ - اخرج ابن عبد الحكم في فتوح مصر وابن ابي حاتم وابو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن عقبة بن عامر الجهني قال كنت اخدم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - وساق حديث سؤال جماعة من اهل الكتاب عنه في ذي القرنين الى ان قال - : ان اول امره انه كان غلاماً من الروم اعطي ملكاً فسار حتى اتى ساحل ارض مصر فابتنى مدينة يقال لها اسكندرية فلما فرغ من شأنها بعث الله عز وجل اليه ملكاً فعرج به فاستعصى بين السماء ثم قال له : انظر ما تحتك فقال ارى مدينتي وارى مدائن معها ثم عرج به فقال انظر فقال قد اختلطت مع المدائن فلا اعرفها ثم زاد فقال انظر قال ارى مدينتي وحدها ولا ارى غيرها قال له الملك انها تلك الارض كلها والذي ترى يحيط بها هو البحر وانما اراد ربك ان يريك الارض وقد جعل لك سلطان فيها فسر فيها فعلم الجاهل وثبت العالم فسار حتى بلغ مغرب الشمس

(٢) سار نحو المغرب لدفع طاغية « ليديا » الطاغية عليه ظلماً دون عذر فحاربه وعاصره في عاصمته ففتحها واسره ثم عفى عنه واحسن اليه « حتى اذا بلغ مغرب الشمس .. » =

العهد العتيق على ايمانه وصلاحه^(١) كما النقوش والكتابات المخطوطة بالخط المسماري الماثورة عنه ناطقة بكونه موحدًا ، وقد سار نحو المغرب فاستولى على ليديا وحواليها ثم نحى نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس ووجد عندها قومًا بدوين همجاً ثم بنى السد المعروف بمضيق داريال بين جبال قفقاز قرب مدينة تفليس .

ولماذا يعبر عنه القرآن بذوي القرنين - ايا كان من المذكورين - ؟ علّه لأنه أدرك قرني الشمس شرقاً وغرباً^(٢) وعاش قرنين وضرب على قرنيه وكان لتاجه قرنان وسخر له القرنان الليل والنهار^(٣) وأيد في قرنيه بكشف من

= ثم سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لإخاد نائرة قبابل بدوية همجية انتهضوا هناك للافساد « حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلعت : » وبني السد الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر الى البحر الاسود ويسمى «داريال» وهذا السد واقع بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه وهو وحده الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي والشمالي ، وكان يهجم في تلك الاعصار اقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز الى ما يواليها من الجنوب وهاجموا في حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلاً وسيياً ونهباً حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وكان ذلك في القرن السابق على عهد كورش تقريباً :

(١) كما في كتاب عزرا (الاصحاح ١ : ١-٤) ودانيال (الاصحاح ٦ : ٢٨) وكتاب اشعيا (الاصحاح ٤٤ : ٢٨ و ٤٥ : ١ - ٢٧) وقد سمي في اشعيا راعي الرب وفي (٤٥) منه « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي امسكت بيمينه لأدوس امامه امماً واحقاد ملوك احل لا فتح امامه المصراعين والابواب لا تغلق : انا أسير قدامك والهضاب امهد اكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد اقصف : واعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابي : لكي تعرف اني انا الرب الذي يدعوك باسمك : لقبتك وانت لست تعرفني » :

(٢) نور الثقلين عن الامام العسكري (عليه السلام) انه رأى في المنام انه اخذ بقرني الشمس فعبر له بملك الشرق والغرب وسمي بذوي القرنين .

(٣) نور الثقلين ٣ : ٢٩٦ ج ٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل علياً (عليه السلام) ارأيت ذي القرنين كيف استطاع ان بلغ الشرق والغرب ؟ قال : سخر =

السماء فيه ظلمات ورعد وبرق^(١) وقد اكتشف تمثال « كورش » الحجري أخيراً في مشهد مرغاب جنوبي إيران ، مُثل فيه ذا قرنين^(٢) نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحدهما مائل إلى قدامه وثانيهما إلى خلفه ، وكما في كتاب دانيال في رؤياه كورش على صورة كبش ذي قرنين^(٣).

= له السحاب ومدّ له في الأسباب ويسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء وفي نقل آخر عنه (عليه السلام) فسر بسط النور بـ « كان يضيء بالليل كما يضيء بالنهار » (١) نور الثقلين ٣ : ٢٩٣ ح ٢١٥ عن الأصمغ بن نباتة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث اقتسمناه حسب مختلف مواضعه وكما في الرقم (٢) : (٢) المصدر ٢١٥ عن الأصمغ بن نباتة عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال سئل عن ذي القرنين قال : كان عبداً صالحاً واسمه عياش اختاره الله تعالى وابتعثه الى قرن من القرون الاولى في ناحية المغرب وذلك بعد طوفان نوح (عليه السلام) فضربه على قرن رأسه الايمن فمات منها ثم احياه الله بعد مائة عام بعث الله الى قرن من القرون الاولى في ناحية المشرق فكذبوه وضربوه ضربة على قرنيه الايسر فمات منها ثم احياه الله بعد مائة عام وعوضه من الضربتين اللتين على رأسه قرنين في موضع الضربتين اجوفين . . اقول واخرجه مثله في معنى قرنيه في الدر المنثور ابو الشيخ في العظمة عن ابي الوراق عن علي (عليه السلام) (٤ : ٢٤١) ورواه مثله في الاسم القمي عن ابي بصير عن الصادق (عليه السلام) :

(٣) في الاصحاح ٨ : ١ - ٩ من دانيال « في السنة الثالثة من ملك « بيلشاصر » الملك ظهرت لي انا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء فرأيت في الرؤيا وكأن في رؤياي وانا في « شوشن » القصر الذي في ولاية - عيلام : ورأيت في الرؤيا وانا عند نهر « اولاي » فرفعت يميني واذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد اعلى من الآخر والاعلى طالع أخيراً : رأيت الكبش ينطح غرباً وشمالاً وجنوباً فلم يقف حيوان قدامه ولا منفذ من يده وفعل كمرضاته وعظم . . ثم يذكر بعد تمام الرؤيا أن جبرئيل تراءى له وعبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش وقرناه مملكتا الفارس وماد ، والتيس ذو القرن الواحد على الاسكندر المقدوني . وفي « قاموس كتاب المقدس » ترجمة مستر هاكس الامريكي باللغة الفارسية ص ٧٤٣ تحت عنوان « كورس » يقول يعني : الشمس ، مؤسس الملك الفارسي وفتاح الممالك

واياً كان ذو القرنين فانما يهمننا شخصية قوية روحية منه عن التاريخ لا شخصه ، ولا مفخرة في كونه عربياً أم رومياً أم ايرانياً آمن ذا ، ولذلك أهمل القرآن إلّا عن شخصيته ولكيلا يجعل مشار التفاحرات ! فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود في قصص القرآن وإنما هو العبرة المستفادة من القصة وهي حاصلة منها دون ان تزيدنا معرفة الشخص دلالة اللهم إلّا دلالة قومية عنصرية والقرآن يطاردها !

ثم التاريخ اياً كان ومن اي كان ليس إلّا ركاماً من خليط الحق والباطل ، وبعضه باطل كله ، ولا نجد الحق كله إلّا في قصص القرآن ، فهي القصص الحق الجارفة تخيلات باطلة معتمدة او ساهية تسربت ودخلت في التاريخ !

ولئن استفتينا التاريخ حول ذي القرنين أم أي شخص مجهول ، فانما

= الاخرى ، ثم ينقل عن كتاب دانيال (٦ : ٢٨) ان دانيال كان حينذاك في ديوان كوروش وقد توفي كوروش عن الجراحة التي اصابته في حربه (٥٢٥ ق : م) : فلكوروش دور في الكتب المقدسة مجيد يهيم اهل الكتاب ولذلك سألوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن ذي القرنين ، ولا اثر في الكتب المقدسة عن شخصية هذه سيرته الا كوروش :

وما يبعد كونه كوروش إلّا اثر عن هذا الاسم في الروايات الاسلامية اطلاقاً ، ففي بعضها انه عياش^(١) وثان : اسكندر^(٢) وثالث : مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد بونن بن يافث بن نوح^(٣) ورابع : مصعب بن عبد الله من قحطان^(٤) وخامس : عبد الله بن ضحاك بن معد^(٥) والى غير ذلك :

(١) كما في تفسير العياشي عن الاصمغ بن نباتة عن علي (عليه السلام) وفي البرهان عن الثمالي عن الباقر (عليه السلام) :

(٢) كما يظهر من رواية قرب الاسناد للحميري عن الكاظم (عليه السلام) ورواية الدر المنثور عن عدة عن عقبة بن عامر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

(٣) كما في الدر المنثور عن بعض من اسلم من اهل الكتاب .

(٤) كما في البداية والنهاية (٥) البداية والنهاية عن ابن هشام في التيجان .

نصدق منه ما يصدقه القرآن ، ونكذب ما يكذبه ونتردد فيما يسكت عنه !
دون أن نستفتيه كأصل نفرع عليه القرآن فانه منكر من القول وزور !
ثم هؤلاء الأذواء الثلاثة المؤمنون لكل منهم رجاحة متقابلة ، فاليميني
يترجح بان اليمن بلد الأذواد قرابة مائة، واليوناني يترجح لشهرته العالمية
بذي القرنين وذكره في بعض احاديثنا ورغم وفرة الأذواء في اليمين فلا
قرنين فيه ! والايрани يترجح لذكره في التوراة ولكن ليس فيه ذو ولا قرنين
اللهم الا وصغباً ولكل وجه .

﴿ إنا ملكتنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾^(٨٤).

دعامتان الهيئتان لهذه السلطة العالمية المنقطعة النظير ، اللهم إلا في داوود
وسليمان (عليهما السلام) سلفاً ، وفي المهدي القائم من آل محمد (صلى
الله عليه وآله وسلم) خلفاً : ١- تمكين إلهي في الأرض كلها - ٢- وسبب
إلهي من كل شيء على ضوء هذا التمكين وفي سبيله !

هنالك تمكين للمترفين الأثرياء ذوي السلطة والكبرياء يعني امتحاناً
وامتحاناً وهو من مخلفات التخاذل من أهل الدين المستضعفين : « أولم يروا
كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض » (٦ : ٦) ومن ثم
تمكين لبسط الخير اكراماً لمن يعرفون نعمة الله ويشكرونها : «الذين إن
مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن
المنكر والله عاقبة الامور» (٢٢ : ٤١) .

وذلك التمكين قد يكون جانبياً كما في يوسف « وكذلك مكنا ليوسف
في الأرض .. » (١٢ : ٢١) حيث يخص أرض مصر ، وآخر عالمي في
درجات اعلاها لبقية الله وحجته الكبرى وآيته العظمى محمد بن الحسن
المهدي صلوات الله عليه وعلى آباءه الكرام ، تمكين له ولصحبه الخصوص
ولمن تابعه على وجه العموم : «وعد الله الذي آمنوا منكم وعملوا الصالحات

ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» (٢٤ : ٥٥) .

ثم وأدنى منها ما كان لداود وسليمان بين النبيين والذي القرنين بين الملوك الصالحين ، وأدنى منه ما كان لطالوت آمن ذا ؟

«إنا مكنا له» في تأكيدات ثلاثة ترفع من شأن هذه السلطة المباركة و «في الأرض» تعممها في كافة أرجاء المعمورة ، فقد ذلت له الصعاب واستسلمت له البلاد !

والسبب اياً كان هو الذي يتوسل به الى غاية لا تحصل إلا به ، من عقلي او علمي او عملي .

ثم الاسباب لبسط الملك اماذا ؟ قد تكون حاضرة ظاهرة ، وأخرى حاضرة غير ظاهرة ، ام ظاهرة غير حاضرة تحصل بمحاولة بشرية مهما طالت ام قصرت ، صعبت ام يُسّرت ، فهي في نطاق العلم والقدرة البشرية ممكنة ! وثالثة لا من هذه ولا تلك ، بل هي خفية عن العلم بعيدة عن القدرة ، فلا يؤتيها إلا الله لمن يشاء ويرضى ! « وآتيناه من كل شيء سبباً » يعني ثالثتها وهي الاسباب الخارقة الإلهية التي تقصر دون التوسل بها العقول والعلوم وسائر القدرات غير الإلهية !

و « كل شيء » هنا لا يعني الاستغراق الشامل لسبب الوحي والنبوة واضرابها ! وانما « كل شيء » في سبيل تمكينه في الأرض ، ثم ولا يعني كلاً من هذا الكل ، وانما البعض من كل قدر ما يحتاجه كما تلمح له « من » ! فقد آتاه الله بعضاً من الاسباب اللاتقة من كل شيء في سبيل تمكينه

في الارض، من اسباب معرفة الحق الناصع الصراح عن الباطل^(١) ومن اسباب السفر كالسحاب الذلول أَمَازَا؟^(٢) ومن اسباب الضوء حيث تضيء له ليلاً كما تضيء الشمس نهاراً فهو ذو قرني الليل و النهار حيث هما عليه سواء ؟

ومن اسباب الشبع والريِّ مَنَّا او سلوى أَمَازَا ؟ ثم ومن أسباب التفتح في مشارق الأرض ومغاربها كسبب تفهّم مختلف اللغات^(٣) واضرابه كالطرق

(١) المصدر ج ٢١٦ ص ٣٠٤ عن تفسير العياشي جبرئيل بن احمد عن موسى بن جعفر رفعه الى ابي عبدالله (عليه السلام) قال : ان ذا القرنين عمل صندوقاً من قوارير ثم حمل في مسيره ما شاء الله ثم ركب البحر . .

و ٢١٥ العياشي عن الاصبغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) قال : سأل عن ذي القرنين - ثم سار في جوابه (عليه السلام) الى قوله : (ثم رفعه الى السماء الدنيا فكشط له عن الارض كلها جبالها وسهولها وفجاجها حتى ابصر ما بين المشرق والمغرب وآتاه الله من كل شيء يعرف به الحق والباطل وايده في قرنيه بكشف من السماء فيه ظلمات ورعد ويرق ثم اهبط الى الارض واوحى اليه ان يبر في ناحية غربي الارض وشرقيها فقد طويت لك البلاد وذُلَّتْ لك العباد فأرهبتهم منك ، فسار ذو القرنين الى ناحية المغرب فلم يبلغ مغرب الشمس حتى دان له اهل المشرق والمغرب وذلك قول الله : انا مكننا له في الارض وآتيناه من كل شيء سبباً

(٢) في الدر المنثور ٤ : ٢٤٢ - اخرج ابن ابي حاتم عن قتادة . . فخير بين ذلال السحاب وصعابها فاختر ذلالها فكان يركب عليها

وفي تفسير البرهان ٢ : ٤٨١ ج ١١ عن الباقر (عليه السلام) اما ان ذا القرنين قد خير بين السحابتين فاختر الذلول وذخر لصاحبكم الصعب فقلت : وما الصعب ؟ فقال : ما كان من سحاب فيه رعد وصاعقة ويرق فصاحبكم يركبه اما انه يركب السحاب ويرقى في الاسباب اسباب السماوات السبع والارضين السبع خمس عوامر وثنان خراب .

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٤٧ - اخرج ابن ابي حاتم عن ابن زيد في قوله : وآتيناه من كل شيء سبباً قال : علماً من ذلك تعليم الالسنه كان لا يعرف قوماً الا كلمهم بلسانهم .

وكلها خارقة إلهية .

تُذكر له في تالية الآيات ثلاثة أسباب لثلاثة أسفار بعيدة المدى ، قد تكون هي من أهم الأسباب التي أوتيتها في سفراته ، وقد اطبقت أحاديثنا أنها السحاب الذلول وان الصعب منها تختص بالامام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف (١) .

ولان « سبباً » تأتي بنفس الصيغة ثلاث مرات ، دون أن تأتي ثانية وثالثة « السبب » اشارة الى الاول ، فقد تعني ثلاث مركبات فضائية مهما كانت كلها من صعبة السحاب اماذا ؟

هنالك أسباب غيبية أرضية أم فوق الارضية ام السماوية تُستخدم في مثلث الأسفار بما آتاه الله ، قد يشار الى وجودها وإمكانية التسبب بها : « ام لهم ملك السماوات والارض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب » (٣٨ : ١٠) ولولا أن هناك أسباباً ترقى الى السماوات لم يكن لهذا التحدي مجال على أية حال ، ومنها المركبة المعراجية المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد يشار الى إمكانية الارتقاء الى السماء باسباب مصطنعة اماذا ؟ : « من كان يظن ان لن ينصره الله فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » (٢٢ : ١٥) .

ولقد خيل الى فرعون إمكانية البلوغ إلى أسباب السماوات ، وطبعاً لم

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٩٦ ج ٢١٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة سأل رجل عالياً (عليه السلام) أرايت ذا القرنين كيف استطاع ان بلغ الشرق والغرب ؟ قال : سخر له السحاب ومد له في الاسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء و ٢١٣ في تفسير العياشي عن ابي بصير (عليه السلام) قال : ان ذا القرنين خير بين السحاب الصعب والسحاب الذلول فاختار الذلول فكان اذا انتهى الى قوم كان رسول نفسه اليهم لكي لا يكذب الرسل .

يك يعرف واقعها إلا بمعرفة الوحي من موسى ام سواه : « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي ابلغ الاسباب . أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى واني لأظنه كاذباً » (٤٠ : ٣٧)^(١).

﴿ المركبة الفضائية الاولى للذي القرنين ﴾

﴿ فأتبع سبياً^(٨٥) حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حُمَته ووجد عندنا قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً^(٨٦) قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً^(٨٧) وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من امرنا يسراً^(٨٨) .

هل الإتياع هو الإلحاق يتبعه مفعولان ؟ كما فأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة « (٢٨ : ٤٢) إذاً فما هو المفعول الثاني لـ « أتبع سبياً ؟ ! ام هو اللحق ولا يتبع إلا مفعولاً واحداً : « فأتبعه الشيطان » ؟ (٧ : ١٧٥) أو أنه كما نراه يستعمل متعدياً الى مفعول واحد أحياناً وإلى مفعولين أخرى ؟ إذاً أليس من الأفصح « فتبع » نصاً في اللحق ؟ ولكنه قد يعني في مفعول واحد سرعة اللحق وكما نراها في موارد^(٢).

وهذه طبيعة الحال في المركبة الفضائية السحابية ام ماذا ؟ وهي دائبة السير ، فليلحقها ذو القرنين سريعاً كما لحقها ! « حتى إذا بلغ مغرب الشمس » وهو المغرب الأقصى ، وبينه وبينه شاسعة المسافة بين المشرق الأوسط أو الأدنى الى المغرب الأقصى ، ولا تتجاز تلك البعيدة المدى شيئاً

(١) راجع تفسير الآية في المؤمن تجد فيه تفصيلاً عن أسباب السماوات .

(٢) فأتبعهم فرعون وجنوده « (١٠ : ٩٠) » فأتبعهم فرعون بجنوده « (٢٠ : ٧٨) »

« فأتبعوهم مشرقين » (٢٦ : ٦٠) « فأتبعه شهاب مبين » (١٥ : ١٨) أو «

ثاقب » (٣٧ : ١٠) .

او ركوباً بالوسائل القديمة إلا في سنين بمعدلات قد تستحيل مهما طال الزمن ، وهي اولى السفرات الثلاث الطائلة لذي القرنين ، فلولا أنه « أتبع سبياً » سماوياً آتاه الله لما قطع واحدة منها إلا انقطع ولما !

مغرب الشمس وقتذاك هو آخر المعمورة اليابسة من الجانب الغربي ، وإلا فلا مغرب للشمس كنقطة خاصة من المعمورة ، ولكل أفق من الشمس مشرق ومغرب عدد أيام السنة ! .

فلأن ذا القرنين كان من الشرقيين أياً كان ، فمغرب الشمس بالنسبة الى مبدئه في سفرته هو المغرب الأقصى الى جانب البحر حيث الأفق البحري لغروبها مدُ البصر في البحر ، هو بحر الظلمات المسمى بالمحيط الأطلانطيقي .

«وجدها تغرب في عين حمئة» أترى الشمس تغرب في عين حمئة أم غير حمته ، ولا غروب حقيقياً للشمس ، فلها مشارق ومغارب منذ خلقت حتى يوم تكويرها ، دون شروق مطلق ، أم غروب مطلق بالنسبة لارضنا وأضرابها ، أم هي شارقة دون غروب بالنسبة لنفسها .. ثم وهي في مشارقها ومغاربها ، وفي مشرقها ومغربها ، وفي مشرقها ومغربها ، لا تشرق او تغرب إلا في ملتقى أفقي الارض برياً او بحرياً وافق السماء^(١) دون عين حمئة أماذا ؟

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٦ ج ٢٢١ في كتاب التوحيد حديث طويل عن ابي ذر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : كنت أخذاً بيد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ونحن نتماشى جميعاً فما زلنا ننظر الى الشمس حتى غابت فقلت : يا رسول الله ! (صلى الله عليه وآله وسلم) أتى تغيب الشمس ؟ قال : في السماء ثم ترفع من سماء الى سماء حتى ترفع الى السماء السابعة . . اقول قوله « في السماء » ظاهر لا مرية فيه انها تغرب في ملتقى الأفقين الارضي والسماوي ، واما « ترفع في سماء الى سماء » . . حتى ترفع الى السماء السابعة » انه اما مؤول او مختلق مردود ، وتأويله انه =

نجد الجواب في الآية نفسها : « وجدها تغرب .. » لا أنها « غربت » فهي ينظر الى منظرها في غروبها دون واقعه « وجدها .. » بياناً لمتهى المعمورة الغربية بالمحيط البحري الأطلانطيقي .

فكما أننا نجد الشمس تغرب في الأفاق الصحراوية ، في قلل الجبال او الأتلال او مستوية الأرض أماًذا ، كذلك سكان الجزائر لا يجدون غروب الشمس او وطلوعها إلا في الأفاق البحرية .

وكان ذا القرنين وصل الى نقطة على شاطئ المحيط الاطلسي (بحر الظلمات) حيث يُخَيَّل ان اليابسة منتهية عنده ، وكان عند مصب أحد الانهار حيث تكثر فيه الأعشاب وتتجمع حولها طين حُمى : لزج ، فرأى

= صلى الله عليه وآله وسلم (اقتسم ملتقى الأفاق الارضية السماوية الى سبعة ولماذا ؟ لا ندري ! ان الشمس تحول حول الارض ويتراى لها مغارب سبعة وعَلَّها في الاقاليم السبعة أم ماذا .

ثم اقول : وما روي ان الشمس تغرب وتطلع بين قرني الشيطان اختلاق ممن يكرهون الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ، ولم ترد في بعض رواياتنا الا تقية ففي الكافي عن محمد بن مسلم عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : يصلى على الجنائزة في كل ساعة ، انها ليست بصلاة ركوع ولا سجود وانما تكره الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها التي فيها الخشوع والركوع والسجود لانها تغرب بين قرني الشيطان وتطلع بين قرني الشيطان « وتقية الفرار هنا لائحة ، حيث النص الذي يروون ان كان بلفظة الصلاة فيشمل كل صلاة ، وان كان نصاً فيما فيها الركوع والسجود لم تك حاجة الى الاستدلال ، ثم الخشوع يعم كل صلاة دون اختصاص بما فيها الركوع والسجود ، ثم نرى نقضاً صارماً يبحث هذه الحكمة المختلقة او انها تقية ، فيما اخرجه اكمال الدين وتمام النعمة باسناده الى محمد بن جعفر الاسدي قال كان فيما يورد علي من الشيخ ابي جعفر محمد بن عثمان العمري في جواب مسائي الى صاحب الزمان : واماما سألت عنه من الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها ولئن كان كما يقولون ان الشمس تطلع بين قرني الشيطان وتغيب بين قرني الشيطان فلا شيء افضل من الصلاة وأرغم أنف الشيطان ! .

الشمس تغرب هناك كأنها « عين حمئة » : المحيط الغربي الذي فيه الجزائر « الخالدات » حيث كانت مبدء الطول الجغرافي مسبقاً ثم غرقت .

والعين الحمئة قد تعني إضافة الى السوداء حيث الحمأة هي الطين الاسود ، قد تعني الحارة حيث الحمأ هي الحرار المتولدة من الجواهر المحمية والمغرب الأقصى في افريقيا الحارة من أحر ما فيها ، فبحره حار كما برّه ، فهي « عين حمئة » في حماتين ! حرارة في سواد وحمرة ، كما الشمس ترى عند غروبها محمرة .

لا نعرف بالضبط المحدّد ذلك المكان إلا ما عرفنا الله « تغرب في عين حمئة » وكفانا !

وانما القصد القوم الذين عند المغرب الأقصى حيث ظلّموا وأتاهم ذو القرنين تأديباً وتقويماً : « ووجد عندها قوماً » ٨٦ ؟ وجد عند الشمس في مغربها قوماً ، في منتهى اليابسة الغربية ، لا عند الشمس ذاتها ! ام عند العين الحمئة فيفيد نفس المعنى .

يجد هناك قوماً حمئاً عند عين حمأة . اتراه تغاضياً عن أقوام ظالمين بينه وبين مغرب الشمس والأقرب يمنع الأبعد ؟ طبيعة رسالة عادلة كملكية كهذه تقتضي وتقضي بعدم التغاضي ، ولكنه كيف ؟ لا ندري !

﴿ .. قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ (٨٦) .

هل القول الخطاب هنا دليل على نبوة للمخاطب ؟ كلا ! حيث الخطاب اعم من وحي النبوة والإلهام كما في مريم وأم موسى وآدم قبل توبته وقد يجوز انه كان معه نبي يوحى اليه بواسطته كما كان لطالوت بنبي معه !

وترى التردد التخيير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس تخييراً بين الحسن والقبيح ، لقرن التعذيب باتخاذ الحسن ؟

اتخاذ الحسن فيهم هو السماح عما يستحقونه من النكال رجاء الرجوع والتوبة ، والتعذيب لتحقيق النكال ، وكل يتبع ظرفه الصالح ، اذاً فالتخير هنالك صالح ! تخويلاً قيادياً صالحاً لسلطة صالحة حسب المصلحيات العادلة الفاضلة .

وترى كلهم كانوا ظالمين يستحقون العذاب ؟ وتقسمهم في الجواب « أما من ظلم .. واما من آمن .. » يطارده ! أم جلّهم والباقون لا يستحقون العذاب ؟ فلكل حكمه ولا تخيير !

إنهم جلّهم وليس التخير إلا فيهم ، فلم يقل « إما أن تعذبهم » وإنما « تعذب » يعني من يستحق العذاب منهم « وإما ان تتخذ فيهم » هم أنفسهم « حسناً » .

« قال أما من ظلم فسوف نعذبه .. »^(٨٧) يعني استمرارية الظلم من قبل وحتى لقاء ذي القرنين دون ان يفيق فيؤمن^(١) فلا مجال له إلا عذابه « واما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى .. » آمن بعد كفره توبة عما سلف فحسن ، ام آمن من قبل واستمر في ايمانه فأحسن ، ولكل حسب ايمانه وعمله الصالح عِدَّةٌ وعِدَّةٌ ومُدَّةٌ « جزاء الحسنى » : أحسن مما آمن وعمل صالحاً فضلاً من ربك عطائاً حساباً ! .

والتخير بين التعذيب واتخاذ الحسن ليس إلا في فيمن آمن بعد ظلمه ، وقد يشمل المستمر على كفره في فرض بعيد ، اللهم إلا في غير الواجب قتله جوازاً في قتله والسماح عنه ، تخيراً عاقلاً عادلاً دون فوضى وكما في المحاربين والمفسدين في الأرض : « إنما جزاء الذين يحاربون الله

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٩٨ ج ٢١٥ عن امير المؤمنين (عليه السلام) « أما من ظلم ، ولم يؤمن اقول : يعني لم يؤمن عند ذي القرنين بعد كفره قبله ، ولم يقل واما الظالم لكيلا يشمل الذي ظلم سابقاً ثم تاب عن ظلمه فأمن .

ورسوله ويسعون في الارض فساداً أن يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفسوا من الارض . . » فالتخير هناك كالتخير هنا راجع الى ما يختاره الحاكم الشرعي وفق مختلف الموازين في مختلف المجرمين دون ان يكون اعمى وفوضى ان يجزى اقل الساعين في الأرض فساداً قتلاً ، ثم ينفي اشد المحاريين حبساً !

المعذب هنا يعذب حسب مرسوم الشرعة الإلهية بيناً وعرفاً : « فسوف نعذبه » ومن ثم نكرأ : غير معروف ولا منتظر هنا « ثم يرد الى ربه فيعذبه عذاباً نكرأ » حيث ظلم دون إفاقة بعد الذكرى ورؤية البأس ، وإما التائب عند رؤية البأس فقد لا يُعذب هنا إذا كانت توبة صادقة او تُحتمل ، ثم أمره الى ربه !

فالظرف هنا للظالمين الجُلُ بمختلف ظلمهم ، وتوبتهم وعدم توبتهم ، هو يقتضي تحيّر الحاكم فيهم كما اختار ذو القرنين وما أحسنه ، وحسب مرسوم الشرعة العادلة والفاضلة الإلهية : إعلاناً في هذه الإذاعة القرآنية أن للظالمين المعتدين عذابهم عاجلاً ، وأجلاً يزيد نكرأ ، ولغير المعتدين منهم إمهال دون إعجال رجاء الرجوع الى عدلهم ، وللتائبين الأتيين قول يُسر دون عُسر « وسنقول له من أمرنا يسراً » دون تعذيب ولا تأنيب في قولة لاذعة ، فالإسلام يُحب ما قبله ! وإنما قول يُسر حيث تاب عما سلف : « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الاولين » (٨ : ٣٨) ثم قول يُسر فيما يتوجب عليه تداركاً لما قد سلف ، والأمر في « من إمرنا » شرعي للحاكم المتمكن ، إشارة الى أنني لست ممن يتذرع الحكم للقول العسر والتكليف العسر ، وإنما يسر في يسر .

ثم مقابلة « من ظلم » بـ « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » يوسع نطاق الظلم الى كفر عقائدي وعملي لازماً او متعدياً ، والى فسق عملي لمن آمن على مراتبها بأحكامها الجزائية .

وما هو « جزاء الحسنی » للذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ انه جزاء أحسن مما عمل ومما يجزى في الحياة الدنيا ، فهناك تصریحة بعذاب الدنيا لمن ظلم « فنعذبه » لانه ثابت حكماً على أية حال وعملاً لمن مكن في الأرض ، وهنا تلمیحة للجزاء الحسن وتصریحة بالأحسن حيث الثواب يوم الدنيا غير ثابت ولا موعود إلا أحياناً ! .

ولماذا « جزاء » منصوباً ؟ لان الحسنی مبتدأ لـ « له » وقدم الخبر للحصر « له لا لسواه » : فله الحسنی جزاءً ، والنصب على التمييز ، دون حاجة الى تكلفات أدبية أخرى لا يرضاها أدب القرآن ! : فله - فقط - من حيث الجزاء المثوبة الحسنی أحسن مما قدم ويستحقه في الحياة الدنيا^(١) .

وهذه طريقة مثلى ومعاملة حسنة مع فريقى الظلم والایمان ، تخيراً للمحاكم المبسوط اليد بالتى هي أحسن في « إما . . وإما » دون تخير فوضى وأعمى ، وإنما عدل صارم عقاباً لزاماً ، وفضل كارم ثواباً كراماً !

إنه ليس الحكم والسلطة الإلهية ظلماً وزوراً وغروراً ما وجدت لها سبيلاً ، وإنما هي رحمة على المجموعة وقضيتها القضاء على المعتدين ، فإمهاهم اعتداء على المظلومين ، فهي رحمة ما وجدت لها سبيلاً وحتى للذين ظلموا اذا كان السماح عنهم لا يضر بالمجموعة وان لم تنفعهم توبة ، فضلاً عما يفيق ويتوب ، دستور إصلاحى بكل معانيه ، يتبنى الإصلاح بكل مبانيه !

نرى القمة الرفیعة من هذا الدستور في الشرعة الإسلامية ، وتدلنا سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من آل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على مدى هذه الأخلاق الفاضلة ومن نماذجها « إرفع

(١) فالحسنی وصف لمقدر المثوبة وجزاء تمييز عن سائر ما له في الأخرى ، وتقديم جزاء لافادة تهیء أكثر من العادة ، وما أحسنه لفظاً ومعنى ! .

بالتى هي أحسن السيئة « (٢٣ : ٩٦) فقد يُدفع السيء بالسماح ، أم إذا لزم الأمر لدفع ظلمه بتأديب وتأنيب كما يصلحه أو يحجز عن ظلمه ، وأخيراً كآخر الدواء الكي ، القتل ، إذا كانت حياته على أية حال ظلماً على المجموعة ، فكل ذلك الدفع ليس إلا بالتى هي أحسن ، وكصورة اولى .. فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم « (٤١ : ٣٤) ! .

ان التعذيب في « إما ان تعذب » يشمل مراتب النكال هنا اعتداءً بالمثل أو دون ذلك ، من ضرب الى قتل وبينهما متوسطات ، وكما أن حسن الجزاء وحسنه في الاولى والاخرى له درجات حسب الدرجات « ولا يظلم ربك أحداً » .

وبصيغة اخرى إن تحقيق ذلك التخير في مراتب التعذيب وحسن الجزاء هو يمثل « وإما ان تتخذ فيهم حسناً » فان تعذيب الظالمين إحسان بالمجموعة وحتى بالنسبة للظالمين رجاء رجوعهم ام - لاقل تقدير - تقليلاً لظلمهم . فلو ظلوا طويلاً لأضلوا وظلموا كثيراً !

كما ومن اتخاذ الحسن فيهم إرشادهم عن غيهم ومساعدتهم عن عيهم ولكي يجيدوا الايمان وعمل الصالحات ويحيدوا عن الطالحات .

« ثم أتبع سبباً^(٨٩) حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً كذلك وقد أحننا بما لديه خبراً^(٩١) .

خطوة ثانية في مثلث الرحلة كانها أطولها فانها من أقصى المغرب الى أقصى المشرق طوال اليابسة الأرضية مهما كانت بينهما بحار وأنهار !

و « ثم » هنا تلمح للتراخي بين وصوله الى أقصى المغرب ومغادرته عنها ، وهذه طبيعة الحال في سفرة اصلاحية كهذه ، وفي قوم لم تسبق لهم سابقة إصلاح كهذه السابعة اللائقة ، هذا وإن كنا لا ندري زمن ذلك المكوث اللهم إلا لمحة ثمة من « ثم » .

« ثم اتبع سبياً » وتنكير « سبياً » يدلنا انه غير السبب الاول شخصاً ،
 مهما كان من جنسه امّاذاً ؟ فلا يهمننا شخص السبب ولا جنسه ونوعه ،
 وإنّا « سبياً » إلهياً لم يحصل إلّا بما آتاه الله .

اتبعه لحوقاً سريعاً « حتى إذا بلغ مطلع الشمس » مطلعها من أقصى
 الآفاق الشرقية في عين الرائي ، وكما في مغربها لاقصاه ، في يابسة المعمورة
 بجانب البحر المحيط ، فما قيل عن مغرب الشمس يقال عن مطلعها دون
 اختلاف بينهما إلا فارق المغرب عن المشرق وعين حمّة .

﴿ .. وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ لا ستراً
 خلقياً من مرتفعات غابات وجبال واشجار واتلال ، ولا ستراً مصطنعاً من
 بيوت^(١) او خيام امّاذاً فتنكير « ستراً » يستغرق نفى الستر ايا كان وحتى
 الملابس^(٢) فانها ستراً عن الحر والقر ! ومهما كان جعله إلهياً دون وسيط من
 سكان الشرق الأقصى حينذاك ، كالأول ، ام بوسيط كالثاني ، فهما على أية
 حال راجعان إلى الله !

إذا فهم قوم بدائيون ومن أبادهم ، كانوا يسكنون في أرض مستوية

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٧ ج ٢٢٢ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي جعفر
 عليه السلام (في قول الله عز وجل « لم يجعل لهم من دونها ستراً كذلك .. » قال : لم
 يعلموا صنعة البيوت

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٤٩ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن
 ابن جريح في قوله « حتى إذا بلغ مطلع الشمس الآية قال : حدثت عن الحسن عن
 سمرة بن جندب قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « لم نجعل لهم من دونها
 ستراً » انها لم يبن فيها بناء قط كانوا اذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم حتى نزول
 الشمس اقول : وقد لا يلائم هذا الحديث استغراق النفي في « ستراً » حيث الاسراب
 ستر كما البيوت .

(٢) المصدر في تفسير القمي في الآية قال « لم يعلموا صنعة الثياب » اقول : تشمل
 الخيام .

سورة الكهف / آية ٨٩ - ٩١ ١٩٧

مكشوفة لاتظلمهم إلا شمسهم ولا تقلهم إلا ارضهم ، دون اي ظل أو قل سواها ! ف « قد احرقتهم الشمس وغيّرت أجسادهم وألوانهم حتى صيرتهم كالظلمة »^(١).

فهل كانوا كلهم مؤمنين ؟ وهو في العادة مستحيل وهذه البدائة القاحلة البعيدة عن الدعوات الإلهية أم وسواها ! ثم ولماذا لم يحدث لنا بحديثهم البارع أو حديثه لهم !

أم كانوا كلهم فاسقين ؟ فأحرى بهذا المصلح لإصلاحاً لهم أو تعذيباً ولم يلمح هنا بشيء في هذا البين !

أم كالقوم الاول : منهم مؤمنون ومنهم دون ذلك ؟ فلماذا لم يكرر لهم ما حصل لهؤلاء « تلك اذا قسمة ضيزى »!

واذا هم خارجون عن هذا المثلث من المكلفين فمن هم إذا ؟ ولماذا يتحمل هذا المصلح العالمي الكبير هذه السفرة البعيدة المدى ، وهي ابعد من الاولى والاخرى ، دون انتاج له ولهم ؟ !

يبدو كما تلمّحناه أنهم من أبدى البدائيين ، كانوا ضلّالاً غير عارفين ، لا مؤمنين ولا فاسقين ، ومهما كانوا هم من المكلفين ، فهم ممن لا يهتدون سبيلاً ، منقطعين عن وحي الرسالات أم بلهاء لا يعرفونها ، إذا فهم مُرَجَّون لأمر الله في مختلف الدرجات تكليفاً وجزاء : ١ - « والسابقون الاولون »^(١٠٠) - ٢ - « ومن اهل المدينة مردوا على النفاق »^(١٠١) - ٣ - « وآخرون اعترفوا بذنوبهم »^(١٠٢) « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » . فينبئكم بما كنتم تعملون^(١٠٥) » فهؤلاء الثلاث من قمة الايمان ودرك الكفر والمتوسط بينهما ، له ما اصلح وعليه ما أطلع ، ومن ثم رابع

(١) من حديث الاصمغ بن نباتة عن امير المؤمنين (عليه السلام) .

« وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وأما يتوب عليهم والله عليم حكيم »
(٩ : ١٠٦) .

وقد يكون القوم في أقصى المشرق حينذاك من أبدى البدائيين من « وآخرون » فليس لذي القرنين كثير شغل معهم مهما أرشدهم كما يستطيعون ، كما قد يلمح له « وقد أحطنا بما لديه خبراً » وكما يلمح لغاية أخرى من هذه السفرة أن يحيط خبراً بأدنى المكلفين في المعمورة .

« أحطنا » هنا تضرب إلى أعماق الماضي لحد الحال والاستقبال في ذي القرنين على أية حال، ولكن الخبر المحاط لربنا قد يخبرنا به وقد يسكت عنه دون ضئيلة ، وانما بحكمة كما هنا ، وعلنا نستعمل نحن ما لدينا من طاقات واستنباطات كالذي قلنا .

﴿ ثم اتبع سبياً^(٩٢) حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً^(٩٣) قالوا يا ذا القرنين . ﴿^(٩٤) .

خطوة ثالثة هي الأخيرة من هذه الرحلة العالمية ، يُتبع فيها سبياً ثالثاً نقول فيه مثل الذي قلناه في الثانية ، فهي غير الاولى والثانية ، وعلّه من نوعه لمكان التنكير « سبياً » :

﴿ حتى إذا بلغ بين السدين ﴾ سفرة بسببه من أقصى المشرق الى « بين السدين » فاين هو؟ لحد الآن لا ندريه ! وأما من هم « قوماً لا يكادون يفقهون قولاً »؟ وإذا لا يفقهون فكيف « قالوا يا ذا القرنين . . ؟ !

نحن لا نعرفهم ولا مكانهم إلا ما عرفه القرآن أنه « بين السدين » وهو طبعاً بين أقصى الشرق والغرب شمالاً او جنوباً أماذا ؟ فانه قطعاً ليس مشرق الشمس او مغربها حيث بلغها قبل هذه .

ثم « السدين » هما ما يسدان ويحجزان ، أهما صناعيان ؟ وانما

الصناعي لغرض صد الماء دفعاً لضربه او انتفاعاً من جمعه ! والفتحة ناقضة لهذا القصد، او صد الهجمات عن وراء السدين ؟ وهذان السدان لم يكونا صدين لأي هاجم ، حيث الفتحة بينهما عمر لكل ماراً ، وقد طلبوا إليه أن يجعل بينهم وبين المفسدين سداً ! ثم وهم على سذاجتهم لحد لا يكادون يفقهون قولاً لم يكونوا ليفقهوا صناعة سد وقد فقهها المهندسون في دور التقدم والرقي ، ثم ولم يكملوا الصد في السدين طمأ للفتحة بينهما ؟ !

إذاً فهما حاجزان طبيعيان لا يُظهر عليهما ولا يُنقبان « فما استطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقباً » وان كان يختص هنا بالردم ، ولكن السدين ان لم يكونا في هذا الاختصاص كالردم ، كان جعل الردم دون فائدة !

إذاً فهما جبالان^(١) صلبان شاهقان ، لا ينقصهما حجزاً عن الهاجمين إلا ردم بينهما وقد طلبوه إليه ! وقد يلمح لذلك « حتى إذا ساوى بين الصدفين » : الجانبين الصليين .

﴿ لا يكادون يفقهون قولاً ﴾^(٢) لا يعني إلا النفي المعمق لفقه القول ، لا نفي القول ، فرب قائل لا يفقه ما يقال له ولكنه يفقه ما يقول ! او يكاد يفقه قولاً .

ثم « قولاً » قد يعني معنى صالحاً من قوله ، لا لغة ، فانهم - لأقل تقدير - يفقهون لغتهم وقد تكلموا بها « قالوا يا ذا القرنين . . » ولا يرجى من أهل كل لغة إلا تفهم لغته دون اللغات الاخرى .

فعلهم كانوا في بساطتهم وسذاجتهم لحد لا يفقهون قول اي قائل سواهم اللهم إلا من هو في مستواهم ، وذو القرنين كان يتحدث مع أهل

(١) في حديث الاصبغ عن امير المؤمنين (عليه السلام) « قالوا يا ذا القرنين ان ياجوج وماجوج » خلف هذين الجبلين وهم يفسدون في الارض .

كل لغة بلغتهم بسبب إلهي آتاه الله من كل شيء ومنه شيء اللغة ، ولكنهم « لا يكادون يفقهون قولاً » فقد لا يفقه الإنسان قولاً ولكنه يفقه لاستعداداته ان يفقه بمحاولة ، وقد لا يستعد التفقه ولكنه يكاد أن يستعد يفقه ، ولكن هؤلاء كانوا في البساطة وخفة الفهم لحد « لا يكادون يفقهون قولاً » أيأ كان هذا القول إلا ممن هو في مستواهم ، ويردد عليهم مفاهيمهم دون ان يخطوها الى سواها ، وذو القرنين يريد ليحدثهم بلغتهم وبكل بساطة ، إلا أنهم « لا يكادون » حيث الفقه هو التوصل بعلم حاضر الى علم غائب ، وهم غيب عن تفهم اي غائب فـ « قولاً » يعني قولاً يحتاج الى تأمل وتفقه .

هنا يأس هذا المصلح العالمي ان يفيدهم فقهاً ويزيدهم علماً ، فهل يذرهم بعد وعشاء السفر دونما افادة ؟ كلا - إنه أصغى اليهم ما هي متطلباتهم فـ « قالوا يا ذا القرنين ... » ! فهم مهمل لا يفقهون قولاً فقد يفقهون الخطر الحادق عليهم ليل نهار من « ياجوج ومأجوج » فلما رأوه صالحاً قوياً مصلحاً تطلبوا إليه صد المفسدين أن يجعل سداً .

﴿ قالوا يا ذا القرنين إن ياجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيتنا بينهم سداً ﴾ (٩٤) :

إنهم على بساطتهم يرون فيه فاتحاً عدلاً قوياً صارماً يتوسمون فيه الصلاح والاصلاح وهم مستضعفون تحت وطأة الإفساد الذائب من وراء السدين من « ياجوج ومأجوج » حيث كانوا يهاجمونهم من وراء السدين فيعيشون في أرضهم فساداً وهم ضعاف عن مقابلتهم ، إفساداً في النسل والزرع (٩٥) اماذا ؟

(٩١) في حديث الاصبغ عن امير المؤمنين (عليه السلام) . . اذا كان اiban زروعنا وثمارنا خرجوا علينا من هذين السدين فرعوا من ثمارنا وزروعنا حتى لا يبقون منها شيئاً

﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾؟ ذات دالتين على التماسهم منه ١ - «أن تجعل بيننا وبينهم سداً» ٢ - هل تجعل سداً - وإذاً فهل نجعل لك خرجاً: اجراً تُخرجه عما تُخرجه من مال أو قوة؟ دون زيادة عنهما، والأجر أعم من الخرج، فقد يتأجر أكثر مما يُخرج اعتباراً بلباقة الرأي ولياقة صاحب الرأي، وهو عدل ما لم يُجحف، أو يسوي بين خرجه وأجره وهو فضل إذ لم يأخذ على تخصصه شيئاً، أم لا يأخذ خرجاً وإنما يساعد طالب العمل العاجز بنفسه فيه، يساعده في طلبه، وهو فضل حيث اشتغل دون عوض، وتفضل على صاحب العمل حيث استعمله كما يسطع دون بطالة، وهكذا يفعل ذو القرنين، كأفضل ما يمكن أن يقدمه مصلح قوي حكيم لمستضعفين مظلومين، يتعاون معهم في صالحهم، دون أن يأخذ أجراً أو خرجاً إلا أن يستعملهم لما يطلبون إعانة بقوة ومال هما خرج للردم ودون أن يكون له شيء إلا أجر من ربه .

فذو القرنين يبلغ بين السدين، ويُطلب منه أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سداً، أن يصد بين السدين تخلصاً لهم عن افسادهم في ارضهم، مما يبين كونهم مستضعفين وغير ظالمين، وإلا تطلبوا إليه صد الافساد فيما بينهم كما بينهم وبين المفسدين وراء السدين، وبطبيعة الحال هؤلاء البله الذين لا يكادون يفقهون قولاً لا يسطعون الإفساد، أم إذا استطاعوه لم يكونوا ليفسدوا فيما بينهم، يدل على كل ذلك تطلبهم إلى هذا المصلح العظيم أن يجعل سداً هو صد عن الإفساد في ارضهم !

من هذه الدعوة على بساطتها ومن تلكم الاجابة الخارقة في ذلك التعاون الصارم ندرس مدى وجوب صد الافساد من اي كان وأيا كان وأيان ! تكريساً لكافة الطاقات البشرية مع التوصل بامدادات إلهية، خروجا عن الإستضعاف وغيث الفساد، دون أي مبرر لأية جماعة مستضعفة في تصابريهم على الفساد وتحاذيهم أمام المفسدين، فصداً صدأ أو

سداً سداً ! بعدما كُلت كل المحاولات للقضاء على المفسدين او على فسادهم ام الهجرة عنهم أماباذا ؟ فلا يتبرّر المستضعف تحت نير الافساد من المستكبرين قوله « إنا كنا مستضعفين في الارض » حيث يقال لهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فاولئك مأواهم جهنم » .. اللهم « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً » (٩٨: ٤) فما دام هنا سبيل الى التخلص اي سبيل ، كائناً او متمكناً ، فلا يُعذر المستضعف ، وحتى إذا لم يستطع حيلة ولا يهتدي سبيلاً فـ « اولئك عسى الله ان يعفو عنهم .. » ترجياً دون تحتم !

إذ فيهم من كانت له الهجرة او أية مقاطعة فتصابر على تركها بنير الذل حتى زالت استطاعته وحيلته .. ! إلا من انتشأ وظل بين المستكبرين قصوراً دون تقصير وقليل ما هم ؟

فيا له تكليفاً لزاماً ما أشمله : بجانب عوامل الفساد قدر المستطاع ، دون سماح لأي همول او خمول ، سلباً لكل فساد ، ومن ثم محاولة دوافع الصلاح والإصلاح فرضاً لزاماً قدر المستطاع دون سماح لأي همول او خمول !

ولكن ثالث ثلاثة من المستضعفين في حياة الجهاد الدموي الدائب .. الى رابع اضلاع الحياة : « ورثة الأرض » لا مستكبرين ولا مستضعفين ، وانما مؤمنين أقوياء في دولة مباركة عالمية زمن المهدي من آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين !

« ونقول لا قوام يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف : اخبروني أين أنتم من سليمان بن داود ثم ذو القرنين (عليهما السلام) ، عبد أحب الله فأحبه الله ، طوى له الأسباب ، وملكه مشارق الأرض ومغاربها ، وكان يقول الحق ويعمل به ثم

لم نجد أحداً عاب عليه ^(١).

﴿ قال ما مكنتي فيه ربي خيراً فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ^(٩٥) أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال أتوني أفرغ عليه قطراً ^(٩٦) :

« ما مكنتي فيه ربي » أن مكنتي في الأرض وآتاني من كل شيء سبباً - إنه « خيراً » من خخرجكم . . فأنا أستعين بسبب من ربي علماً وقوة ، ثم « فأعينوني بقوة » بشرية ، فليست القوة الخارقة الإلهية. لتبطل أو تعطل قوة بشرية ، فمهما كان بالإمكان جعل الردم بسبب آلهي صارم دون تسبب الى قوة بشرية ، ولكنه عَطالة عارمة لهذه القوة ، فانما الخارقة للعادة فيما تقصر عنه العادة قَدَرَه ، ام تثبيتاً لنبوة إلهية ليست لذي القرنين ، ام لحجة إلهية آية باهرة على رحمته .

وهذه سنة الله الدائمة ، عدم التغاضي عن الحول والقوة الخلقية ، فانه بطالة ، واحياناً فعل خارقة إلهية يساند الفعلة الخلقية ، وكما في جعل ذلك الردم .

« فأعينوني بقوة » قدر المستطاع من مال أو حال ، ألأجعل لكم سداً كيفما كان ؟ لا ! بل « ردماً » يسد الثلثة ، فأيسر طريقة وأقواها هي ردم الممر بين السدين ، ليردم الماردين المفسدين ، فلا يستطيعوا ان يظهره لارتفاعه ، ولا ان ينقبوه لحدته ، فكم من سد يُظهر عليه وهو حديد ، وكم من سد رفيع يُنقب لانه وهيد غير حديد ، ولكنه ردمٌ يسد الثلثة نقباً وارتفاعاً ! .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٨ ج ٢٣٤ في الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبد الله (عليه السلام) حديث يقول فيه (عليه السلام) لاقوام

لم يكن هنالك طريقة أخرى لصدهم عن الإفساد إلا بسدهم ردماً ،
 فهل يقتل او يعذب المفسدين ثم يتركهم ؟ فمن ذا يضمن عدم عودة الباقيين إلى
 افسادهم ؟ وماذا يضمن من لا يسطع منهم الإفساد او هو تاركه الآن ألا
 يفسد بعد الآن ؟ او يبيدهم كلهم ؟ فقصاصاً قبل الجناية لبعضهم ! وعلّ
 في أنسال مفسديهم صالحين او مصلحين : فلا طريقة إذاً - امثل من صدهم
 بسدهم ! « قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد
 ربي حقاً » (٩٨) .

﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ والزبرة واحدةا وهي القطعة العظيمة ، فقد
 طلب اليهم ان يأتوه قطعاً من الحديد دون تحديد « حتى اذا ساوى بين
 الصّدفين » حيث ملأ بينهما من زبر الحديد لحد ساوى بين الصّدفين :
 الجانين الصليين من السدين ، وهي رُكامة حديدية بين الحاجزين فأصبحا
 كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم الممر حيث الركام سامت القمتين ، ومن
 لطيف الصّدف تساوي الصّدفين كما تدل عليه « ساوى » .

وكيف يلحم بين زبر الحديد حتى تصبح كأنها زبرة واحدة كجبل
 حديدي بين الجبلين ؟ هنالك نفخ وقطر يلحمان زبر الحديد كأقوى
 تلحيم ! « قال انفخوا » بمنافخ فنفخوا « حتى إذا جعله » المنفوخ « ناراً »
 فضمير المفرد رغم جمعية زبر الحديد يلمح الى جدة الإلتحام بينهما لحد
 الوحدة أو كأنها زبرة واحدة ، ومن ثم « ناراً » لا نيران ، لمحة مليحة الى
 وحدة نارية بعد وحدة الإلتحام وجدته ، نارٌ واحدة في شدة الحرارة
 والإلتحام .

وهل يكتفي بذلك ، وعلّ بين هذه الوحدة النارية فُرَجاً ؟ كلا ، إنه
 القطر : النحاس المذاب ، يفرغ على هذه النار الزبرة الحديدية فيكتمل أمر
 السد الردم ! .

﴿ قال آتوني افرغ عليه قطراً ﴾ نحاساً مذاباً يتخلل الحديد النار ،
ويقويه أقوى من خالص الحديد ، قطرٌ على حديد ونازٌ على نار .

وهذا الخلط كان من الأسباب القوية لتحكيم الردم ، وقد استخدمت
هذه الطريقة حديثاً في تقوية كلٍّ من النحاس والحديد فكلٌّ بمفرده أضعف
من هكذا خلط يجعلهما كالفولاذ !

كما وان ذلك النفخ وزبر الحديد ومذاب النحاس بعيد عن قوم
«لايكادون يفقهون قولاً» حيث البداءة والسذاجة في أبسط مراحلها جعلت
منهم بُلهاً لا يعرفون شيئاً ، فكيف لهم باتيان زبر الحديد ، والنفخ فيه لحد
جعله ناراً والنحاس المذاب ، فلم يكن لهم شغل في هذه الثلاث الآ
اتيان زبر الحديد « آتوني . . » دون استخراجها من معدنها ، او نفخ فيها
دون المنفخ « قال انفخوا » ثم ايتاء « آتوني افرغ عليه قطراً » حيث إفراغ
القطر من فعله دونهم ، وإنما هم عمال في هذه الثلاث : ايتاء ونفخ
وايتاء ، وأما تحصيل زبر الحديد والمنفخ والنحاس وإذابته فكل ذلك مما آتاه
الله من كل شيء سبباً !

فهناك معدن للحديد دهم ذو القرنين على استخراجيه ، ومنفخ دل على
اصطناعه أماذا ، ومعدن للقطر ثم مذيّب ، كل ذلك بأسباب خارقة إلهية
وهم عمال يؤمرون لا مصطنعون ومخترعون !

﴿ فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ (٩٧) فقد صدهم
هذا السد ، إذ حاولوا أن يظهروه فما استطاعوا ، وحاولوا له نقباً لينفذوه فما
استطاعوا ، فاستراح هؤلاء المستضعفون عن إفسادهم وكأنهم سألوه من
اين هذه الكرامات الخارقة ف :

﴿ قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد
ربي حقاً ﴾ (٩٨) .

ذلك الملك العدل الرؤف يجتاح الأرض مشارقها ومغاربها ممكناً متمكناً
ميسراً له من كل الأسباب ، ولا تأخذه العزة بالاثم والكبرياء بالخلاء ،
ولا يطفئ تبطراً ، ولا يبغى من القدرة مغنماً ، ولا يستغل السلطة
استعباداً ، وإنما ينشر عدلاً ورحمة ، ويأتي بخارقة تلو الأخرى ، وعند
انتهاء هذه الحلقة « قال هذا رحمة من ربي » يسند كل ما أتى به الى رحمة
ربه دون سناد إلى نفسه إلا كواسطة في هذه وتلك الخارقة .

ولكيلا يخلد الى خلد خلود ردمه الفولاذي يدكّه بوعد ربه : « فاذا جاء
وعد ربي » تدميراً بعد تعميره « جعله دكاء » : لئنة سهلة ، بعد ما كانت
فولاذية مرتفعة صلبة « وكان وعد ربي حقاً » في دكّها .

ترى وما هو ذلك الوعد ؟ هل هو الوعد العام بدكداك الأرض وما
عليها وبضمنها ذلك الردم : « إذا دكت الأرض دكاً ، وبست الجبال بساً » ؟
﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم
جمعاً ﴾^(٩٩) وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ﴿^(١٠٠)

تدلنا على تماوج الأحياء بعد دكداك الردم ، ثم بعدهما نفخ الصور
وجمع الجمع ! ثم وآية الأنبياء قد تناصرها أن وعد الدكداك هذا قبل القيامة
الكبرى : « وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، حتى إذا فتحت
ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هي
شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا
ظالمين » (٢١ : ٩٧) .

فتفتح ياجوج ومأجوج بدكّ الردم ، والدك الفتحة هما في الآيتين قبل
جمع الجمع ، فهناك « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً » وهنا أدل منها
واقرب « واقترب الوعد الحق » فجمع الجمع والوعد الحق هما بعد وعد
الرب ودكّ الردم .

سورة الكهف / آية ٩٩-١٠٠ ٢٠٧

وعَدُ أَوَّلِ خَاصٍ يَشْمَلُ ذَاكَ الرِّدْمَ ، فَفَتَحَ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ كَشَرَطٍ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْوَعْدِ الْعَامِ .

ثم الوعد الحق في قيامتي التدمير والتعمير هو مقترب - لا واقع - عند وعد الرب بهدم الردم وفتحهم وتركهم يومئذ بموج بعضهم في بعض وهم من كل حذب ينسلون ، ف « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً » الرامي إلى نفخة الإحياء ليس إلا بعد نفخة الإمامة ، وهي بعد اقتراب الساعة بأشراطها التي منها : « فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء : : » !

وترى من « هم » في « وتركنا بعضهم .. » ؟ أهم يأجوج ومأجوج ؟ وهم كان بعضهم مائجاً في بعض قبل دكاء الردم !

أم هم المجموعة منهم والقوم الذين كانوا لا يكادون يفقهون قولاً ، مستضعفين ومستكبرين ، اذ انفتح الردم ففتحوا كما كانوا قبل سد الردم ، فاصبحوا كأماواج البحر الملتطم يثلاطمون في ثماوج عارم وتهارج صارم ، وهو الصحيح !

أو هم مجموعة المكلفين من الجنة والناس اجمعين ، يتركهم يومئذ بموج بعضهم في بعض ، في هرج ومرج وفساد دائم وظلم عارم ، وعلة الأصح !

ان يأجوج ومأجوج - ايأ كانوا - إنهم بعد ذلك الفتح من كل حذب ينسلون ، ولأن « حَذَبٌ » هو المرتفع ، فكلُّ حذب يعم كلُّ مرتفع يمكن أن يرتفع : من مرتفعات بحرية وبرية او جوية ، محلّقين على كل محلّق ، دون اختصاص بحذب الردم ولا حذب له بعد دكّه ! .

وان « ينسلون » هو : ينفصلون مسرعين ، ويلدون ، ف « هم من كل حذب ينسلون » قد يعني الهرج والمرج العالمي من قبيل يأجوج ومأجوج ، مسيطرين على كل مرتفع ، مسرعين في الانفصال عنه الى الناس

المستضعفين ، ناسلين ولدأ به يكثرون ، وعند ذلك الطامة الوسطى : ان ثملأ الأرض ظلماً وجوراً نظرة ان يملأها الله بعده قسطاً وعدلاً بالقائم المهدي عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه .

ولان « المَوْجَان » من صفات الماء الكثير ، فـ « يموج بعضهم في بعض » توحى بشدة اختلافهم ، ودخول بعضهم في بعض لكثرة اضدادهم ، تشبيها بموج البحر المتلاطم ، والتفاف الدنيا المتعاضل ، تماوج مختلف المياه عذباً ومالحاً ومراً أجاجاً .

وهكذا تكون الفتنة العالمية حيث ثملأ الأرض ظلماً وجوراً ، فلا يبقى موضع قدم إلا وفيه هرج ومرج !

﴿ اين ردم ذي القرنين ؟ ﴾

لان ذلك الردم بدئكه وفتح ياجوج وماجوج هما شرط من أشرار الساعة : « اقترب الوعد الحق . » فلنحاول في الحصول على معرفة عنها قدر المستطاع على ضوء القرآن ، وما يلائمه او يثبت من السنة والتأريخ الجغرافي وسواه .

فهل إن ذلك الردم هو جدار الصين ؟ وليس سداً ولا ردماً ! وليس حديدياً وذلك الردم حديد بقطر ! وليس بين جبلين ، بل بين سهول وجبال عدة والرمد بين جبلين ! وقد بناء ذو القرنين وجدار الصين بناء « شين هوانك تي » في طول ألف كيلو متراً وعرض تسعة امتار وارتفاع خمسة عشر متراً بالأحجار ، وهو قاطن الصين دون سفر إليه لبناء جداره و ذلك بنى ردمه في سفرة بعيدة .

ثم وبناء سد في حجم ١٣٥٠٠٠,٠٠٠ متراً بحاجة الى ملايين الأطنان من خليط القطر والحديد ، فاين سد من جدار وبان من بان ؟

فهل هو بعدُ سد باب الحديد في عمالة بلخ وراء جيحون بمقربة من مدينة ترمذ كما جاء في بعض المؤلفات^(١)؟ ولم يتضح لنا بعدُ وجود هجمات تصدّ بذلك السد وهو خلاف اسمه ليس فيه حديد وقد بناه كسرى نوشروان .

ام سدّ ثان في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر الى البحر الأسود ، المسمى بمضيق داريال^(٢) بين بلدة تفليس وولادي كيوكز .

وهذا السد المسمى باللغة المحلية «دمير قاثو» اي : باب الحديد : يقع في ذلك المضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه ، وهو الفتحة الوحيدة الرابطة بين جانبي الجنوبي والشمالي مع ما ينضم إليها من بحر الخزر والبحر الأسود ، حاجز طبيعي بطول الوف من الكيلومترات يحجز جنوب آسيا من شمالها .

وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز الى مايو إليها من الجنوب ، فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم ايران حتى كلدة والأشور ، كما هجموا حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلاً وسبياً ونهباً حتى بلغوا نينوى

(١) في مجلة المقتطف المصري ١٨٨٨ كما نقله في الجواهر انه اتضح لنا من المصنفات العربية وجود سد وراء جيحون في عمالة بلخ واسمه سد باب الحديد بمقربة من مدينة ترمذ وقد اجتازه تيمورلنك بجيشه ودعا مؤرخه شرف الدين اسم المحل « خلوجة » ومربه ايضاً شاه روح وكان في خدمته ومن بطانته الالماني : سيلد برجر - وذكر السدّ في كتابه وذلك في اوائل القرن الخامس عشر وذكره الاسباني : كلما فيجو في رحلته سنة ١٤٠٣ وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتالة) بالاندلس الى : تيمورلنك - قال : ان سد مدينة باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند .

(٢) لعله من اصل داريول بمعنى المضيق بالتركية ويسمى باللغة المحلية «دمير قايو» اي : باب الحديد .

عاصمة الآشور وذلك في عهد كورش .

ويذكر المؤرخون في كهردوت اليوناني سير كورش الى شمالي ايران لاختاد نائرة الفتن المشتعلة هناك ، وكأنه هو باني ذلك الردم في هذا المضيق ، وهو الردم الوحيد الذي بُني بالحديد بين جبلين ، ويذكره يوسف اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته الى شمالي قفقاز^(١) وبين كسرى باني سد باب الحديد قرون !

ثم هناك نهر بالقرب منه يسمى « سايروس » وهو اسم كورش عند الغربيين^(٢) .

ولانه الردم الوحيد الذي نعرفه حتى الآن فعله هو الذي بناء ذو القرنين ، او سوف يكتشف ردمه ، لا نتأكد الآن شيئاً ، والظاهر لحد الآن أنه « باب الحديد » هذا ، حيث يوافق الردم اسماً ومسمى وموقعاً جغرافياً ، وهو الوحيد فيما نعرفه ! ثم ولا غرض عقلائياً ولا قوة عادياً ولا موقع جغرافياً في بناء ردم فتولاذي إلا كما يقصه القرآن ، واذ لا نجد غير «دمير قاثو» في نفس الموقع والهدف والقوة فليكن هو الردم المذكور في القرآن والله اعلم^(٣) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٠ - اخرج ابن المنذر عن علي بن ابي طالب (عليه السلام) انه سئل عن الترك فقال : هم سيارة ليس لهم اصل هم من يأجوج ومأجوج لكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الارض

(٢) هذا التاريخ ننقله عن الميزان ج ١٦ ص ٣٩٤ والتحليل والمقالسة منا .

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٥٠ - اخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابي بكرة النسي ان رجلاً قال : يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! قد رأيت سدياجوج : قال : (صلى الله عليه وآله وسلم) : انعته لي - قال : كالبرد المجر طريقة سوداء وطريقة حمراء - قال : (صلى الله عليه وآله وسلم) قد رأيت .

ومن هم ياجوج وماجوج ؟

لقد كثير القيل والقال حولهما ، ما يحمل تناقضات من أسطورات تدهش العقول وتوحش الحقول ، ولأن فتح ياجوج وماجوج من أشراط الساعة كما في الكتاب والسنة^(١) فعلينا النقب والتنقيب الكثير حول « من هما

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٠٩ ج ٢٣٩ في كتاب الخصال عن ابي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن اسيد الغفاري قال : كنا جلوساً في المدينة في ظل حائط قال : وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في غرفة فاطلع إلينا فقال : فيم انتم ؟ قلنا : نتحدث - قال : عماذا ؟ قلنا عن الساعة - فقال : انكم لا ترون الساعة حتى تروا قبلها عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض وثلاثة خسوف يكون في الارض : خسف بالشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وخروج عيسى بن مريم وخروج ياجوج وماجوج ويكون في آخر الزمان نار تخرج من اليمن من قعر الارض لا تدع خلفها احداً الا تسوق الناس الى المحشر ، كلما قاموا قامت ثم تسوقهم الى المحشر .

وفي ح ٢٤٠ حديث حذيفة قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : عشر آيات بين يدي الساعة : خمس بالشرق وخمس بالمغرب فذكر الدابة والدجال وطلوع الشمس من مغربها وعيسى بن مريم وياجوج وماجوج وانه يغلبهم ويفرقهم في البحر ولم يذكر تمام الآيات

وفي الدر المنثور ٣ : ٢٥٢ - اخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) انا اعلم بما مع الدجال معه نهران احدهما نار تاجج في عين من رآه والآخر ماء ابيض فان ادركه احد منكم فليغمض ويشرب من الذي يراه ناراً فانه ماء بارد واياكم والآخر فانه الفتنة واعلموا انه مكتوب بين عيني كافر يقرء من يكتب ومن لا يكتب وان احدى عيني مسحوة عليها ظفرة انه يطلع من آخر امره على بطن الاردن على ثنية ابيض وكل احد يؤمن بالله واليوم الآخر ببطن الاردن وانه يقتل من المسلمين ثلثاً ويهزم ثلثاً ويبقى ثلث ويمن عليهم الليل فيقول بعض المؤمنين لبعض ما تنتظرون ان تلحقوا اخوانكم في مرضات ربكم من كان عنده فضل طعام فليقد به على اخيه وصلوا حتى ينفجر الفجر وعجلوا الصلاة ثم اقبلوا على عدوكم فلما قاموا يصلون نزل عيسى بن مريم امامهم فصلى بهم فلما انصرف قال هكذا فرجوا بيني وبين عدو الله فيذوب وسلط الله عليهم من المسلمين فيقتلونهم حتى ان الشجر والحجر لينادي يا

واين هما وهل فتحوا حتى الآن أمآذا؟ فلنجعل الكتاب الإمام أمامنا ، فندرس آيتي يا جوج ومأجوج نبراساً ينير لنا الدرب الى معرفتهما ، ومتراساً يبير كل يا جوج ومأجوج اختلقتها ايدي الدس والتجديف ، وتقولتها السنة التحريف .

﴿ فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾^(٩٧) قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً^(٩٨) وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جماعاً^(٩٩) .

« وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون »^(٩٥) حتى إذا فتحت يا جوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون^(٩٦) واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين » (٢١ : ٩٧) .

قد تعني مقابلة « جعله دكاء » لـ « ما استطاعوا أن يظهروه وما

= عبد الله يا عبد الرحمن يا مسلم هذا يهودي فاقتله فيقتلهم الله وينصر المسلمون فيكسرون الصليب ويقتلون الخزير ويضعون الجزية فينما هم كذلك اخرج الله يا جوج ومأجوج فتشرب اولهم البحيرة ويحيى آخرهم وقد انتشفوا ولا يدعوا فيه قطرة فيقولون ظهروا على اعدائنا قد كان ها هنا اثر ماء فيجىء نبي الله واصحابه وراءه حتى يدخلوا مدينة من مدائن فلسطين فقال لها : لَدَّ فيقولون ظهروا على من في الارض فتعالوا نقاتل من في السماء فيدعو الله نبيه عند ذلك فيبعث عليهم قرحة في حلوقهم فلا يبقى منهم بشر فيؤذي رجيمهم المسلمين فيدعو عيسى فيرسل الله عليهم ريحاً فتقذفهم في البحر اجمعين

وفيه اخرج نعيم بن حماد في الفتن وابن مردويه بسند رواه عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعثني الله ليلة اسري بي الى يا جوج ومأجوج فدعوتهم الى دين الله وعبادته فابوا ان يجيئوني فهم في النار مع من عصى من ولد آدم وولد ابليس .

سورة الكهف / آية ٩٩-١٠٠ ٢١٣

استطاعوا له نقباً « إضافة إلى دكداك الردم نفسه ، أنهم سوف يستطيعون ان يظهروه او يستطيعون له نقبا فينقبونه ، ظهور الغلبة عليه هدماً ام التحليق عليه دون هدم !

لذلك ترى آية الانبياء تنسب الفتح الى ياجوج ومأجوج ، دون تصريحه او تلويحه لدكداك الردم هدماً ، بل « وهم من كل حدب ينسلون » قد تلمح أنهم يظهرون على حَدَبِ الردم ضمن كل حَدَبِ دون دَكْ لاي حَدَبِ حتى الردم .

فان ثبت لدينا فتح لياجوج ومأجوج والردم باق ، لم يثبت تهافت بين آيتي الكهف والانبياء !

كما ومقابلة « وعد ربي » بـ « رحمة من ربي » تعني رجعة الإفساد من ياجوج ومأجوج كوعد للعذاب بعد الرحمة ، سواء أبقى الردم ام دَكْ بدكاء الوعد العذاب .

وذلك الوعد هو قبل القيامة الكبرى وهو من أشراطها ، حيث « نفخ في الصور فجمعناهم جمعاً » بعده ، وفتح ياجوج ومأجوج عند اقتراب الوعد الحق !

وترى إن « وعد ربي » شرطاً من أشراط الوعد الحق ، هل يختص بروح خاص من الزمن او قد يتكرر ؟

آيات الإفساد العالمي الاسرائيلي مرتين كما شرحناها في « الأسرى » تدلنا على كرور الوعد ، فعلّ العالمي منه اثنان ثم هناك وعدٌ أم وعود جانبية ومنها المهجمة الجنكيزخانية التي سودت وجه التاريخ الانساني !

ومهما كان ياجوج ومأجوج في البداية أمتين من بني الإنسان في سالف الزمن ، فقد تعني ، «حتى إذا فتحت ياجوج ومأجوج » كل امة مفسدة

تؤجج نيران الفساد في هذه المعمورة ومن أفسدها « إسرائيل » : لتفسدن في الأرض مرتين .. ! مهما كان الأولون من المغول والتتار آمن ذا ؟ آية الانبياء الأولى : « وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون » تحرم الرجعة الى الدنيا بعد الموت فهي من آيات الرجعة^(١) والثانية : « حتى إذا فتحت » تقرر أمد هذه الرجعة أنها بعدما فتحت ياجوج ومأجوج ، وعلة الإفساد العالمي الثاني الإسرائيلي قبيل الرجعة ، أو الأول قبلها ، ام الهجمة الجنكيزية قبلها ، ام تعنى الثلاثة تعميماً ليأجوج ومأجوج الى مؤججي نيران الفساد ايأ كانوا وأهمه الإفسادان العالميان « وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين » او ان بني اسرائيل هم رؤوس الفساد في هذين ، ويأجوج ومأجوج يؤججانه امآذا ؟

ياجوج ومأجوج هما كلمتان أعجميتان معربتان حيث هما ممنوعا الصرف ، ولا شك أنها أمتان من امم البشرية هما أمثلة الإفساد طول التاريخ بمن يساندهما كالحق كالمؤيد علوم

وقد يلمح « وهم من كل حذب ينسلون » إلى انتشارهم في أرجاء المعمورة بعدما صدهم ذو القرنين بسدهم ، وقد سئل الامام علي (عليه السلام) عن الترك فقال : هم سيارة ليس لهم أصل ، هم من يأجوج ومأجوج ولكنهم خرجوا يغيرون على الناس فجاء ذو القرنين فسد بينهم وبين قومهم فذهبوا سيارة في الأرض^(٢).

(١) تفصيل البحث حول آية الانبياء تجده عند تفسيرها ، ومن الوجوه الراجعة ان اهل قرية اهلكناها حرام عليهم الرجوع لتكملة الحياة حتى اذا فتحت .. فاذا فتحت يرجون لا لتحصيل السعادة وانما لتكميل الشقاوة فانهم ممن محض الكفر محضاً ، فالآية اذاً من آيات الرجعة وتدل على ان فتح ياجوج ومأجوج قبيل الرجعة فيناسب قبلها القريب كالإفساد العالمي الثاني الاسرائيلي ، والبعيد كفتنة المغول ، او انها معنيان .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٥١ - اخرج ابن المنذر عن علي بن ابي طالب ...

وكذلك نرى الامة الاسرائيلية كانوا طول قرونهم والى احتلال فلسطين، كانوا سيارة في الأرض مفسدين اياً كانوا .

لست اقول انهم من أصل الترك وياجوج ومأجوج ، فانما كونهم سيارة الأرض المفسدين يجعلهم مع ياجوج ومأجوج أمة الإفساد في التاريخ ، بل هم لعلهم اشد منهم وانكى او هم الأصل في الإفساد منذ كانوا وعلى هوامشهم سائر الامم المفسدة .

ولان اللغات متطورة كما المجتمعات ، فقد يقرب القول أنها المغول والتتار وهما من الترك ، والمغول في الصيني « منكوك » او « منجوك » وكأن الكلمتين نقل عبراني وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق « كوك » و « ماكوك » والمشابهة الكاملة بين « ماكوك » و « منكوك » يقضي انها متطورة من « منكوك » كما اشتق منه « منغول » و « مغول ».

فلعل ياجوج هو « كوك » ومأجوج هو « ماكوك » فهذا المغول وذلك التتار ، وقد ذكر بعض المدققين أن المغول والتتار من رجل واحد يقال له « ترك » وهو الذي سماه أبو الفداء باسم ياجوج ، وقد كانوا يشغلون الجزء الشمالي من آسيا ، تمتد بلادهم من « التبت والصين » إلى المحيط المنجمد الشمالي وتنتهي غرباً بما يلي بلاد « تركستان »^(١).

ويذكر المؤرخون المسلمون والإفرنج أن هذه الامة النكدة كانت تغير قديماً وفي مختلف الزمن على الأمم المجاورة لها ، ومنهم المتوحشة كالسيول الجارفة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى وذهبت الى أوروبا قديماً ، فمنهم أمة السيت والسمرياق والمسجيت والهون ، وكم أغاروا

(١) كما في (فاكهة الخلفاء) وابن مسكويه في (تهذيب الاخلاق) وفي (رسائل اخوان الصفا) فقد ذكروا ان هؤلاء هم ياجوج ومأجوج .

على بلاد الصين وعلى أمم آسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء ، فكانوا يحذرون قومهم من هؤلاء .. (١).

طلب من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين قاطني الشرق الأقصى سداً فعمل ردماً فظلموا محجوزين ردحاً من الزمن « حتى إذا فتحت ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » في مثلث الإفساد العالمي ، يتكفل أولاه في داهية دهياء وغارة عشواء « تموجين » الملقب نفسه « جنكيزخان » - إنه - وكما في القرآن : « وهم من كل حدب ينسلون » خرج بجيشه الجرار من الهضبات المرتفعة والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى في اوائل القرن السابع من الهجرة -

جنكيزخان بعدما يجمع أمة التتار تحت حكمه العارم يخضع الصين الشمالية ثم يذهب إلى البلاد الإسلامية ويخضع سلطان محمد السجلوقي ملك خوارزم ، وكان يمتد ملكه على بلاد تركستان والفرس ، فسقطت هذه الدولة بعد عشر سنين من الحرب المتواصلة -

جنكيزخان المغول الفاتح بعد هذه المدة يرتكب من المنكرات هناك ما لم يسمع مثله في التاريخ ، فقد قتلوهم رجالاً ونساء وأطفالاً ، وارتكبوا من الفواحش ما سود وجه التاريخ -

في مدينة خوارزم وحدها ، يفتك بها هدماً واحراقاً وإهراقاً لدماء الأبرياء فأصبحت أنهاراً من الدماء ، كما فعلوا مثلها بسمرقند وبخارى

(١) لقد فصل في رسائل قديمة ألفت في القرنين الثالث والرابع ان امة ياجوج ومأجوج هم سكان تلك الجبهة المتقدمة شمال الصين وحددت بلادهم بانها من نحو سبع وعشرين درجة من العرض الشمالي الى نحو خمسين درجة مشه وهذه البلاد الآن جزء عظيم من الصين وفيها بكين عاصمتها الآن ولقد كانوا أغا روا على الامم جميعاً وكانوا كفأحين للعالم كله .

وغيرهما ، وفتكوا بأهالي نيسابور وأفنؤهم عن آخرهم حتى الأطفال والحيوان وأحرقوا البلد ، وأصبحت القتل في واقعة مرو مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً !

وهذه نبذة يسيرة من بحر فظائهم هناك^(١) ومن ثم كافة البلاد إلّا شذراً : فقد أخضعوا بلاد الهند فمات « جنكيزخان » .

ولما ملك ابنة (اقطاي) اغار ابن اخيه (باتو) على الروس (٧٢٢) ودمروا (بولونيا) و (بلاد المجر) وأحرقوا وخرّبوا -

وبعد موت (اقطاي) قام مقامه (جالوك) فحارب ملك الروم وألجأه إلى دفع الجزية .

ثم مات (جالوك) وقام مقامه ابن اخيه (منجوا) فكلّف أخويه (كيلاي وهولاكو) ان يستمرّ في طريق الفتح ، فيتجه الأول الى بلاد الصين والثاني إلى الممالك الإسلامية . ففعلوا ما فعلوا من القتل والتدمير .

أسلمت بغداد سبعة ايام للقتل والسلب والنهب فسالت فيها أنهر الدماء وطرحوا الكتب العلمية في دجلة وجعلوها جسراً يمرّون عليه بخيولهم وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وعلقت جثته في ذنب حصان وساروا بها بين أسوار بغداد . . وقد استمرت فتوحات المغول إلى سوريا . .

الفتنة المغولية تفتك بالبلاد كلها من مشارق الأرض ومغاربها إلّا مكة والمدينة وبيت المقدس ، وعله اليها الإشارة في حديث يأجوج ومأجوج أن مقدمتهم في الشام وساقتهم بخراسان ، وكما في تصريحه أخرى انهم لا يدخلون المدن الثلاث .

وقد يعنيه الحديث « ويخرج في آخر الزمان رجل يسمى أمير العصب

(١) راجع دائرة المعارف وابن خلدون وفاكهة الخلفاء .

أصحابه محسورون محقرون مقصّون عن ابواب السلطان يأتونه من كل فج عميق كأنهم فزع الطريق يورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها .

ومن « السبب الظاهر في هذه الفتنة أن سلطان خوارزم يقتل رسل « جنكيزخان » والتجار المرسلين من بلاده ويسلب أموالهم ويغير على أطراف بلاده فيغتاظ « جنكيزخان » ويكتب اليه كتابه يهدّده فيه بما فعل^(١) .

ذلك إفساد في الأرض مرة شاملة من « يأجوج ومأجوج » وقد تلمح « حتى إذا فتحت » أنها الأولى منهم والأخيرة كشرط من أشرط الساعة ، ومن ثم إفسادان عالميان من بني اسرائيل كما في آية « الاسرى » ، فانها تخص إفسادهم في مرتين لا كل إفساد من أي كان ، كما وآية الفتح ليأجوج ومأجوج تخص فتحهم في إفسادهم الظاهر في مرة .

أو أن فتحهم يعني جنسه الشامل للمرات الثلاث ، مرة تخصهم كما

(١) نص الكتاب هكذا : « كيف تجرأت على أصحابي ورجالي واخذتم تجارتي ومالي ؟ وهل ورد في دينكم أو جاز في اعتقادكم وبقينكم ان يريقوا دم الابرياء أو تستحلوا اموال الاتقياء أو تعادوا من لم يعادكم وتكذبوا صفو عيش من صافاكم ، وتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة أو ما جاءكم عن نبيكم سريكم وعليكم ان تمنعوا عن السفاهة غويكم وعن الظلم الضعيف قويكم أو ما خبركم محبروكم وبلغكم عنه مرشدوكم ونبا محدثوكم » اتركوا الترك ما تركوكم « وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ونبيكم قد اوصى به مع انكم ما ذقتم طعم شهده أو صابه ولا بلوتم شدايد اوصافه أو صابه ألا إن الفتنة نائمة فلا توقظوها وهذه وصايا اليكم فعوها واحفظوها وتلافوا هذا التلف قبل ان ينهض داعي الانتقام وتقوم سوق الفتن ويظهر من الشر ما بطن ويروج بحر البلاء ويموج وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسيناصر الله المظلوم والانتقام من الظالم امر معلوم ولا بد ان الخالق القديم والحاكم الحكيم يظهر سر ربوبيته وآثار عدله في بريته فان به الحول والقوة ومنه النصره مرجوة فلترون من جزاء افعالكم العجب ولينسلن عليكم يأجوج ومأجوج من كل حذب (جنليز خان) (تفسير الجواهر ٢٠٤ : ٩) .

مرت ، ثم هم يشتركون في المرتين الإسرائيليتين العالميتين ، طالما هم فيها أصلاء ، وياجوج ومأجوج هوامش عملاء ، كسائر المفسدين الهوامش اللعناء .

فكل من يشارك إسرائيل في مرقى الإفساد العالميين من عمال الفساد هو في سجيته وعلايته وسريته ، إنه اسرائيلي مهما كان من ياجوج ومأجوج أمّن ذا ؟

كما الفتنة الياجوجية تشمل كل عميل من غيرهما أياً كان وأيان ! وطبيعة الحال قاضية أن الإفساد العالمي الإسرائيلي في مرتبه ، لا يخص بني إسرائيل إلا كأصول ، فكل مفسد في الأرض يشاركهم أصيلاً وبديلاً وعميلاً أمّن ذا ؟

نحن نعيش الآن الإفساد الاسرائيلي العالمي الأول ، فالمفسدون الأصلاء هم اسرائيليون ، والمفسدون العملاء او البدلاء من كفار الشرق والغرب ، ومن يساندهم من زعماء المسلمين أمّن ذا - هؤلاء كلهم اسرائيليون فروع ! فالكفر ملة واحدة !

او قد يعني « إذا فتحت ياجوج ومأجوج » الإفساد العالمي الثاني بعلوه الكبير من إسرائيل ، وياجوج ومأجوج وهما أمثلة الإفساد شرقاً وغرباً يعملون عمالاتهم الإسرائيلية في مشارق الأرض ومغاربها ؟ كلّ محتمل ! مع الحفاظ على ان هناك مراحل ثلاث من الإفساد العالمي طول التاريخ الرسالي يتكفل أولها « ياجوج ومأجوج » كأصليين اصيلين في ذلك الإفساد ، والأصلاء في الآخرين هم الاسرائيليون وغيرهم عملاء من ياجوج ومأجوج وسواهم !

وأيّ كان إفساد ياجوج ومأجوج فاللائع من آيتي الكهف والأنبياء وحدته فيما هم فيه أصلاء : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » فهو يوم

وزمن واحد « حتى إذا فتحت ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » فهو فتح واحد بنسل واحد ! مهما كانوا في المرتين الإسرائيليتين فروعاً عملاء ، كما قد يكون هؤلاء عملاء في المرة التي ياجوج ومأجوج فيها أصلاء .

وقصارى الإقتصار على المرتين الإسرائيليتين أن ياجوج ومأجوج في الثانية أصلاء كما الاسرائيليون لا عملاء ، ولكنهم الأصل الاول وهما الأصل الثاني .

وقصارى المستفاد من الآيتين في الزمن التقريبي لفتحهما أنه قبيل الرجعة وقيام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حيث عقب قيام الساعة : « ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً » بـ « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » في آية واحدة ، ولولا آية الأنبياء « حتى إذا فتحت . . . واقترب الوعد الحق . . . بعد » وحرام على قرية . . . لاحتملنا قريباً او قلنا أن فتحهم بين الرجعة والقيامة !

فهناك قرب قريب إلى الوعد الحق هو الرجعة وقيام المهدي (عليه السلام) وقبلهما قرب ابعد منه هو فتح ياجوج ومأجوج ، مما يقرب احتمال أنه من الافساد الاسرائيلي العالمي !

ثم « وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض » يعني ترك المستضعفين والمستكبرين المفسدين يموج بعضهم في بعض ، وبه تملأ الأرض ظلماً وجوراً ومن ثم ملأها قسطاً وعدلاً بالقائم المهدي من آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ومما يؤيده او يؤكد أنه هناك وعدين لا ثالث لهما ، الوعد الاول يخص فتح ياجوج ومأجوج : « فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء . . » والوعد الثاني هو القيامة الكبرى « واقترب الوعد الحق » اذاً فقبل الوعد الحق كانه

وعُدَّ واحدٌ، رغم أن الإفسادين العالميين الإسرائيليين هما وعدان قبل الوعد الحق « فإذا جاء وعد أولاهما .. فإذا جاء وعد الآخرة .. » فليكن الوعد الياجوجي مع الوعد الثاني الإسرائيلي !

اللهم إلا أن الوعدين هذين متجهان إلى الاسرائيليين ، وذلك الوعد الياجوجي متجهة إلى غيرهم حيث هم بفتحهم وعدُّ العذاب على العالم أجمع ؟ وقد يكون الإفساد الثاني الإسرائيلي محط الوعدين ضد اسرائيل وعملاءه ، وضد العالم اجمع !

ومهما يكن من شيء فلا ريب أن الافساد الثاني والأخير العالمي يشترك فيه كافة المفسدين ، يفتح فيه كل ياجوج ومأجوج والإسرائيليون وكافة العملاء ، وفيه العدو الكبير « لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً » .

ولأنه من أقرب أشرار الساعة لحد تلحقه القيامة « وتركنا . ونفخ .. » « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوثوا وجوهكم .. » وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً !

وأن الإفساد العالمي يتطلب نسل المفسدين من كل حذب دون أي صِدْ أو سِدْ « وهم من كل حذب ينسلون » وأن كلاً من إسرائيل ومأجوج ومأجوج أصل في هذه الفتنة العالمية ، فقد يقرب ما قربناه !

ولكنما الفتنة المغولية التي هي من ياجوج ومأجوج قد تجعل نسلهم من كل حذب لمرات ثالثتها اقواها وهي في الإفساد الاسرائيلي الثاني .

وقد يظهر من حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « ليحججن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »^(١) أن افسادهم يمنع الحج

(١) رواه البخاري في صحيحه .

والعمرة ثم الله يفرج عن المستضعفين ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً ، وليس هذا إلا في الإفساد الاسرائيلي الثاني حيث تملأ الارض ظلماً وجوراً ثم تملأ قسطاً وعدلاً .

وكما يظهر من حديثه الآخر « فاذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج أرسل الله تعالى جبرئيل فرفع من الأرض القرآن والعلم والحجر من ركن البيت ومقام ابراهيم وتابوت موسى بما فيه .. » (١) يظهر أن الارض يومئذ تملأ ظلماً حتى فيما بين المسلمين لحد كأن القرآن رفع عنهم والعلم ، ولن يرفع عن كونه بينهم وإنما عن كيانه !

وقد يعني حديث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن فتح الردم أن لفتحته مراحل أخيرتها المرة الأخيرة من الإفساد الإسرائيلي اليأجوجي : « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتُفتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق - قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! أنهلك وفيما الصالحون ؟ قال : نعم إذا كثر الخبث » (٢).

ف « يأجوج ومأجوج » مثالٌ عن كل أمة شريرة ، ولفتحهم مراحل عدة أخيرتها التي هي اوسعها تواطىء الإفساد العالمي الاخير الإسرائيلي ، « اذا كثر الخبث » لحد ملئت الأرض ظلماً وجوراً !

فلقد اخذ ذلك الفتح يتسع منذ الرسول كلما كثر الخبث حتى القرن السابع من الهجرة ففتح شبه العالمي بالمغول والتتار ، ثم يتسع اكثر واكثر

(١) سفينة البحار للمحدث القمي ج ١ ص ١١ ويدلج ، النبوي .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٥١ - اخرج البخاري عن زينب بنت جحش قالت استيقظ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول : لا إله إلا الله . . . » واخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وعقد بيده تسعين .

في هذين الإفسادين العالمين وأقواهما الأخير بعلو كبير، تتساعد فيه كافة السواعد الطاغية من مشارق الأرض ومغاربها مهما كان الإسرائيليون هناك أصلاء أم أقوى الأصلين أم ماذا؟

﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ^(٩٨) وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ^(٩٩) وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ^(١٠٠) .

ان النفخ في الصور هو الناقور مرتان ، أولاهما هي نفخة الإمامة واخرهما نفخة الإحياء ^(١) : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه نفخة أخرى فاذا هم قيام ينظرون » (٣٩ : ٦٨) وعَلَّ هذه نفخة الإحياء « فجمعناهم جمعاً » او ان « جمعاً » يعني جمعي الإمامة والإحياء كما النفخ يجمع الجمعين ، نفخة أولى يجمعهم الى الموت ، ونفخة أخرى يجمعهم بعد جمع الموت الى الحياة ، فيوم القيامة ككل - قيامة الإمامة والإحياء - إنه يوم الجمع « يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن » (٦٤ : ٩) « وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه » (٤٢ : ٧) جمعاً الى موت ثم جمعاً الى حياة ومن ثم جمع الحساب فالثواب والعقاب :

﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ^(١٠٠) ﴾

في جمع الإحياء وبين جموع الأحياء تعرض جهنم للكافرين عرضاً للعقاب بعد العرض على الرب للحساب : « وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً » (١٨ : ٤٨) « أولئك يعرضون على ربهم » (١١ : ١٨) ثم لا عرض

(١) راجع ج ٣٠ - الفرقان ص ٣٤ حول الآية « يوم ينفخ في الصور » .

للمؤمنين على الرب ! .

ومن ثم الكافرون يعرضون على جهنم النار : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل » (٤٢ : ٤٥) ثمة عرض الحساب وهنا عرض العقاب ولما .

فلماذا العرض وليس الدخول ؟ حيث الدخول الحسابان لزامه الحجة العيان ، فليعرض الكافر على ربه ليرى هل تربى بما رباه ؟ ثم عرضاً على جهنم هل عمل لها وهو من أهلها ؟ فلما رأى اللا تربية هناك في نفسه ، ورأى مجانسته مع النار هنا فليدخل - إذأ - النار بحجة باهرة : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق » (٤٦ : ٣٤) « ... أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » (٤٦ : ٣٠) فبعرضهم على الرب يعرف ويعرفون أنهم ما تربوا بتربيته ، وبعرضهم على النار أنهم من أهل النار إذ لم تبق لهم طيبات في الحياة !

« عرضنا .. عرضاً » به يفضحون وينكبون ، وبه يدخلون النار ويخلدون ، إعراضاً عن الرب هنا ، فعرضاً على الرب وعلى ناره هناك ! ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكان لا يستطيعون سماعاً ﴾ (١٠١) .

وترى الأعين المغطاة عن ذكر الله فلا يستطيع ذكراً ، والسمع المغطاة عن إسماع كلام الله فلا يستطيعون سماعاً كيف يعرض أصحابها على الجحيم ، والإستطاعة شرط التكليف ؟

انها الأعين المغطاة بما غطرها تعامياً عن ذكر الله ، أعين الأبصار وأعين البصائر عشواً متعمداً متعامياً : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » (٤٣ : ٣٦) ف « لم يعتبهم بما صنع هو بهم ،

ولكن عابهم بما صنعوا ولو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شيء^(١) ثم و « غطاء العين لا يمنع عن الذكر والذكر لا يرى بالعين »^(٢) واغما الغطاء على تبصر العين فهي مفتوحة حيوانياً ومغطية إنسانياً .

فهي السمع المغطاة عن السمع بما غطوها و : « إنهم عن السمع لمعزولون » (٢٦ : ٢١٢) فلما عشوا عن ذكر الرحمن وصموا عن سمعه ، أصبحوا صمماً عمياً بما صموا و عموا ف « ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » (١١ : ٢٠) فقد كانوا ينظرون فلا يعتبرون ، او تعرض لهم العبر فلا ينظرون .

ليس ذلك عشو البصر عمى وصمم الاذن ، بل تعامي البصر وعشو البصيرة وصمم القلب : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (٢٢ : ٤٦) لذلك : « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » (٧ : ١٠) « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (٧ : ١٧٩) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣١٠ ح ٢٤٢ في تفسير العياشي عن محمد بن حكيم قال : كتبت رقعة الى ابي عبد الله (عليه السلام) فيها : اتستطيع النفس المعرفة ؟ قال فقال : لا - فقلت يقول الله : « الذين كانت اعيينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً » قال : هو كقوله « وما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » قلت فعابهم ؟ قال : ..

(٢) المصدر ج ٢٤٣ عيون الاخبار باسناده الى ابي الصلت الهروي قال : سأل المأمون ابا الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن قول الله تعالى « الذين كانت اعيينهم ... » فقال : ان غطاء العين .. ولكن الله شبه الكافرين بولاية علي بن ابي طالب بالعميان لانهم كانوا يستقلون قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فيه « ولا يستطيعون له سمعاً » ..

فتلك هي اعين في غطاء الغفلة والتعامي « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٢٢: ٥٠) وهي آذان لا يسمعون بها ، فلا يستطيعون بعد ذلك سمعاً ولا إبصاراً بما ختم الله على سمعهم وعلى أبصارهم كما ختموا « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٢ : ٧) .

ثم و « كانت أعينهم .. وكانوا » يضربان الى اعماق الماضي ، أنهم كانت أعينهم في غطاء منذ كانت لهم اعين ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً منذ كانت لهم سمع ، امتناعاً بالاختيار ، ثم « جهنم يصلونها وبش القرار » .

ومن ثم « في غطاء عن ذكرى » تجعل أعينهم غارقة في غطاء حيث غطتها من كل جانب ، فلا منفذ إذاً لمعاينة الحق وذكره وهذه أعمى العمى !

« وكانوا لا يستطيعون سمعاً » تجعل على آذانهم وقراً وصمماً محيطاً لحد لا يستطيعون سمعاً لو أرادوا سمعاً وهذه أصم الصمم ! حيث الأصم قد يسمع إذا صيخ عليه وأصغى ، وذلك لا يستطيع سمعاً !

وكما لمعاينة الآيات وذكر الله وسمعها درجات ، كذلك لغشاء الأعين وصمم السمع دركات وهذه اسفل الدركات .

و « عن ذكرى » تلميحاً كتصريحة أن غطاء الأعين لم تكن على الحقيقة في غطاء يسترها ، وحجاز يحجزها ، بل كانوا ينظرون فلا يعتبرون ، أو تعرض لهم العبر فلا يعبرون ، فقد كانت أعينهم تذهب سدى وصفحاً عن مواقع العبر ، فلا يفكرون فيها ، ولا يعتبرون بها فيذكرون الله سبحانه وتعالى عند إجماله افكارهم ، وتصريف خواطرهم .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٥٦﴾

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٥٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ
وَلِقَاءِهِمْ حَقِطْتَ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وِزْنًَا ﴿١٥٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا
آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٦٠﴾
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٦١﴾ قُلْ لَوْ كَانَتِ
الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ
كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٦٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا
بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ فَمَن
كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

« افحسب الذين كفروا » بي الحاداً ونكراناً لي ، ام بتوحيدي إشراكاً
« أن يتخذوا عبادي » الذين هم « من دوني » او « يتخذوا عبادي » دون
إذني « من دوني اولياء » يتولونهم كآله ام شركاء لي او مغولين في ولاية
شرعية اماذا ؟ « إنا اعتدنا » تحضيراً « جهنم للكافرين نزلاً » نزولاً إليها كما
نزلوني عن وحدتي وربوبيتي في زعمهم .

﴿ قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾^(١٠٣) الذين ضل سعيهم في
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^(١٠٤) .

« الأخسرين أعمالاً » هم في الدرك الأسفل من ضلال السعي وخسار
الأعمال ، لا يوازهم أحد من الخاسرين حيث الأفعل هنا مطلق فلا
يساوى أو يسامى ، كما لا يفوقهم أحد في الخسران ! وأصل الضلال ذهاب
القصد عن سنن طريقه ، فكأن سعيه لما كان في غير طريقه المؤدي الى
مرضاة ربه ، فهو ضال في سعيه ، خابط في غيّه وحابط في عمله .

فقد يكون الانسان بطالاً لا يسعى في الحياة الدنيا ، لا لها ولا
للأخرى ، او يسعى للدنيا ، مهتدياً الى منافعها دون الاخرى ، او يسعى
دونها ضالاً في سعيه للدنيا وهو عارف بضلاله ام يسعى لها ضالاً في سعيه
وهو يحسب أنه يحسن صنعا تدركات بعضها سفلى بعض والرابعة
سفلاها ، حيث يحرم الآخرة إذ لم يسع لها ، ويحرم الدنيا لضلال سعيه
لها ، ويحرم الإهتمام إلى ضلاله إذ يحسب أنه يحسن صنعا « خسر الدنيا
والآخرة ذلك هو الخسران المبين » !

وترى « في الحياة الدنيا » ظرف لضلالة ؟ أن سعيه ضل عن الحياة العليا في الحياة الدنيا ، فظل يسعى لها دون الأخرى ، وقد يكون ناجحاً في هذه الأدنى مهما حُرِمَ الأخرى ؟ وليس من الأخسرين أعمالاً ، حيث الأخسر منه من زاد ضلالاً على ضلال ، ١ - ضل سعيه عن الآخرة - ٢ - ثم ضل في سعيه للدنيا ، أن تكون « في الحياة الدنيا » ظرفاً لسعيه ، فسعيه في الحياة الدنيا ضل ، ضلال في ضلال ، ومن ثم « وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ضلال ثالث ، فهناك يتم ثالث الضلالة !

فطالما البطالون خاسرون ولكنهم قد يهتدون ، وكما الساعون للدنيا المهتدون الى منافعها ، فقد يفيقون عن غفوتهم ، ويستقيمون عن زلتهم ، بل والضالون في سعيهم لها ، العارفون بضلالتهم ، مهما كانوا بعباداً عن الهدى ، ولكن الذي ضل في سعيه عن الحياة العليا الى الحياة الدنيا ، ثم ضل في سعيه للدنيا ، وهو يحسب انه يحسن صنعا ، غارقاً في ثالث الضلالة ، فانه دائم في سعيه الى خساره في الأولى والأخرى ، ولا ترجى إفاقته عن غفوته وضلالة إذ لم يبق له منفذ الى صالحه ، فهو من الأخسرين أعمالاً !

إنه بسعيه الهادف إلى فوائده في الدنيا يخسرها كما خسر الأخرى ، كادحاً إلى خسران ، منفقاً حياته في تعب هدرأً دونما عائدة إلا الخسران ، كمن يذبح نفسه بذات يده وهو يحسب انه ذابح خروفاً يشويه لطعامه : مكداً مجداً في ذبحه !

قد يصبح الساعي بضلالة فيما يعمل من الأخسرين أعمالاً في الآخرة وهو في الدنيا رابح حياتها : « .. ألا لعنة الله على الظالمين .. » الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون : اولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله أولياء يضاعف لهم

٢٣٠ الجزء السادس عشر

العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ، أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » (١١ : ٢٢) « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيناً لهم أفعالهم فهم يعمهون . أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون » (٢٧ : ٥)

هؤلاء وهؤلاء من الأخسرين في الآخرة ، ومنهم من لم يخسر دينه ، فليس من الأخسرين أعمالاً في النشاطين إلا في الأخرى ، فاما الذي ضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً فقد خسر الأولى كما الأخرى وقد تكون خسراه في عقباه أقوى حيث هو في أولاه أغوى .

لا أخسر مطلقاً في سائر القرآن إلا هنا وفيمن كادوا بإبراهيم » وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين » (٢١ : ٧) ولكنهم الأخسرون في الآخرة كالأولين ، وفي دينهم في الكيد الذي كادوا به إبراهيم وهم في سائر دينهم رابحين .

لآية الأخسرين مصاديق من ضلال أهل الكتاب والمسلمين - الغارقين في ثالث الضلالة في الدنيا والدين كـ « الرهبان الذين حبسوا أنفسهم في السواري »^(١) وكفرة أهل الكتاب المبتدعين^(٢) « ولا اظن إلا أن الخوارج منهم »^(٣) وكل من يتقشف فيما يظنه شرعة إلهية وهو خطر على الدين والدينين .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٣ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي خبيصة عبد الله بن قيس قال سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول في هذه الآية أنهم . .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣١٢ ج ٢٥٠ في كتاب الاحتجاج عن الأصمغ بن نباتة قال ابن الكوا لا مير المؤمنين (عليه السلام) اخبرني عن قول الله عز وجل : « الآية » قال : كفرة أهل الكتاب اليهود والنصارى وقد كانوا على الحق فابتدعوا في ادیانهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٥٣ - اخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم

وكما لها مصاديق من المكذبين بآيات الله الصادين عن سبيل الله ، وقد يكون المتظاهر بالدين ، والمتقشف الجاهل أخطر منهم وأضل سبيلاً !

فالأخسرون اعمالاً دركات بعضها سفلى بعض ، مهما كان الغارقون في ثالث الضلالات كلهم من الأخسرين ، ولكننا الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه هم الأسفلون وكما جرت عليهم الآية وتتلوها :

﴿ اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ (١٠٥) :

« كفروا بآيات ربهم » عشوا عنها وتعامياً ومدّاً في كفرهم بقرن شيطانهم فضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ، كفر مطلق لا تخلص عنه « كفروا بآيات ربهم ولقائه » يوم الدنيا بما يقربهم الى الله زلفى ويوم الآخرة بنكرانها للقاء الرب هو لقاء ربوبيته ، في الأولى ربوبيته التكليف التكميل فزلفى المعرفة ، وفي الأخرى ربوبية الحساب ومن ثم الثواب والعقاب فالى جنة او نار ، في دار ليس الأمر فيها إلا الله ، يصيرون إليها ولا محيص لهم عنها ، وإذا لا أحد فيها يستطيع إنصرافاً عن الوجهة التي أمر الله سبحانه بجمع الناس إليها وحشرهم نحوها سمي ذلك لقاء الرب .

﴿ فحبطت أعمالهم ﴾ ومساعيهم فأصبحت « كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه » فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » إذ لا أعمال لهم صالحة حتى توزن ولا وزن للطالحة فتوزن !

« اولئك .. » تعريف ثالث بالأخسرين اعمالاً بعد « ومن يعيش » و

«قل هل ننبئكم» ثالث الضلالة في مثلث التعريف باهل الدرك الاسفل من النار .

فكفرهم مطلق لا مخلص عنه ولا مناص حيث يشمل آيات ربهم كلها ، آفاقيا وانفسيا ، تكوينياً وتشريعياً ، رسالياً ورسولياً اَمَازدا ، حيث عشوهم عن ذكر الرحمن مطلق ، وآيات الرحمن تذكر الرحمن لغير العاشين عنها .

ثم الكفر بآيات الرب كفر بقاءه ، والكافر بآيات ربه ولقائه لا أعمال له ثابتة إلا زائلة خابطة حابطة ، واصل الحبط انتفاخ بطن الدابة بنوع سام من الكلال فتلقى حتفها ، فالجاهل يراها سميئة شبعانة ، وهي في سبيل الموت ! وهذا أنسب وصف لأعمال الكفار ، أنها تنتفخ ويظنها أصحابها رابية رابحة وهي باثرة رابحة .

اترى اعماله الحابطة هي الطالحة ؟ وهي ثابتة كما الصالحة ! « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » !

ام الحابطة هي الصالحة ؟ وليست للأخسرين اعمالاً اعمال صالحة ! لكفرهم المطلق !

الحبط هنا يعني زوال الوزن ، فصالحة أعماله خاوية عن وزن للكفر المطلق ، مهما انفق وسعى في إصلاح الحياة ، فتحبط أعمالها عن وزن ، وطالحة اعماله خفيفة حابطة بلا إحباط « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » حيث تبقى أعماله كلها طالحة خفيفة ليس لها وزن ، فكيف يقام له وزن ؟

وذلك الحبط يشمل الدنيا والآخرة « فاولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة » (٢ : ٣١٧) في ميزان الله ، فلا وزن لهم في الدنيا كما الآخرة ، إذ لا تحسب صالحاتهم صالحات ، ولا فلاح لهم في طالحات ، فهم أخفاء عند الله وعند أهل الله في الأولى كما الآخرة : « والوزن يومئذ الحق فمن

ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون » (٧ : ٩) .

فهناك الوزن محصور في الحق^(١)، فلا وزن للباطل حتى يقام له وزن، سواء أكان الباطل حابطاً من أصله كسائر الباطل، أم محبطاً كان فيه شائبة الحق فأحبطه الله لحبطه في شاكلته ، كصالحات الكفار من خدمات بشرية تصلح الحياة : « من كان يريد الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (١١ : ١٦) .

ليس الوزن عند الله إلا ما يقرب إلى الله فـ « ليؤتين يوم القيامة بالعظيم الطويل الأكل والشروب فلا يزن عند الله تبارك وتعالى جناح بعوضة »^(٢) .

ومن أخفهم وأخسهم « أئمة الكفر وقادة الضلالة فأولئك لا يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يعاب بهم ، لأنهم لم يعابوا بأمره ونهيه .. »^(٣) .

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾^(١٠٩) .

هذه تحيل مداد كلمات الرب ولو كان ضعف البحر ، وأخرى تحيل

(١) لم يقل « الوزن يومئذ حق » وإنما « الحق » تدليلاً على أن الوزن هو الحق فلا وزن للباطل حتى يوزن أو يقاس بوزن الحق !

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٥٤ - أخرج ابن عدي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « ... أقرؤا إن شئتم » فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

(٣) نور الثقلين ٣ : ٣١٢ ح ٢٥٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل يذكر فيه أهل الموقف وأحوالهم وفيه ومنهم أئمة الكفر ..

مداد كلمات الله ولو كان ثمانية أضعاف البحر : « ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » (٣١ : ٢٧) .

فما هو البحر؟ ثم مداد مثله ، او من بعده سبعة أبحر؟ وما هي كلمات ربي؟ وكلمات الله؟ ثم ولها حدٌ بعدُ ام لا حد لها؟

علّ « البحر » فيها هو مجموعة بحار الأرض ، فانها هي المعروفة لدينا عينياً وقرآنياً^(١) دون سواها من بحار ، و « ما في الأرض من شجرة أقلام » لا تجاوب إلّا ما في الأرض من بحار ، حيث البحر المحيط في الكون تناسبه الشجر المحيط في الكون ! فلا هو مطلق البحر في الكون ، ولا بحر بعينه في الأرض ، حيث اختلاف بحار الأرض ينافي تعريف « البحر » إلّا جنسه الشامل لكل بحر ، فـ « البحر » إذاً عوانٌ بين البحرين لمطلق الكون أو خاص من الأرض .

والمداد ما يمدّ به من مادةٍ للمدّ أو قلم يمدّها ، فهناك البحر مداد وما في الأرض من شجرة أقلام المداد .

ثم « كلمات ربي » هي الدالات لفظياً وعلمياً وعينياً على الربوبية العليا كما « كلمات الله » هي الدالات على الألوهية وهي أشمل من كلمات الربوبية ، فالكلمة ما تدل على معنى في آية زاوية من الثلاث أماهيه ، وإذا كانت نعمة الله لا تحصى وهي محدودة في الواقع لحدوثها « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فاحرى بكلمات الرب وكلمات الله ألا تُحصى !

ثم « لو » في آيتي مداد الكلمات تُحيل ان يكون البحر مداداً لكلمات

(١) لا نجد في ٤٠ موضعاً فيها البحر بصيغه موضعاً يدلنا على بحر في غير الارض ، اللهم إلا ما يصلح التعميم وهذا ليس دلالة على بحر في غير الأرض يستدل بها ! مهما دلت احاديث عدة أن في السماء بحار .

ربي وكلمات الله ، و « لو » الثانية في الأولى إحالة ثانية دون وقفة عليها ،
 « ويمده من بعده سبعة أبحر » في الثانية تعني استمرارية الإستحالة دون
 وقفة على السبعة الزائدة ، الرامزة الى الكثرة الكثيرة ، والقصد فيها إلى
 استحالة مدّ الكلمات ككلّ باي مداد ، حيث إن مداد البحار والأشجار
 هي ايضاً من الكلمات ، ايّ كان الكاتب ، وبإية سرعة كانت الكتابة
 وأيان « لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي » .

« كلمات ربي وكلمات الله » وهي كل دالة على الله ، ليست هي ذات
 الله ولا من ذات الله ، وإنما هي مخلوقات الله ولا بد وأنها حادثة محدودة ،
 كما توحيه « قبل أن تنفذ كلمات ربي » ولكنها ليست بالتي تعد أو تحصى ،
 فضلاً عن ان تكتب ، إحالة في بعدين : ١- ان لا احد يمكنه إحصاءها
 فضلاً عن كتابتها - ٢- ولو أمكنه فالكاتب نفسه ، ومداد البحار والأشجار
 والورق المكتوب فيه ، هي كلها من كلمات الله ، ولو أنها كتبت فيما يكتب
 نفس الكتابة بحذافيرها من كلمات الله فتسلسل مستحيل ، او « لنفذ
 البحر قبل ان تنفذ كلمات ربي » !

إن كتابات الوحي وكافة التشريعات الإلهية ، التي تحملها الأصوات
 والكتابات والمفاهيمات ، هي من كلمات الرب ، وحملتها الرسل والأئمة
 وسائر العلماء بالله ، هم من كلمات الرب ، وكافة الرحمات الإلهية رحمانية
 ورحيمية هي من كلمات الرب ، ومجموعة الكائنات هي آيات الله
 وكلماته ، فاين مداد البحار والأشجار من مدّ كلمات الله !

فكلمات الرب هي الدالات على ربوبيته، وكلمات الله هي الدالات
 على الوهية في ذاته ورحماته رحمانية ورحيمية ، ومن نعم او نعم أمّاذا .

ففيما « إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فاستحالة الإحصاء والكتابة
 التي هي اصعب ، في كلمات النعم والنقم أمّاذا هي اخرى ! :

واين أنت ايها الانسان الهزيل الجاهل العاجز الذليل ، والغوص في
خضم ذلك البحر المنتظم ، واليَمُّ المنسجم من كلمات الرب الله ، إلا
غرقاً فيها عن سباحتك !

قد يدرك الانسان الغرور بما يسجله من مكامن الكون ، فتأخذه نشوة
الظفر في ظهور علمي وفي القدرة فيحسب أنه على شيء !

ولكنها الآيات الربانية والإلهية تواجههم بأفاقها المترامية ، فإذا هم على
خطوات من الشاطئ ولما يخوضوا البحر .. وحتى لو كان البحر مداداً بيده
«لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً» «او يمهده من بعده
سبعة ابحر» مداداً ! ف « قد أخبرك ان كلام الله عز وجل ليس له آخر ولا
غاية لا ينقطع ابداً »^(١) فيها نحصيه !

كلمات الله بعد كل مداد تنتظر مداداً يدها ، ولن يمددها أي مداد ،
فطالما هو أيضاً من كلمات الله إذا « لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات
ربي » !

فيا لنا من غباوة وعمى ، وحماقة كبرى ، نعيش كلمات الله ، غارقين
في خضمها ، ومارقين عن الذي تدل عليه وترشدنا إليه « فإنها لا تعمى
الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » !

كلمات تذكرنا الرحمن « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً
فهو له قرين » !

(١) نور الثقلين ٣ : ٣١٣ ح ٢٥٦ حدثنا محمد بن احمد عن عبد الله بن موسى عن
الحسن بن علي بن ابي حمزة عن ابيه عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) في
حديث قلت : قوله عز وجل « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل
ان تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » ، قال : قد أخبرك ..

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعباد ربه أحداً ﴾ (١١٠).

آية يتيمة منقطعة النظير في سائر قرآن التوحيد ، تجمع من مجامع التوحيد ما لا توجد في غيرها ، لحد يقول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عنها : « لو لم ينزل على أمي إلا خاتمة سورة الكهف لكفتهم »^(١) كفاية عن سائر التوحيد في القرآن وأصلي النبوة والمعاد ! وكأنها تختصر الوحي في خاتمة الرسالة على ما يتبنى كل الرسالة وتتبناه كل الرسالة : « إنما أنا بشر .. أحداً » إظهاراً لها وتظاهراً بها في عقيدة القلب ، ولفظة اللسان وعمل الأركان وتوجيه العالمين أيأ كانوا وأيان ! وقد جمعت الاصول الثلاثة نبوة : « يوحى الي » وتوحيداً في كافة الجنات : « أنما إلهكم إله واحد » ومعاداً : « فمن كان يرجو لقاء ربه .. » وقد تقدمت النبوة السامية المحمدية لأنها أكمل تعريف بنفسها وبأصلي التوحيد والمعاد !

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم

هنا وفي « فصلت » يؤمر الرسول ان يقول « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد » كلمة توحيدية احكمت هنا وهناك وفي اضرابها ثم فصلت في سائر القرآن .

في فصلت يؤمر بعد مع العالمين بالاستقامة الى الله .. فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين » (٦) وهنا يكمل كلمة التوحيد « فمن كان يرجو لقاء ربه .. » ! واحتصار كيان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في نفسه بانه بشر ، كلمة يقولها المرسلون أجمع : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٧ - اخرج الطبراني وابن مردويه عن ابي حكيم قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ..

كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (١٤ : ١٢) فهو بشر في كل ما للبشر .

ثم ولا يستثنى هو وهؤلاء إلا في وحي الرسالة : « يوحى إليّ » فيستثنى عن بشريته كل خطأ وشر ، دونما استقلال بجانب الإله ، ولا استغلال لشأن من الإله ، وإنما « بشر رسول » : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (١٧ : ٩٣) .

إنه بشر كسائر البشر في جسمه وروحه كمحمد ، اللهم إلا في روحه كرسول حيث يمتاز بها عن سائر البشر ! فهو في حاجيات ومتطلبات البشرية كسائر البشر يأكل ويمشي في الأسواق ويتزوج وينام ويفيق . . . ولكنه معصوم بالوحي عن أخطاء البشر وكلها ينافي الرسالة الإلهية من مثلث العصمة : تلقياً للوحي وإلقاءً وتطبيقاً في نفسه وسواه !

إن الرسول البشر - أم أي كائن سوى الله - ليس ليشارك بالله أم يشارك الله ، أو يخول عنه ما ليس إلا لله : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله . . » (٣ : ٧٩) كما وأن البشر ليس ليمنع عن رسالة الوحي لأنه بشر رغم ما يهرفه الخارفون : « وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » (٦ : ٩١) « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » (٣٢ : ٢٤) « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » (٢٣ : ٣٣) « فقالوا أبشر يهدونا فكفروا وتولوا واستغنى الله » (٦٤ : ٦) « إن هذا الا قول البشر » (٧٤ : ٢٥) !

إن كيانه محمد كرسول يُختصر فيما يوحى إليه من ربه دون استمداد بمن سواه شوراً وسواه أو اجتهاداً من رأيه ، ف « ما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » فلا يتجّه في نفسه أو يواجه العالمين ألا بالوحي « قل إنما

أنذركم بالوحي » « إن اتبع إلا ما يوحى إلي من ربي » !

ثم هذه الآية الوحيدة تحمل توحيدات عدة : ١- توحيد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في البشرية كوناً وكياناً « إنما أنا بشر مثلكم » - ٢- توحيد نبوته المحتصرة في وحي الله « يوحى إلي » - ٣- توحيد الله في كافة شؤون الألوهية : « إنما الحكم إله واحد » - ٤- توحيد اللقاء فلا يرجو الموحد إلا لقاءه : « فمن كان يرجو لقاء ربه » - ٥- توحيد العمل في الصالح لذلك اللقاء : « فليعمل عملاً صالحاً » : - ٦- وتوحيد العبادة لله : « ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » !

١- ف « قل إنما أنا في البشرية مثلكم » « يوحى إلي » . ولكن خصني بالنبوة دونكم «^(١) لا أزيد ولا أنقص عن نوع البشر كما يقتضيه « إنما » بحصرها كيانه (صلى الله عليه وآله وسلم) في البشرية المماثلة .

٢- « يوحى إلي » وأنا في النبوة كسائر من يوحى اليه مهما كانت همتا درجات ، ليس نازلتها خارجة الوحي ، ولا عاليته أعلى من الوحي ، وليس الوحي إلا اتصالاً علمياً معرفياً وعملياً خارق العادة المستمرة بالله .

٣- ومادة الوحي « إنما الحكم إله واحد » : هي ترك الإشراك في كافة دركاته وهي هي الحجب كلها ، التي تحول دون لقاء الرب ، فاللقاء المعرفي الزلفى للرب ، ولقاء رحمت الرب ، لزامه خرق الحجب الإشراك في كافة دركات الإشراك ! لترقى درجات اللقاء ، فاخترق كل دركة ارتقاء الى درجة ، كما اختلاق كل دركة تنزل عن درجة فهناك كفر وبعد

(١) نور الثقلين في الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري قال قلت لأبي علي بن محمد عليهما السلام - إلى أن قال - : قل إنما أنا بشر مثلكم « يعني أكل الطعام » مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد » يعني : قل لهم : أنا في البشرية مثلكم ولكن ربي خصني بالنبوة دونكم

مطلق للمشرك والملحد المطلق ، وهنا لقاء مطلق للموحد المطلق ، وبينهما درجات بعضها فوق بض ودركات بعضها تحت بعض .

اترى ان وحيه مختصر في «انما إلهكم إله واحد» ومن وراءه أصول أخرى وفروع ؟ علّه لانه الاصل الذي تتبناه كافة الرسالات الإلهية ، وسائر الأصول وكل الفروع تتبنى ذلك الأصل ! ولأن أصل الرسالة هنا أصل موضوع «يوحي الي» ثم «انما إلهكم إله واحد» ومن ثم ثالث الأصول المعاد «فمن كان يرجو لقاء ربه» ثم الأعمال التي تنتجها الأصول «فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً» !

(٤) ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾

وطالما الرب واحد ولكنهما لقاء الرب درجات حسب مختلف المقامات والقابليات والفاعليات ، فـ «ربه» تلمح الى مقام الملاقى الخاص به في لقاءه ، و «كان يرجوا» تضرب الى عمق الماضي المستمر ، ثم «فليعمل .. ولا يشرك» هما دعامتان للحصول على ما يرجوا من لقاء ربه ، والوصول إليه .

في سائر القرآن اللقاء المرجو للصالحين لقائان : لقاء الله ولقاء الرب ، سواء أكان في الدنيا والآخرة ام فيهما ، كما أن هناك لقاءً في الآخرة لغير الصالحين لا يرجونه وهو الخسر إلى يوم الله وعالم الله ، ورجاء اللقاء يخص الصالحين بما قدموا من صالحات : «من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم» (٢٩ : ٥) ولا مقابل ومضاد لرجاء اللقاء إلا الكفر به والمرية فيه وعدم رجاءه .

وآيتا رجاء اللقاء تعنيان فيما تعنيان لقاء الزلفى المعرفي في الحياتين مهما كان في الأخرى أهدي سبيلاً ، كذلك ولقاء ثوابه ، دون اختصاص بالأولى وإن كانت الأخرى أنبل واجلى ، وقد تشملهما «الذين يظنون أنهم ملاقوا

ربهم وانهم اليه راجعون» فلا تخص الرجاء الحياة الحساب فانها متيقنة فوق الرجاء ولا تكفيها الرجاء وانما « يرجو لقاء ربه » في مثلث اللقاء بما فيه اللقاء القرب الزلفى ولقاء الثواب ، اذ لا يحتمل على الرب قضية الحالة الايمانية العوان بين الخوف والرجاء .

فاذا قال « فمن كان يوقن لقاء ربه » اختص بأصل المعاد ، وحين يقول « فمن كان يرجو لقاء الله » يعمه والآخرين المرجوين للمؤمنين !

فيما تتوفر كافة الربوبيات الرحيمية لرب العالمين هنالك يتحقق اللقاء التام والمطلق دونما حجاب ، اللهم إلا حجاب ذات الالهية فانها لزام الذات ، كما حصل للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) في مقام « أو أدنى » حيث « تدلى » فلم يبق بينه وبين الله احد ولا من حجب النور حتى نور ذاته (صلى الله عليه وآله وسلم) فاصبح عيناً كله ، متغافلاً عما سوى الله .

ثم وفيما دونه من لقاء ، تستمر الموازات بين العمل الصالح للقاء وبين اللقاء .

﴿٥٠﴾ فليعمل عملاً صالحاً ﴿٥١﴾ لما يرجوه من لقاء ربه معرفة وثواباً أماذا ؟ .

عملاً صالحاً في مادته ، في علانيته وسريته ، زوايا ثلاث في صلاح العمل تتبنى إصلاحه ، فانه « لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بالنية ، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا باصابة السنة » فإصابة السنة هي مادة العمل وعلانيته ، والنية هي سريته .

فلا تنفع النية الصالحة « لقاء ربه » ما لم يعمل ، ولا ينفع العمل الصالح « لقاء ربه » ما لم ينو ، ولا ينفع العمل بالنية الصالحة « لقاء ربه » ما لم يصب السنة .

ومن صلاح العمل هو خلوصه لله دون اي اشراك فيه لمن سوى الله .

﴿٦﴾ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ فالمشرك بالله لا يعبد الله ، وطالما المؤمن يعبد الله دون إشرارك في الألوهية ، ولكنه قد يشرك في العبودية رثاء أو سمعة أمّاذا : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

عبادة الرب لها جنبات قوامها النيات ، ثم ظواهرها ومظاهرها ، فلا إشرارك في نفس العمل في نفسه أو مقدماته ولا في نيته باعثاً ولا غاية في أية زاوية من مثلث الزمان ولا إشرارك فيها لأحد حتى نفسه أن يعبد ربه حظوة روحية أو ثواباً أو فراراً عن عقاب أم حالة خارقة للعادة تحصل لبعض العابدين ، فالعبادة الصالحة للقاء ربه مطلقاً متحللاً عن أية واسطة ، هي المتحللة عن أي إشرارك كما يقول أهلها « ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » !

فالعمل العبادي بادئ من أسفل الدرجات الى أعلى الدرجات وبينها متوسطات ، من عبادة باطلة ، ثم صحيحة غير مقبولة غير قابلة للقاء ربك ، ثم مقبولة قابلة ولكنها درجات الى مقام التدلي . « أو أدنى » وهو أعلى الدرجات .

ومن أسفل الدرجات العبادة الباطلة علانية وسراً ، حيث تفقد شروط الصحة في ظاهرها ، والنية الخالصة الصادقة في باطنها ، ثم الفاقدة لإحداها ..

والفاقدة لصالح النية هي التي يؤق بها رثاء حين يؤق ، أم بعد حين حيث يجب أن يظهر بعد خفاء ويحمد عليه فتشملها الرثاء ، ف « الإبقاء على العمل أشد من العمل إن الرجل ليعمل فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفاً فلا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس ويعلمه فيكتب علانية ويمحي تضعيف أجره كله ثم لا يزال به الشيطان حتى يذكره للناس الثانية ويجب أن يذكر ويحمد عليه فيمحي من

العلانية ويكتب رثاءً ، فأتقى الله امرء صان دينه فان الرياء شرك ^(١) بل و
« إن يسيراً من الرياء شرك » ^(٢) سواء اكان قبل العمل ان تخبر غيرك أنك
سوف تعبد ربك ، او معه ان تراني غيرك في العمل ، ام بعده ، ان تخبر
بما عملت سراً وجهرأ بنية صافية ، فالعمل الصالح الخالي عن الرياء هو
المتحلل عنه في مثلث الزمان .

فقد تعبد ربك علانية دون رثاء إذ لا تراني الناس ، فانما تعبد بينهم
تقرباً الى ربك إذ أمرك كالحج وصلاة الجماعة ، او تقريباً لغيرك وتشويقاً
كالإنفاق جهراً ، وهي عبادة صالحة خالية عن إشراك .

وقد تعبد سراً إذ لا تجد أحداً ترائيه وانت تحب ان ترى ^(٣) ثم تخبر
أنك عبدت ربك سراً ، او تعبد سراً مخلصاً ولا تحب الرثاء ، ثم الشيطان
يحملك على المرائاة فتخبر ام أخبرتك أنك سوف تعبد ربك سراً ،
ولكنك أخلصت حين العبادة ثم لم تخبر أحداً بعدها ، فانت فيها كلها مرء

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٧ - اخرج البيهقي عن ابي الدرداء ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ...

(٢) المصدر - اخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن معاذ بن جبل
سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان يسيراً من الرياء شرك
وان من عادي اولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة وان الله يحب الابرار الاخفاء الانقياء
الذين ان غابوا لم يفتقدوا وان حضروا لم يدعوا ولم يعرفوا قلوبهم مصابيح الدجا
يخرجون من كل غبراء مظلمة .

واخرج احمد والبيهقي عن ابي امامة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان
احسن اوليائي عندي منزلة رجل ذو حظ من صلاة احسن عبادة ربه في السر وكان
غامضاً في الناس لا يشار اليه بالاصابع عجلت منيته وقل ترائه وقلت بواكيه .

(٣) نور الثقلين ٣ : ٣١٥ ح ٢٦٤ في اصول الكافي عن ابي جعفر (عليه السلام)
في الآية - قال : الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله انما يطلب تزكية
الناس يشتهي ان تسمع به الناس فهذا الذي اشرك بعبادة ربه . .

رغم اختلاف دركات الرثاء .

فان كانت عبادة واجبة بطلت ، وان كانت مستحبة سقطت ، وعمل
الاخيرة صحيحة لانك فيها تائب عما نويت .

فـ « لا يشرك بعبادة ربه أحداً » لا تنحصر بحال العمل ، بل تشمل
كل الأحوال ، فمن مات عن عمل ولم يشرك به غير الله ، فهو صالح
خالص لله ، ومن مات عن عمل أشرك به غير الله لم يكن صالحاً ، سواء
أق به حينه مراثة الناس ، أم اخبر به قبل او بعد وقد أق به سرّاً ، أم ولم
يخبر ولكنه كان يحب أن يراه الناس^(١)، كل ذلك رثاء الناس مهما اختلف
الرثاء فيها .

ثم ما وقع رثاء لا ينقلب عما وقع ، وما وقع صالحاً دون رياء ينقلب
الى رياء اذا استقبله الرثاء ، ولا ينقلب رثاء إن كانت بنية صالحة مهما
تقدمه الرثاء .

فمهما أشرك العابد في عبادة ربه أحداً سوى ربه ، فعمله - إذا - غير
صالح ، حتى إذا كان هذا الأحد نفسه أنه يرتاح ويبتهج نفسياً من هذا
العمل ، اللهم إلا اذا كانت راحة في مرضات الله دون شهوة النفس ،
فضلاً عما إذا ارتاح برثاء الناس ، أظهر لهم عملاً أم أسر عنهم فـ « إذا
جمع الله الأولين والآخرين ببقيع واحد ينقذهم البصر ويسمعهم الداعي
قال أنا خير شريك كل عمل عمل لي في دار الدنيا كان لي فيه شريك فأنا
أدعه اليوم ولا أقبل اليوم إلا خالصاً .. »^(٢)

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٥ - اخرج هنا في الزهد عن مجاهد قال جاء رجل الى النبي
(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال يا رسول الله : اتصدق بالصدقة والتمس بها ما عند
الله واحب ان يقال لي خيراً فنزلت : « فمن كان يرجوا ... »

(٢) المصدر اخرج الطبراني عن شداد بن اوس قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)
« ... ثم قرأ « لا عباد الله المخلصين فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً »

والإشراك في العبادة قد يكون في نفس العبادة كان يتوضأ بمساعد^(١) او يصلي متكاً ام بمساعد وهو قادر على الصلاة دون متكاً او مساعد .

ثم الإشراك في نية العبادة قد يكون في باعثها او غايتها ام هما معاً ، فمن لا يبعثه أمر الله ورضوانه إلاّ بامرٍ آخر فقد اشرك فيها ، ومن يبتعث بأمره تعالى ولكن اخف مما يكون هناك امر آخر فقد اشرك فيها ، فالإخلاص في باعث العبادة وغايتها شرط لصحتها ، وقد لا ينافية ان يسره ظهورها^(٢) دون ان يكون باعثاً او غاية لها .

وإشراك أحد في عبادة ربه يشمل رثاء الناس فيها ، وإرضاء نفسه ضمن ما يرضي ربه ، والإشتراك فيها وقد أمر أن يأتي بها وحده ، وكل

صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً .

(١) المصدرح ٢٦٧ في الكافي علي بن محمد بن عبد الله عن ابراهيم بن اسحاق الاخر عن الحسن بن علي الوشاء قال : دخلت على الرضا (عليه السلام) وبين يديه ابريق يريد ان يتهيئاً للصلاة فدنوت منه لاصب عليه هي ذلك وقال : مه يا حسن ! فقلت له : لم تنهاني ان اصب عليك تكره ان اوجر ؟ قال : توجر انت وأوزر انا ؟ قلت له : وكيف ذلك ؟ قال : اما سمعت الله عز وجل يقول : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه احداً » وها أنا ذا اتوضىء للصلاة وهي العبادة فأكره ان يشركني فيها احد وروى انه (عليه السلام) دخل يوماً على المأمون فرآه يتوضىء للصلاة والغلام يصب على يده الماء فقال : لا تشرك بعبادة ربك احداً ، فصرف المأمون الغلام وتولى اتمام الوضوء بنفسه .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٢١٥ لقمي عن زرارة عن ابي جعفر (عليه السلام) قال : سألته عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه انسان فيسره ذلك ؟ قال : لا بأس ! ما من أحد الا وكتب ان يظهر له في الناس الخير اذا لم يصنع ذلك لذلك - أقول يعني لم يكن ظهوره من بواعثه او غاياته

ذلك يشملہ النفي « ولا یشارك بعبادة ربه احداً » ، ولكن في شمول « احداً » لنفسه خفاء فلا تبطل .

وأما أن يأتي بها دون إشراك أحدٍ ، يتغني بها الفرار عن العقاب او طلب الثواب ، فلا تشملها الآية مهما كانت عبادة العبيد او التجار ، دون الاحرار ، فهذه درجات ثلاث للعبادة الصحيحة المقبولة حيث لا شريك فيها ولا في نيتها مع الله .



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



(۱۹) سُوْرَةُ مَرْيَمَ
وَأَنبِيَآءُنَا إِنَّا وَتَسْعُونَ



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ❶ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ❷
 إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ❸ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ
 الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ
 رَبِّ شَقِيًّا ❹ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ
 امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ❺ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
 مِنْ عَالِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ❻ يَزَكَرِيَّا إِنَّا
 نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ❼
 قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا
 وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ❽ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ
 هُوَ عَلَىٰ هَئِنِّ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْعًا ❾
 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ❿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
 ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ⓫ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَبِيحِي خُذِ
الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ
لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ
جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ
يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾



سورة تسمت بمريم ، ولا نجد في سائر القرآن إمزاة اخرى وحتى افضل
منها كفاطمة (عليها السلام) تسمت باسمها سورة أو يؤتى باسمها في آية ،
ومريم آتية في أربع وثلاثين آية وخامسة هي « سورة مريم » ! أترى ذلك
لفضلها على نساء العالمين ؟ وفاطمة أفضل منها حسب النصوص الإسلامية^(١)
وذكر الإسم في القرآن لا يدل على فضيلة ، فزيد يذكر في القرآن ولا يذكر
الأكثريه الساحقة من النبيين ، ولا احد من خلفاء الرسول المعصومين ولا من
صحابه الكرام الميامين !

ورغم ان القرآن ليس من دأبه ذكر النساء بأسمائهن حفاظاً عليهن حتى
في أسماءهن ، نراه يدأب في ذكر مريم مرات عدة ليس إلا ذوداً عنها ما مسته

(١) راجع سورة الكوثر من الفرقان ج ٣٠ .

اليهود والنصارى من كرامتها ونسبتها الى غير اللائق بحرمتها ، فكان من الواجب الرسالي في الوحي الأخير ذكرها في مذكرات شأنها بعصمتها وطهارتها ، كما وفي سائر القرآن مذكرات لعصم المرسلين حيث تعرضت في محرفات من كتابات الوحي لما لا يليق بساحة الرسالة ولا الايمان بل ولا أي إنسان ! وآي الذكر الحكيم عاصمة عصم الوحي ، كما هي عاصمة الرسالة والوحي .

* * *

﴿ كَهَيْهَاتَ ﴾^(١)

إنها الفريدة في الحروف المقطعة القرآنية في العدد التركيبي ، ففي الشورى « حم عسق » خمسة في تركيبين اثنين ، وهنا خمسة في تركيب واحد ، ثم لا خمسة في سائر القرآن ، والمتبع من قراءتها هي المتواترة في كتب القرآن « كاف - ها - يا - عين - صاد » دون سائر القراءات^(١).

ولا بد هنا من رباط بينها ومغزى السورة ، كما في سائر الحروف المقطعة مهما كانت هنالك إشارات أخرى لا تحويها السورة ، فإنها مفاتيح كنوز القرآن وبرقيات رمزية إلى نبي القرآن !

روايات من الفريقين تدلنا أنها حروف من أسماء الله على اختلافها في

(١) من كسر الهاء وفتح الياء وهي قراءة أبي عمرو وابن مبادر أو (مناذر) والقطعي عن ابوب ومن عكسها وهي قراءة حمزة والاعمش وطلحة والضحاك عن عاصم ، ومن امالتهما كسراً فيها وهي قراءة الكسائي والمفضل ويحيى عن عاصم والوليد بن اسلم عن ابن عامر والزهري وابن جرير ، ومن ضم الهاء وفتح الياء وهي قراءة الحسن ويروى عنه عكسها ايضاً وروى صاحب الكشف عنه ضمها ، واشمامها شيئاً من الضمة (تفسير الفخر الرازي ج ٢١ : ٧٨) .

« ما هي تلك الاسماء »^(١) وهذه الاسماء المرموز بها لا تختص بهذه السورة ، فقد تأتي بألفاظها أو معانيها في السور كلها !

ويروى عن القائم المهدي (عجل الله فرجه الشريف) أنها اشارات الى رزية العاشور^(٢) وليس بذلك البعيد ، لمكان المشابهة التامة بين الحسين (عليه

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٥٨ - اخرج ابن مردويه عن الكلبي انه سئل عن « كهيعص » فحدث عن ابي صالح عن ام هاني عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : كاف هاد عالم صادق ، اقول : لم تذكر هنا اشارة الياء وقد ذكرت فيسما رواه القمي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : هذه اسماء الله مقطعة واما قوله « كهيعص » قال : الله هو الكافي الهادي العالم الصادق ذو الايادي العظام « فـ ذو الايادي من اليد فهو رمز الياء وفي معاني الاخبار باسناده الى محمد بن عمار قال : حضرت عند جعفر بن محمد (عليهما السلام) فدخل عليه رجل فسأله عن « كهيعص » فقال (عليه السلام) : « كاف » كاف بشيعتنا « ها » هاد لهم « يا » ولي لهم « عين » عالم باهل طاعتنا « صاد » صادق لهم وعده حتى يبلغ بهم المنزلة التي وعدهم اياها في باطن القرآن ، اقول : وهذا يختلف في اشارة الياء « ولي » عن سابقه « ذو الايادي » وظاهر الاشارة فيها الى اسماء الله تعالى هو الحرف الاول ، فـ ذو الايادي مفضل على « ولي » الا ان تؤول الولاية الى ذي اليد . وفي المجمع روي عن امير المؤمنين (عليه السلام) انه قال في دعائه : اسألك يا كهيعص .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣١٩ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سعد بن عبد الله القمي عن الحجة القائم حديث طويل وفيه « قلت : فاخبرني يا بن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، عن تأويل « كهيعص » ؟ قال (عليه السلام) : هذه الحروف من أنباء الغيب ، اطلع الله عبده زكريا عليها ثم قصها على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك ان زكريا (عليه السلام) سأل ربه ان يعلمه اسماء الخمسة فاهبط الله عليه جبرئيل (عليه السلام) فعلمه اياها فكان زكريا اذا ذكر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلياً (عليه السلام) وفاطمة (عليها السلام) والحسن (عليه السلام) سرى عنه هم وانجلي كربه واذا ذكر الحسين (عليه السلام) خنقته العبرة ووقعت عليه

السلام) ويحيى، و«كهيعص» هي «ذكر رحمة ربك عبده زكريا» وقد تعنيهما هذه الخمس فيما تعنيه من إشارات، ما وصلتنا منها إلا هذه وتلك.

وماذا يمنع أن تكون هذه إسماء لله أو حروفاً من أسماء الله، وبضمنها إشارات أخرى منها رزية الحسين (عليه السلام) وهو إسم من أسماء الله، وقد حقق كفاية الكافي وهدايته وعلمه وصدقه وولايته في جهاده وجهوده، وهو صنو عظيم من يحيى بن زكريا في «لم نجعل له من قبل سمياً» وفي اشتشهاده أما ذا من امره المرير.

﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾^(٢) إذ نادى ربه نداء خفياً^(٣).

= البهرة فقال ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت أربعا منهم (عليهم السلام) تسليت باسمائهم من همومي وإذا ذكرت الحسين (عليه السلام) تدمع عيني وتشور زفرتي؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال: «كهيعص» فالكاف اسم كربلاء والهاء هلاك العترة. والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين (عليه السلام) والعين عطشه والصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا (عليه السلام) لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ومنع فيها الناس من الدخول عليه واقبل على البكاء والنحيب وكانت ندبته: إلهي اتفجع خير خلقتك بولده؟ اتنزل بلوى هذه الرزية بفناء؟ اتلبس علياً وفاطمة ثياب هذه المصيبة؟ إلهي اتحل كربة هذه الفجيعة بساحتها؟ ثم كان يقول: إلهي ارزقني ولداً تقربه عيني عند الكبر، واجعله وارثاً ووصياً واجعل محله مني محل الحسين (عليه السلام) فاذا رزقتنيه فافتني بحبه وافجعني به كما تفجع عمداً حبيبك (ص) بولده، فرزقه الله يحيى (ع) وفجعه به وكان حمل يحيى ستة أشهر وحمل الحسين (عليه السلام) كذلك.

وفي مناقب ابن شهر آشوب عن اسحاق الاحمري عن الحجة القائم (عليه السلام) مثله سواء.

اقول: لا غرو ان ذلك الترتيب اسم واحد أو أسماء من الله تعالى تحمل في حروفها إشارات إلى ضحية الله وثأره.

كان « ذكر » خبر لـ « كهيعص » ام « هذا » اما ذا ؟ والاول اولى لذكر ما يصلح كونه المبتدئ ، ويناسبه بعض التأويل ، فرحة الكفاية والهداية واليد الولاية والعلم وصدق الوعد ، رحمت خمس إلهية لعبده زكريا ، وكلها رحمت ربانية لعباد الله المخلصين ، اما ذا من رحمت تذكر في هذه السورة لمريم (عليها السلام) واضرابها من المكرمين . . وقد يعني « عبده » الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فـ « زكريا » اذا عطف بيان لـ « رحمة » فـ « كهيعص » و « اذ نادى ربه » ، هي ذكر رحمة ربك زكريا لعبده محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) او المعنيان معنيان ، فـ « عبده » يشملهما على البدل وهو أجل .

ومن رحمته استجابة دعوة عبده « اذ نادى ربه نداءً خفياً » - « وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » (٢١: ٩٠) .

والنداء هي الدعوة جهراً للمدعو مهما كانت خفية عن الآخرين وكما « نادى ربك موسى أن إئت القوم الظالمين » (٢٦: ١٠) و « اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى » (٧٩: ١٦) فلا تنافي « نداءً » كونها « خفياً » كما الوحي الى موسى جلي لموسى وخفي عمن سواه ، ولا سيما بالواد المقدس اذ لم يكن معه أحد حتى أخيه هارون المشارك له في وحي النبوة احياناً .

ومن آداب الدعاء كونها خفية : « أدعوا ربكم تضرعاً وخفية » (٧: ٥٥) ابتعاداً عن الرثاء ، و « إن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » (٢٠: ٧) فلما ذا الجهر إذاً وان لم تكن رثاءً ؟!

وليس من لزوم النداء البعد حتى توجه نداء زكريا بتخيّل البعد عن ربه

تخضعاً ، رغم ان الدعاء حالة القرب حتى للبعيد عن ساحة القرب فضلاً
عن المقربين !

انه يناجي ربه بعيداً عن أسماع وعيون الناس ، إخلاصاً لربه وكشفاً عما
يثقل كاهله وتجنباً عن مقالة هازئة : زكريا يطلب ولداً وقد اشتعل رأسه شيباً
وكانت امرأته عاقراً، يدعوه في سر مستسر وان كان ربه يسمع دون دعاء
ويرى دون رثاء ولكنهما المكروب يستريح الى الدعاء وقد أمره ربه بالدعاء :
وقال ربكم أدعوني أستجب لكم » حيث الدعاء التماس والتجاء وهو مخ
العبادة :

﴿ قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم اكن بدعائك
رب شقياً ﴾ (٤).

عرض متين من نبي أمين لشروط لاستجابة الدعاء ومقتضيات وعدم
الموانع فيها لديه : « رب » دون « يا » لتكون اقرب لفظياً كما هو قريب معنوياً
فان « يا » لنداء البعيد ! « اني وهن العظم مني » واذا وهن العظم وهو المتن
المكين فسائر البدن أو هن وسرعة الفناء إليه أهون « واشتعل الرأس شيباً »
شعلة النور البيضاء حتى لا تبقى سواداً ، فانه تعبير ما ألطفه عن تكاثر
الشيب في الرأس كأنه مشتعل يقهر بياضه وينصل سواده ، سرعة في تضاعف
الشيب وتزايد وتلاحق مدده حتى يصير في الإسراع والانتشار كاشتعال
النار ، يعجز مطفيه ويغلب متلافيه .

وترى الشيب من شروط استجابة الدعاء وقد يشيب الإنسان على
الشقاء ؟ « ولم اكن بدعائك رب شقياً » لم تسبق لي منذ التكليف لحد المشيب
شقة في دعائك ! : دعائك إياي فيما امرتني ونهيت حيث أطعت دونما شقاء
وعناء ، ودونما تعنت وكبرياء ، وهذا من اصول إجابة الدعاء « واوفوا بعهدي
أوف بعهدكم وإياي فارهبون » (٢ : ٤٠) فعهدي هو عهد العبودية

الخالصة : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين .
وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » (٣٦ : ٦١) ومن عهدكم إستجابة الدعاء
« أدعوني أستجب لكم » « ولم أكن » فيما مضى « بدعائك » إياي وهو العهد
الأول « رب شقياً » وعلى ضوئه ، ولم أكن بدعائي إياك وهو العهد الثاني
« رب شقياً » فان دعاء الأشقياء لا تستجاب ، وإذ لم أكن شقياً بدعائك إياي
لم أكن شقياً بدعائي إياك^(١) .

هذه سابقتي المشرقة في بعدين قبل المشيب ، أفبعد المشيب وانا احرى
بالاستجابة وأرحم انت لا تستجيب ؟ .

ورغم « إني وهن العظم مني » فلا يهن العزم منك ، ومع أنه « اشتعل
الرأس شيئاً » فرحتك مشتعلة للشيب أكثر مما قبل المشيب ، فحالي الضعيفة
وما ضي من حالي إذ « لم أكن بدعائك رب شقياً » تقتضي رعاية حالي
واستقبالي ، وكما لم أكن في حال بدعائك رب شقياً فلا تكن بدعائي رباً إلا
حقياً ، فقد عودتني الإستجابة في قوتي وقوتي فما أحوطني في هرمي وكبري !
ثم وليست هذه الاستجابة لصاحلي شخصياً ، بل والحفاظ على مستقبل
الرسالة وراثه الدعوة :

﴿ وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً ﴾^(٥) .

ليس لي ولد يرثني رضيعاً ، وإني خفت من يليني من ورائي ان يصبحوا
أخلاقاً متخلفين ، فلا يقوموا على تراث النبوة مالأً وحالاً ، تضييعاً للمال في
غير موضعه ، وتحويلاً للحال الى غير حال .

(١) فد دعائك « يعني المعنيين على الترتيب في الادب اللفظي باضافة المصدر الى الفاعل
كما في «عهدي» ثم اضافته الى المفعول كما في عهدكم ، وكما هو الترتيب المعنوي ان
استجابة الدعاء من مخلفات استجابة العبد دعاء ربه وما الطفه جمعاً لها لفظياً ومعنوياً .

ورغم ان حالي وماضي واستقبالي تقتضي إجابة دعائي لصالح استمرارية الدعوة والحفاظ على بيت النبوة ، ولكني « وهن العظم مني » كمانع أول للإيلاد « وكانت امرأتي عاقراً » كمانع ثانٍ للولادة ، ولكنك لا يمنعك أي مانع ولا يقف دون مشيتك أي رادع ، « وكانت » تلمح لكونها عاقراً منذ ماضٍ بعيد وهي الآن شبيخة فاصبحت ذات عقيرين ! فهذه - إذاً - ثلاث !

﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾^(٥) يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً^(٦).

« هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » (٣ : ٣٨) « رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين » (٢١ : ٨٩) . يدعو ربه بكل ضراعة آيساً من نفسه ، وهناً لعظمه وعقراً لزوجته ، راجياً ربه أنه سميع الدعاء وهو خير الوارثين ، فهب لي ولياً يرثني خيراً وانت خير الوارثين ، وقد تشير « من لدنك » إلى أن مطلوبه يحمل رحمة لدنية رحمانية حيث الاسباب العادية قاصرة لمكان العقر والشيوخوخة ورحمة لدنية رحيمية هي النبوة وهما من خوارق العادة في الرحمتين « فهب لي من لدنك ... » !

وهنا « واجعله رب رضيعاً » تصرف « يرثني ويرث من آل يعقوب » عن وراثته النبوة ، او تعمها لكل وراثته من مال ونبوة^(١) فلو كانت « يرثني » مختصة بوراثته النبوة وهي تتطلب في أصلها وفرعها كون الوارث رضيعاً ، لكانت

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٥٩ واخرج الفرياني عن ابن عباس قال كان زكريا لا يولد له فسأل ربه فقال : رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب قال : يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة .

« واجعله رب رضيعاً » طلباً لتحصيل الحاصل ، أو أن الله يورث النبوة لغير المرضي فيدعوه زكريا « واجعله رب رضيعاً » ! .

فلقد كانت دعائه ذات بعدين « هب لي من لدنك ولياً يرثني . . »
 « واجعله رب رضيعاً » وكما في آل عمران : « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة . . »^(٣٨) كتصريحاً ثانية ، ثم وتلميحة في الانبياء « رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين »^(٣٩) .

فلا يطلب ويستوهب ولياً غير رضي ، ولا رضيعاً غير ولي ، وإنما يطلب ولياً رضيعاً يرثه وهو الولد من صلبه فميراث النبوة - على مجازها - لا يختص بذرية وارثة ، كما وهذا الإرث لا يقتضي كون الوارث رضيعاً . فقد يدعوزكريا ربه أن يهبه ولداً هو مجمع الوارثين ، ولو اختصت بوراثة النبوة أصبحت مجازاً لا محسناً له ولا دليل ، وسقطت « واجعله رضيعاً » عن الفائدة . فليعن به « ولياً يرثني » ميراث المال والاعم بقسرينة « ويرث من آل يعقوب » وبـ « واجعله رب رضيعاً » النبوة المجعولة في وارث المال ، وعلى أية حال فإرث المال أصل قاطع في « يرثني » ولكي ينضبط « واجعله رب رضيعاً » ! .

فهنا الحديث المختلق على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) هضماً لفدك البتولة الزهراء (عليها السلام) ، مصلحية الحفاظ على الخلافة البتراء « نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة » يرد إلى قائله لمخالفته نصاً من كتاب الله « يرثني ويرث من آل يعقوب . . » ، وحيث لا تختص بارث النبوة ، بل لا تورث النبوة حتى تشملها^(١) ، وإنما هي الاستفادة من « واجعله

(١) فالوراثة في وجه عام تختص بالمال حيث يتقل بحكم الله إلى الورثة ، فاما العلم والتقى ، والرسالة واضرابها من الخصائل المعنوية فلا تورث كما المال ، اللهم إلا مجازاً ، ان الله يجعل النبوة في ولد النبي فيعبر عنه بالوراثة لمشابتها وراثة المال رغم الفوارق =

رب رضيعاً» جعلاً أليها ثانياً باصطفاء بعد جعل الولادة .

ولان عموم الحكم في هذا المختلق معلل بالنبوة « معاشر الانبياء » فلا تخصيص فيه إلا تعامياً عن العلة فتغاضياً عن أصل الحكم ، فلا يقبل تخصيصاً بالكتاب ان وراثة المال في آل يعقوب تستثنى من عموم الحكم ، رغم عموم النص ونص العموم في « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » (٤ : ١١) أفعلى عمد يُترك كتاب الله في عمومه وخصوصه ؟ او ان الصديقة الزهراء لم تكن من أولاد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ام لم تكن مسلمة ترث اباهما اماهيه ؟!

تقول فيما يروى عنها (سلام الله عليها) : « أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم اذ يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ وقال عز وجل فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا ﴿ رب هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيعاً ﴾ وقال عز ذكره : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وقال : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » وقال : « إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » وزعمتم ان لا حظوة لي ولا ارث من ابي ولا رحم بيتنا ! أفخصكم الله بآية أخرج نبيه منها ؟! ام تقولون أهل ملتين لا يتوارثان ؟! أولست وأبي من أهل ملة واحدة ؟! أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟! أأغلب على إرثي ظلماً وجوراً وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب

= بينهما ، ولا مجال في هذه الآية لهذا المجاز ، اللهم الا ان يُعنى من « يرثني .. » كلا الميراثين والقدر الثابت وراثة المال ، حيث النبوة المذكورة في « واجعله رب رضيعاً » .

ينقلبون .. «^(١)» .

هنا « يرثني » يعم الإرثين أو يخص ارث المال . فماذا يعني « ويرث من آل يعقوب » ؟

قد يعني يعقوب بن ماثان اخا عمران ابن ماثان ابي مريم ، وكانت امرأة زكريا اخت مريم ، فلانها من آل يعقوب فارثه عنها إرث من آل يعقوب ، ولكنه بعيد في عرف القرآن حيث لا يذكر فيه يعقوب إلا ابن اسحاق ، إذا قال يعقوب هم بنو اسرائيل فالميراث اذا يعم النبوة والمال .

﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾^(٧) .

« فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسباً ونبياً من الصالحين » (٣ : ٣٩) - « فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » (٢١ : ٩٠) .

لقد تحققت الإستجابة لتوفر شروطها ، مسارعة في سابق الخيرات وسابغها والدعاء رغباً ورهباً والخشوع لله وقد جمعها في إجمال « ولم اكن بدعائك رب شقياً » .

وقد تعني « وأصلحنا زوجه » إصلاحها عن عقرها لتلد ، وإصلاحها

(١) ج ٦ بحار الانوار، يقول صاحب البحار هذه الخطبة من المشهورات بين الفريقين مع بعض الاختلاف في بعض الالفاظ وينقلها هنا عن كتاب « بلاغات النساء » لابي الفضل احمد بن ابي طاهر .

سورة نعيم / آية ٧ ٢٦١

لإيلاد صالح ليصلح رضيعاً ، مهما كانت صالحة « انهم كانوا يسارعون في الخيرات .. » ! .

كما « ونبياً من الصالحين » لا تلمح لنبوة غير صالحة لمكان الوصف^(١) فـ « نبياً » يعني رفيعاً فـ « من الصالحين » تعني رفيعاً من الصالحين ، لا رضيعاً كسائر الصالحين ، فهي استجابة فوق المستدعى ! حيث النبي يُصطفى بين الصالحين وهم المرسلون فـ « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » وقد فضل يحيى في هذه الدعاء على جماعة من الصالحين بمن فيهم رسل غير انبياء .

و « لم نجعل له من قبل سمياً » تنفي غلاماً قبله اسمه يحيى ، وقد تنفي معه من كانت من قبل سمته كـ يحيى ، فـ « سمياً » تشمل الاسم والسمة ، وهكذا كان يحيى ثم من بعده نجد له أسماء في الاسم ، لا في السمة إلا الحسين بن علي (عليهما السلام).

« لم نجعل .. » دليل أن الله هو الذي سماه يحيى وقد سمي من قبل بعض عباده باسمائهم ، « وسمياً » لا يخص الاسم اذ ليس بخصوصه كثير الاهمية ، وإنما هو مع السمة والميزة الخاصة وكما الله « فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً » (١٩ : ٦٥) حيث الاسم بمجرد ليس ليخص العبادة والإصطبار لها بالمسمى لأن التسمي بأي الاسماء هين ، فالسمي هو المثل في الاسم والسمة وهي اولى وطالما المسيح كان سمي في سمات عدة فهو بعده وتنقصه

(١) فلا يقاس بـ « واجعله رب رضيعاً » حيث يقابله غير الرضي ، فهو قبل ذلك الجعل ليس من الصالحين فضلاً عن كونه من النبيين ، ولكن الصالحين منهم نبي ومنهم غير نبي وذكرياً طلب فقط صلاحه في « واجعله رب رضيعاً » فزاده الله تعالى نبوة « ونبياً من الصالحين » ! .

سمة الشهادة الخاصة وهي للامام الحسين (عليه السلام) خاصة ، وكما لم يجعل له (عليه السلام) من قبل سمي في الاسم ولا الشهادة ، اللهم إلا يحى في سمة الشهادة ! فهو أسمى الاسماء ليحيى بعده^(١) وبعده المسيح (عليهما السلام) .

وترى ان الله بشره دون وسيط كما تلوح « يا زكريا .. لم نجعل له .. » ؟ ام بوسيط الملائكة « فنادته الملائكة » ؟ وكيف الجمع بينهما ! .. ان قول ملائكة الوحي المرسلين الى الرسل هو قول الله ، فلا فرق اذاً بين « قال ربك .. » و « نادته الملائكة » أو أنه ندائان ، بواسطة الملائكة أولاً ، ثم دون وسيط ام بوسيط ملك الوحي الخاص جبريل ثانياً !

﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾^(٨) .

وترى كيف يختار زكريا فيها يدعو ويختار ، فلو كان بعيداً عن رحمة الله أو مستحيلًا في قدرة الله لما كان يختاره بكل ضراعة وإصرار ؟ وقد عرض في معرض دعائه مانعاً منه فيه وفي زوجه ، عقرًا وكبراً عتياً ، رجاء من الله أن يزيله فيهب له غلاماً رضيعاً زكياً !

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٢٤ عن مجمع البيان عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية وكذلك الحسين (عليه السلام) لم يكن له من قبل سمي ولم تبتك السماء إلا عليهما اربعين صباحاً ، قيل له : وما كان بكاءها ؟ قال : كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء وكان قاتل يحيى ولد زنا وقاتل الحسين ولد زنا وفي ارشاد المفيد روى سفيان بن عيينة عن علي بن يزيد عن علي بن الحسين (عليه السلام) قال : خرجنا مع الحسين بن علي (عليهما السلام) فما منزل نزلنا ولا رحل منه الا ذكر يحيى بن زكريا وقتله وقال : ومن هوان الدنيا على الله أن رأس يحيى بن زكريا اهدي الى بني من بغايا بني اسرائيل .

إنه لا يتساءل « كيف يكون » إستبعاداً لأصل الولادة او كيفيتها ، وإنما « أن يكون » سؤالاً عن زمانها ، أقرب أم بعيد ، رغم أن « امرأتى كانت عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً » فليكن قريباً لكي تكون لي ولأمة حظوة ، ولا فرق عندك بين تعجيله وتأجيله حيث الكبر والعقر قائم ولا سيما في تأجيله .

وان كان الجواب يلوح باستبعاد لذكريا في الإستجابة « قال ربك هو علي هين . . » فأنما هو من قصور فيه وفي زوجه ، ولا أنه كان يستبعد القدرة الإلهية ، أو أنه كان يستبعد الإجابة لأنها خارقة ، فاخذته الحيرة لما بُشِّرَ ببيحيى فانفلت من لسانه « أنى » ! إذ لم يتمالكه في عَجَاب البشرى واستفسار خصوصياتها ، استغراباً من الاسباب ، لا من هبة مُسبِّب الاسباب ، كما ولا يذكر إلا عقرأ لامرأته وعتياً لنفسه دون شيء من ربه إلا ما سبق في دعائه « انك سميع الدعاء » « ولم أكن بدعائك رب شقياً » ! .

هنا يذكر من قصوراته في موانعه : لامرأته عقرأ وشيخوخة ، فلو لم تكن عاقراً لم تلد الآن للشيخوخة وهي عاقر شيخخة ! ولنفسه اشتعال الرأس شيخوخة وانخماد الشهوة عتوة : ييساً وجفافاً لنبعة النطفة ، ضعف على ضعف وعقر على عقر فاستعجاب من بشارة الولادة جانبياً ، يستوضح به « أنى » زمنها وكيفيتها ، لا أصلتها المستجاب فيما تطلبه بكل رغبة و :

﴿ قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ (٩) .

« قال » الله « كذلك » الذي بشرت هو واقع دون منعة مانع ولا دفعة دافع « كذلك قال ربك » : « هو علي هين » كيف لا « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » أفعياً بعدُ عن خلق غلام من ابوين ؟ .

وترى « خلقتك من قبل » تعني خلق زكرياً من أبويه الصالحين للإيلاد ؟ فهو أهون من خلق يحيى من ابوين عاقرين ولا اولوية في هذا القياس ! ام يعني خلق الإنسان الاول دون ابوين ، المنتهي خلق زكريا إليه ؟ والصحيح الفصيح هو الإفصاح عنه بـ « وقد خلقت آدم ولم يك شيئاً » ! .

وقد يلمح « ولم تك شيئاً » الى خلق المادة الأولية - وهو منها - لا من شيء ، وهو اولوية قاطعة بالنسبة لكل خارقة ، حيث الخلق من شيء أهون من الخلق لا من شيء وينتهي خلق كل شيء الى « لا من شيء » .

أو أنه ليس قياساً وإنما تسوية في الخلق الهين بين خلقه من صالحين وبين خلق يحيى منها بموانعه فـ « هو علي هين » كما « قد خلقتك . . » وكان هيناً ، دوغماً صعوبة علي في خارقة العادة ، وهذا هو الواقع في حساب الله ان ليس في خلقه على مختلف المراتب سهولة وأسهل وصعوبة وأصعب ، وإنما ذلك في حسابنا وكما يحدثنا بهذا الحساب : « وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٣٠ : ٢٧) فالصعب يُعَيى ولكن الله لا يعيى : « أولم يروا ان الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على ان يحيي الموتى » (٤٦ : ٣٣) ! وقد يعنيهما « ولم تك شيئاً » جمعاً بين برهاني قياس المساوات والاولوية !

﴿ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ (١٠) .

« . . . ألا تكلم الناس ثلاثة ايام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار » (٣ : ٤١) .

ترى وكيف يطلب آية وهو مطمئن ببشارة الله وقد طمأنه ثانياً وعد الله ؟ . . انه لم يطلب آية لتدله على صدق الوعد ! وماهي الصلة بين آية خارقة وبين صدق الوعد ؟ ونفس الوحي آية هي أقوى من كل آية ! وسائر الايات

ليست إلا لتدل المرسل إليهم الى آية الوحي المدعى للرسول ! .

إنه يطلب آية لتدله على زمن تحقق البشارة حيث تتوق اليه نفسه ولا يعلمه بأصل البشارة . والنص « اجعل لي آية قال آيتك » آية مرتبطة به لإعلامه الوقت ، لا مرتبطة بالله لكي يصدق في البشارة ، ام ليؤكد أن البشارة هي من الله وليس من سواه ! فان « رب أنى يكون لي غلام » برهان لا مرد له على تأكده انها بشارة ربانية ، فرواية هذه القليلة مطروحة^(١) . والانبياء معصومون في مثلث زاويته الأولى تلقي الوحي ، إذ لا يشتبه عليهم غير الوحي بالوحي !

وفي انجيل « لوقا ١ : ٢١ » وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم الى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته^(٢) وكان الشعب منتظرين زكريا ومعجيين من ابطائه في الهيكل^(٣) فلما خرج لم

(١) في تفسير العياشي عن ابي بصير عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان زكريا لما دعا ربه ان يهب له ذكراً فنادته الملائكة بما نادته احب ان يعلم ان ذلك الصوت من الله اوحى اليه ان آية ذلك ان يمسك لسانه عن الكلام ثلاثة ايام قال : لما امسك لسانه ولم يتكلم علم انه لا يقدر على ذلك الا الله .

وفي الدر المنثور ٤ : ٢٦١ اخرج اسحاق بن بشير وابن عساكر عن ابن عباس في الآية - الى قوله - : فقال : رب انى يكون لي غلام وكانت امرأتى عاقراً « خاف انها لا تلد قال : كذلك قال ربك يا زكريا هو علي هين وقد خلقتك من قبل ان اهب لك يحيى ولم تك شيئاً وكذلك اقدر ان اخلق من الكبير والعاقرة وذلك ان ابليس اتاه فقال : يا زكريا دعاؤك كان خفياً فاجبت بصوت رفيع وبشرت بصوت عال ذلك الصوت من الشيطان ليس من جبريل ولا من ربك قال : رب اجعل لي آية حتى اعرف ان هذه البشرى منك . . قال : آيتك . . اقول ماذا يدل على ان الإجابة كانت بصوت جلي ، وهل هنالك آية معجزة اقوى من الوحي نفسه ؟ ! فالحديثان مطروحان دون ريب لمخالفة القرآن .

٢٦٦ الجزء السادس عشر

يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قدرأى رؤيا في الهيكل فكان يؤمى اليهم وبقي صامتا» (٢١) .

وقد اقحم في هذه الآيات ما يمس من كرامة الرسالة فتعرض عرض الحائط ويصدق ما يصدقه القرآن وسائر البرهان .

و « ألا تكلم الناس - ثلاث ليال او ثلاثة ايام سوياً إلا رمزاً » آية تامة الهية تدله على ما يروم ، فقد يكون ترك الكلام لعقدة في اللسان ام لأي مرض كان ، وهو يقول « سوياً » : حال أنك سليم ولو كان لمرض يمنع لم يقتسم بين ناس وسواهم وهو يقول « ألا تكلم الناس » فقد يكلم الله ويكلم ملائكة الله كما كان ، لكنه يعجز في وقته المحدد أن يكلم الناس « إلا رمزاً » ويومر أن يذكر ربه « واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار » ! .

وترى كيف الجمع بين ثلاث ليال ، تجمع مع نهارين ، وثلاثة أنهار ، وثلاثة ايام أليست إلا ثلاثة انهار بلياليهن ام ليلتين ؟ ولم يكن الحد الزمني لأيته إلا إحداهما ! .

ثلاثة ايام نص في ثلاثة انهار ظاهر في ثلاث ليال . وثلاث ليال نص - في لياليها الثلاث وظاهر في ثلاثة انهار ، ونتيجة الجمع بين النصين والظاهرين هي ثلاثة ايام بمجموع أنهارها ولياليها ، واستعمال ثلاث ليال في المجموع سنة مستمرة ، وقد يعني الإتيان بالليالي إبرازاً لأهميتها في هذا المجال لـ « واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار » .

ثم « إلا رمزاً » سماح له أو أمر لتوجيه الناس الى تسبيح الله :

﴿ فخرج على قومه من المحراب فاوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشياً ﴾ (١١) .

ذلك - وليعيشوا في جو النور الذي أمر أن يعيشه ، تحضيراً للبشارة

سورة مريم / آية ١١-١٢ ٢٦٧

وشكراً على العدة ، و « بكرة وعشياً » تعني في مجموعة ثلاثة ايام صباح مساء ، وقد يعني ذكرهما أنهما كانا أصلين لأوقات العبادة في شرعة التورات ، أم هما أفضل الاوقات ، لأنها البداية والنهاية في اليقظة او الشغل ، فليكررا بتسبيح الله وليعشوا به .

ثم « فأوحى اليهم » هو الرمز المسموح له في تكلم الناس أياً كان فهو « وحي الإشارة » كما يروى عن امير المؤمنين (عليه السلام)^(١) .

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناهم الحكم صبياً »^(٢) .

هنا يطوى عن « متى ولد يحيى ؟ وكيف ولد ؟ وماذا حصل بهذه الولادة ؟ » طياً لصفحة زكريا في صمته بتسبيحه ، وسدلاً لستار عليه وعلى الولادة ، فتحاً لصفحة جديدة ومختصرة غير مختصرة عن يحيى (عليه السلام) حيث ليس كتاب القصة إلا ما يقص منها للنبهة والتذكرة ، ابرازاً لاهم الحلقات وطياً لسايرها حيث لا تعني ما يعنيه القرآن من قصته .

يؤمر يحيى أن يأخذ الكتاب بقوة ، حاكماً به وداعياً إليه « صبياً » وهو قبل بلوغ الحلم ، ويروى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) انه « أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين »^(٣) و « قال الغلمان ليحيى بن زكريا اذهب بنا نلعب فقال يحيى : ما لللعب خلقنا اذهبوا نصلي فهو قول الله :

(١) في تفسير النعماني باسناده عن الصادق (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) حين سأله عن معنى الوحي فقال : منه وحي النبوة ومنه وحي الالهام ومنه وحي الإشارة فقولته « فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشياً » اي اشار اليهم كقوله تعالى : لا تكلم الناس ثلاثة ايام الا رمزاً .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٦٠ - اخرج ابو نعيم وابن مردويه والديلمي عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال : اعطي ...

« وآتيناه الحكم صبياً »^(١).

أترى ان ذلك الحكم - فقط - هو الفهم والعبادة من دون وحي ونبوة ؟
وله نظائر من الصبيان علماً وعملاً ! وهكذا حكم ليس لزامه أخذ الكتاب
بقوة ، حيث البالغ المؤمن العادل يأخذ كتاب الشرعة بقوة ودون قوة ويحيى
كان نبياً دوغماً ربية !

أم إنه النبوة وقد عطف بالكتاب في آيات عدة^(٢) تجمع بين الكتاب
والحكم والنبوة ، مما يدل على أن الحكم ليس لزامه النبوة ،^١ فقد يؤتى الكتاب
دون حكم ولا وحي ولا نبوة ، كالمرسل اليهم بكتاب الشرعة ،^٢ أو يؤتى كتاباً
بوحى الرسالة بحكم الولاية الشرعية كسائر المرسلين^٣ أم وحكم الملك كداود
وسليمان (عليهما السلام)^٤ أو يضاف الى وحي الرسالة بحكميها أو أحدهما
النبوة وهي الرفعة في الرسالة ،^٥ أو يؤتى حكم الولاية الشرعية دون وحي
كسائر ولات الشرع ،^٦ أو ولاية الملك فقط على غرار الشرعة دون وحي ولا
ولاية شرعية كما لطالوت الملك !

فالحكم - أي كان - كائن في الخمسة الاخيرة فليس لزامه خصوص وحي
الرسالة فضلاً عن النبوة !

(١) المصدر (٣٦١) اخرج الحاكم في تاريخه من طريق سهل بن سعيد عن الضحاك
عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ...

(٢) « ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة . . (٧٩ : ٣) » اولئك الذين
آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة « (٨٩ : ٦) » ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم
والنبوة « (٤٥ : ١٦) » ولقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ،
(٥٤ : ٤) .

فهل يعني حكم يحيى الذي أوتيهِ صبيّاً حكم المُلْك ؟ ولم يكن مَلِكاً وإنما ذبحه كما الحسين (عليه السلام) ملك ظالم ! أم حكم ولاية الرسالة او النبوة ؟ ولا دليل عليه حين كان صبيّاً مهما بلغ بعد صباه الى رسالة ام نبوة ! ام حكم الولاية الشرعية ولما يبلغ أشده ؟ او حكم العقل والفهم بصورة خارقة للعادة وهو مادة الولاية الشرعية ؟ وهو القدر المتيقن من حكمه ، كخارقة إلهية لمن لم يبلغ أشده ، مهما أبلغه الله شداً واحداً وهو العقل الرزين والادراك المتين^(١) فلا نبي فيمن نعرف أوتي حكماً قبل ان يبلغ أشده وكما موسى : « ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً » (٢٨ : ١٤) وفي يوسف « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » (١٢ : ٢٢) . ولم يك عيسى نبياً في المهد مهما تكلم بوحي النبوة ، ذوداً عن أمه المعصومة ، وتبشيراً برسالته

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٢٥ ح ٣٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي وروى عن موسى بن جعفر (عليه السلام) عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (عليهم السلام) قال : ان يهودياً من يهود الشام واجارهم قال لأمر المؤمنين (عليه السلام) فهذا يحيى بن زكريا يقال : انه أوتي الحكم صبيّاً والحلم والفهم وانه كان يبكي من غير ذنب وكان يواصل الصوم ؟ قال علي (عليه السلام) : لقد كان كذلك ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اعطي افضل من هذا ان يحيى بن زكريا كان في عصر لا اوثان فيه ولا جاهلية ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) اوتي الحكم والفهم صبيّاً بين عبدة الاوثان وحزب الشيطان فلم يرغب لهم في صنم قط ولم ينشط لأعيادهم ولم يُر منه (صلى الله عليه وآله وسلم) كذب قط وكان أميناً صدوقاً حليماً وكان يواصل صوم الاسبوع والاقبل والاكثر فيقال له في ذلك فيقول : اني لست كأحدكم اني اظل عند ربي يطعمني ويسقني وكان يبكي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى يتل مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم .

أقول : قياسه صبا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بصبا يحيى دليل على ان الحكم فيها ليس النبوة وإنما الحالة المتحضرة للنبوة الآتية .

كهلأ « ويكلم الناس في المهد وكهلأ ومن الصالحين » (٣: ٤٦) فلم يكلم الناس كرسول بين مهده وكهله !

هذا ، ومن أئمتنا المعصومين من بلغ الامامة والولاية الكبرى الاسلامية قبل أشده إلا شداً في عقله كالإمام محمد بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه حيث تقلد إمامة الأمة في الخامسة من عمره الشريف ، ثم جواد الأئمة (عليهم السلام) في الثامنة او التاسعة من عمره (١).

(١) المصدر ح ٣٢ - الحسين بن محمد عن معلى بن محمد عن علي بن اسباط قال : رأيت ابا جعفر (عليه السلام) وقد خرج عليّ فأجدت النظر اليه وجعلت انظر الى رأسه ورجليه لاصف قامته لاصحابنا بمصر فبينما انا كذلك حتى قعد فقال يا علي : ان الله احتج في الامامة بمثل ما احتج به في النبوة فقال : وآتيناه الحكم صبياً ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة « فقد يجوز ان يؤتى الحكمة وهو صبي ويجوز ان يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين سنة » اقول : الآية الثانية غير مرتبطة بالنبوة فان بدايتها « ووصينا الانسان بوالديه احساناً . حتى اذا بلغ أشده . . . الى قوله : اني تبت اليك واني من المسلمين » فانها ليست فيها اشارة الى النبوة اللهم الا الايمان الاسلام وهو اعم ، ثم الآية الاولى ليس فيها الا الحكم وهو كما قسمناه لا يخص حكم النبوة ، اذا فهذه الرواية مؤولة او مطروحة مردودة الى من نسبها الى الامام (عليه السلام) .

وفيه (٣٥) عن المناقب محمد بن اسحاق بالاسناد جاء ابو سفيان الى علي (عليه السلام) فقال : يا ابا الحسن جئتك في حاجة قال : وفيم جئتني ؟ قال : تمشي معي الى ابن عمك محمد فنسأله ان يعقد لنا عقداً ويكتب لنا كتاباً فقال : يا ابا سفيان لقد عقد لك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عقداً لا يرجع عنه ابداً وكانت فاطمة (عليها السلام) من وراء الستر والحسن يدرج بين يديها وهو طفل من ابناء اربعة عشر شهراً فقال لها : يا بنت محمد قل لي هذا الطفل يكلم لي جده فيسود بكلامه العرب والعجم فأقبل الحسن الى ابي سفيان وضرب احدى يديه على انفه والاخرى على لحيته ثم انطقه الله عز وجل بأن قال : يا ابا سفيان قل : لا اله الا الله محمد رسول الله =

ثم وما تعني « خذ الكتاب بقوة » ؟ إنه اخذ التوراة بقوة العلم والعمل والحكم بهما بين الناس بالولاية الشرعية لما يبلغ اشده^(١).

﴿ وحناناً من لدنا وزكاةً وكان تقياً^(٣) وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عتياً^(٤) وسلاماً عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً^(٥) ﴾ .

« وآتيناه حناناً من لدنا وبراً بوالديه . . » إيتا آت وعطيات إلهية « وكان » قبلها وبعدها « تقياً » فلم تكن تلك الموهبات اللدنية دون شيء . فانما « زكاة » من لدنه « وكان تقياً » في زكاته ، حيث الغايات اللدنية تنزل حسب القابليات والفاعليات فقابلية « زكاة » كانت من لدنه ، وفاعلية « وكان تقياً » منه (عليه السلام) نسخة طبق الأصل ! .

هنالك حنان وزكاة وبر ، وبينها تقى منذ ولد حتى الممات إذا فكله «سلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً» ! .

والحنان هو الإشفاق المتضمن للصوت الدال على الشفقة . و « من لدنا » تجعله خارقاً للعادة المألوفة وفي مربع من الجنة ١ - حنان من الله وعطف بما يحمله وحيه الحنون ورحمته الحنون « كان إذا قال يا رب قال الله عز وجل :

= (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى اكون شفيعاً فقال : الحمد لله الذي جعل من ذرية محمد المصطفى نظير يحيى بن زكريا « آتيناه الحكم صبياً » اقول : ولم يكن الحسن (عليه السلام) حينذاك اماماً وانما اوتي حكماً : عقلاً وفهماً .

(١)- نور الثقلين ٣ : ٢٢٥ ح ٢١ في اصول الكافي باسناده عن ابي جعفر (عليه السلام) في حديث طويل يقول فيه : مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير اما تسمع لقوله عز وجل : يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً « فلما بلغ عيسى (عليه السلام) سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين اوحى الله اليه فكان عيسى الحجّة على يحيى وعلى الناس اجمعين .

ليك يا يحيى^(١)، ٢ - وحنان له من لدنه جعله يحن اليه ليل نهار بحنينه وانينه وعبادته، ٣ - وحنان منه الى عباد الله ، يدآب في دعوتهم إلى ربهم ٤ - وحنان من الناس إليه وكما في موسى « وألقيت عليك محبة مني » ! فهو إذاً محبط الحنان ومضدده بين الله وخلقه ، ورأس الزاوية من حنانه انجذابه الخاص الى ربه لحدّ لا يؤلف في سواه اللهم إلا الاخصين من الصالحين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعترته الطاهرين (عليهم السلام) .

هنالك حنان يمازجه ضيق بىكاء دائب إشفاقاً من ربه واشتياقاً إليه ، صوّت المشتاق المفتاق الى ربه مثلما كان لأستوانة الحنّانة حنين بفراق الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك سميت حنانة !

« وزكاة » : آتيناه زكاة - طهارة عما يندس ساحة الإنسانية والإيمان الإسلام « و » الحال انه « كان تقياً » ف « الذين اهتموا زادهم هدى » (٤٧) : (١٧) فلما كان تقياً يتقي الموبقات ، آتيناه زكاة عما يُتقى من جهل وسوء خلق وفسوق وعصيان فاصبح زكياً دون عيب في نماء وربوة روحية متعالية ، متزكياً في نفسه مزكياً لغيره ، زاكياً زكياً ذكياً في كل الحقول محلقاً على كل العقول .

« و » آتيناه « برأبوالديه » وترى إن بر الوالدين من ميّزات الرحمات اللدنية الربانية ؟ ولم يذكر في عدادها لسائر المرسلين ! ولا من دونهم من أولياء الله المكرمين ! فإنه من صفات المؤمنين قبل هذه الدرجات العليا ! فكيف يذكر في سائر القرآن بين سائر المرسلين - فقط - ليحيى وعيسى عليهما السلام ؟ !

(١) في الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : قلت : فما عني بقوله في يحيى : « وحناناً من لدنا وزكاة » ؟ قال : نحن الله - قلت : فما بلغ من نحن الله عليه ؟ قال : كان اذا قال : يارب ...

﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ جَبَّاراً شَقِيّاً﴾^(١٤) .

إن السيد المسيح كما يأتي قد افترى عليه بخلاف البرّ لوالدته وأنه كان جباراً عليها عصياً ، فدافع عنه القرآن هنا ، ولأن يحيى الرسول كان مبشراً بالمسيح ، وكانت مهمته الرسالية ذلك التبشير : « إن الله يبشرك بيحيى بمصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصواً ونبيّاً من الصالحين » (٣ : ٣٩) .

لذلك يذود عنه ايضاً تلك الوصمة كإعداد لأصله المبشّر به ، فإذا كان يحيى المبشر بالمسيح برّاً بوالديه فأحرى بالمسيح كونه برّاً بوالدته ! « ولم يكن جباراً » : مستعليّاً مستكبراً يحمل غيره على ما اراد ولا يتحمل عن غيره ما يراد « عصياً » : كثير العصيان .

هذه جوامع أحوال يحيى في نفسه وما آتاه ربه ، وأمام الخالق والمخلوق ، زوايا ثلاث من حياته منذ ميلاده حتى موته : حاكماً حكيماً حنوناً زكياً تقياً وبرّاً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ، فهو جملة وتفصيلاً سلام في سلام الى سلام .

﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾^(١٥) .

صحيح أن « سلام على المرسلين » (٣٧ : ١٨١) جملة وسلام عليهم تفصيلاً ، إلا أن يحيى وأحرى منه عيسى قيل فيهما أقاويل تمس من كرامة الرسالة ولادة وموتاً وبعثاً لذلك نجد مثلث السلام لهما في سائر القرآن بين سائر المرسلين ، هذا ليحيى ومن ثم المسيح (عليه السلام) : « والسلام عليّ يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً » (٣٣) .

فإنه ان اوحش ما يكون في هذا الخلق في ثلاثة مواطن ، يوم يولد ويخرج من بطن امه فيرى الدنيا ، ويوم يموت فيعابن الآخرة وأهلها ، ويوم يبعث فيرى أحكاماً لم يرها في دار الدنيا وقد سلم الله عز وجل على يحيى في هذه

الثلاثة مواطن وآمن روعته فقال « وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً » وقد سلم عيسى بن مريم على نفسه فيها^(١) فسلام الولادة والموت سلام طول حياة التكليف ، وسلام البعث حياً هو سلام الخلود في عطاء غير مجذوذ ويعني مثلث السلام للمسيح (عليه السلام) أكثر مما يعنيه في يحيى ذوداً عن ساحتها فيها لا مزيداً لسلامه فيها^(٢) .

و « سلام » في إرساله يعم كل سلام من كل مسلم : من الله في رحمته ، ومن الملائكة طلب الرحمة كما في سائر المرسلين والصالحين ، ومنه نفسه كلما يقدمه لكل سلام منذ الحكم حتى الموت ، ومن سائر الناس ان يعتقدوا فيه كل سلام . إذا فهو في مربع السلام تكويناً وتشريعاً لا يجوز لأحد ان يقول فيه غير « سلام » ! وهل يوجد بين الأتقياء اتقى من يحيى ؟ عله نعم فانه لم يكن من أولي العزم مهما بلغ من تقاه ، ثم القرآن يصرح بان الرسول محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) أول العابدين ! او عله لا إلا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مهما سبق سائر أولي العزم في سائر عزمهم على يحيى ، ولكنه اتقى منهم^(٣) ام هم على سواء إلا خاتمهم (صلى الله عليه وآله وسلم)

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٢٧ ح ٣٨ عيون الاخبار باسناده الى ياسر الخادم قال : سمعت ابا الحسن الرضا (عليه السلام) يقول : ان اوحش ..
(٢) يأتي تفصيله في سلامات المسيح بعد قليل .

(٣) ويتبع محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) اهل بيته المعصومون (عليه السلام) وقد تظافرت الرواية عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في فضل يحيى ففي الدر المنثور ٤ : ٢٦٢ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وابن خزيمة والدارقطني في الافراد وابو نصر السنجري في الابانة والطبراني عن ابن عباس قال كنا حلقة في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نتذاكر فضائل الانبياء ، فذكرنا نوحاً وطول عبادته وذكرنا ابراهيم وموسى وعيسى ورسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرج =

وسلم)، فسلامٌ عليه من عيسى «وسلامٌ عليه» من الله ليحيى قد يلمح لكونه اتقى من عيسى مهما كان المسيح افضل منه في ولاية العزم اللهم إلا في تقاها^(١).

= علينا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ما تذكرون بينكم فذكرنا له فقال : اما انه لا ينبغي ان يكون احد خيراً من يحيى بن زكريا اما سمعتم الله كيف وصفه في القرآن « يا يحيى خذ الكتاب بقوة - الى قوله - وكان تقياً - لم يعمل سيئة قط ولم يهم بها اقول : لعله نعم الا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لقوله تعالى « قل ان كان للرحمن ولد فانا اول العابدين » ولاية التطهير وامثالهما من ادلة تفضيل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وآله على العالمين اجمعين وفيه اخرج ابن عساكر عن ابن شهاب ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خرج على اصحابه يوماً وهم يتذكرون - وذكر مثله في معناه - فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) « اين الشهيد ابن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب يحيى بن زكريا وفيه اخرج احمد والحكيم الترمذي في نواذر الاصول والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما من احد من ولد آدم الا وقد اخطأواهم بخطيئة الا يحيى بن زكريا لم يهم بخطيئة ولم يعملها اقول يستثنى من عمل الخطيئة كافة المرسلين وسائر المعصومين ، ومن اهم بالخطيئة الرعيل الاعلى منهم وفي انجيل متى : « عن السيد المسيح » الحق اقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء اعظم من يوحنا المعمدان . . . وهو اسم ثان ليحيى حسب الانجيل .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٢ - اخرج عبد الرزاق واحمد في الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن ابي حاتم عن الحسن قال : ان عيسى ويحيى التقيا فقال عيسى ليحيى استغفر لي انت خير مني فقال له عيسى بل انت خير مني سلم الله عليك وسلمت انا على نفسي وفيه اخرج احمد وابو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم والضياء عن ابي سعيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة الا ابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا اقول قد يعني بذلك من مات شاباً فلا يشمل الامام المهدي (صلى الله عليه وآله وسلم) واما الامام الجواد فقد يعني من

٢٧٦ الجزء السادس عشر

وترى لماذا « يوم يموت » وهو ميت حال نزول آية السلام ؟ لأنه ينقل « سلام » عن حال حياته ، لا أنه « سلام » بعد استشهاده حال نزول آية السلام !

ولماذا « حياً » بعد « يوم يبعث » والبعث ليس إلا بعث الحياة ؟ قد يعني أنه لا يموت عن حياة البرزخ الى حياة الآخرة ، وإنما يزداد حياتها الى حياته ، لأنه والمسيح ممن استثنى من الصعقة « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٦٨:٣٩) فهما ممن شاء الله ألا تأخذهم الصعقة بموت أم غشوة ، وإنما انتقالاً من برزخ الحياة الى أخرها يبعث لبدن والروح حي يزداد حياتاً بهذا البعث !

وقد تلمح « حياً » فيما تعني أنه حي في البرزخ بحياة الشهادة ، حياتاً في حياة لا تسلبان عنه إذ « يبعث حياً » وما أطفه جمعاً بين الحياتين فيماتعنيه « حياً »^(١) وهو - إذا - حال عن يحيى المضمّر في « يبعث »^(٢) .

= الشباب غير اهل بيت الرسالة المحمدية فانهم في الدرجة العليا من العصمة لا يدانيهم احد كما تدل آية التطهير ورواياته ! .

(١) الدر المنثور ٤ : ٣٦٣ واخرج ابن عساكر من طريق علي بن زيد بن جدعان عن علي بن الحسين (عليه السلام) عن الحسين بن علي (عليه السلام) قال : كان ملك مات وترك امرأته وابنته فورث ملكه اخوه فاراد ان يتزوج امرأة اخيه فاستشار يحيى بن زكريا في ذلك وكانت الملك في ذلك الزمان يعملون بأمر الانبياء فقال له : لا تتزوجها فانها بغية فبلغ المرأة ذلك فقالت ليقتلن يحيى او ليخرجن من ملكه فعمدت الى ابنتها فصيفتها ثم قالت : اذهبي الى عمك عند الملاء فانه اذا رآك سيدعوك ويجلسك في حجره ويقول : سلبني ما شئت فانك لن تسأليني شيئاً الا اعطيتك فاذا قال لك قولي : لا أسألك شيئاً الا رأس يحيى وكانت الملك اذا تكلم احدهم بشيء على رؤوس الملاء ثم لم يمض له =

ف « يوم يبعث » للحياة الآخرة حالكونه « حياً » بالحياة البرزخية وحياة الشهادة، ولا نجد البعث حياً إلا في يحيى والمسيح (عليهما السلام) مهما يبعث أضرابهما من أولياء الله الكرام أحياء، بحياة إن ماتوا أم حياتين إن استشهدوا، فغيرهم لا يبعثون أحياء، وإنما عن موت برزخي مهما كان الشهداء أحياء قبل البعث أكثر من سائر الأحياء !

﴿ ذكرى يحيى في القرآن والعهدين ﴾ :

يذكر ذكرى سبعا ويحيى خمسا في سائر القرآن بكل تبجيل وتجليل ، ومن ميزات يحيى أنه ولد خارقة العادة وسماه الله يحيى وآتاه الحكم صبياً ، وقد تشير « يحيى » إلى انه يحيى حياة طيبة ، وأنه تستمر حياته البرزخية إلى بعثة : « يوم يبعث حياً » دون موت في البرزخ !

ومما يلمع في رسالة يحيى انها رسالة التبشير بالمسيح (عليه السلام) و « ان الله يشرك بكلمة من الله وسيداً وخصوراً ونبياً من الصالحين » (٣) : (٣٩) فرسالة التبشير هذه هي رأس الزاوية من رسالته المباركة .

ولأن شعب إسرائيل حسب البشارة في العهد العتيق كانوا ينتظرون المسيح ، ظنوا يحيى وهو يوحنا المعمدان أنه المسيح (عليه السلام) فنفي لمرات عن نفسه أنه المسيح وكما في « لوقا الاصحاح الثالث » :

= نزع من ملكه ففعلت ذلك فجعل يأتيه الموت من قتل يحيى وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه فاختر ملكه فقتله ، فساخت بأمرها الأرض ... » .

(٢) اجل حال لا مفعول فان البعث يتعدى لمفعول واحد وهو هنا نائب الفاعل في « يبعث » وحتى اذا عدى البعث الى مفعولين فلا يتعدى الى ثان هو « حياً » لانه تحصيل الحياة حاصلة ، اللهم إلا مزيد الحياة المعنى بـ « حياً » وهي حال ليحيى !

« واذا كان الشعب ينتظر والجيمع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح (عليه السلام) ^{١٥} اجاب يوحنا الجميع قائلاً : انا اعمدكم بماء ولكن يأتي من هو اقوى مني الذي لست اهلأ أن أحلّ سيور حذائه وهو سيعمدكم بالروح القدس ونار ^{١٦} الذي رفشه في يده وسينقي بيدرته ويجمع القمح الى مخزنه ^{١٧} »

وفي يوحنا ١ : ١٩ - ٢٧ : « وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من اورشليم كهنة ولا ويين ليسألوه من أنت ؟ فاعترف ولم ينكرواقر : إني لست أنا المسيح ، فسألوه إذا ماذا ؟ ايليا أنت ؟ فقال : لست انا ! النبي انت ؟ فاجاب : لا ! فقالوا : من أنت لنعطي جواباً للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك قال : أنا صوت صارخ في البرية - قوموا طريق الرب كما قال اشعيا النبي - وكان المرسلون من الفريسيين ، فسألوه وقالوا له ما بالك تعمّد؟ إن ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبي ؟ اجابهم يوحنا قائلاً : انا اعمد بماء ولكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن احل سيور حذائه » .

هذه الآيات ترسم الجوّ الإسرائيلي بانتظار ثلاثة اشخاص بعد يحيى : « - المسيح - ايليا والنبي » ! وقد صدقهم يحيى هكذا كما الفريسيون ، وليس « النبي » إلا الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي بشرت به كتابات العهدين العتيق والجديد ، وقد كان معروفاً لديهم لحد الغنى عن ذكر اسمه وكأنه - فقط - نبي لا سواه ، و « ايليا » هو عليّ دون « إلياس النبي » لاختلاف الاسم وسبقه على يحيى بزمان ، وقد اتى ايليا لعلي في بشارات اخرى ^(١) .

(١) راجع كتاب « رسول الاسلام في الكتب السماوية » .

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ
حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾
قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾
قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾
قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ
آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾
* فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا
الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا
وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي
قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرَيَّ إِلَيْكَ بِجِذْعِ
النَّخْلَةِ يُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي

وَقَرِّ عَيْنًا فَلِمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ
 لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٧﴾ فَأَتَتْ بِهِ
 قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَمٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا غَرِيبًا ﴿٢٨﴾
 يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ
 بَغِيًّا ﴿٢٩﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ
 فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٣٠﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ
 وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي
 بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣٢﴾ وَبِرَأْيِ بَوَالِدِي وَلَمْ
 يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ
 أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٤﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ
 الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٥﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ
 سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٦﴾
 وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٧﴾

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا
 لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ
 يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا
 وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

مركز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

عرض عريض لقصة الولادة والنبوة العجيبة لعيسى تلو يحیی لما بينهما
 من مشابهاة فیها . فقصة مختصرة عابرة للمبشر تتقدم لتقدمه فی رسالة
 البشارة - ثم تتلوها قصة المسيح بداية من أمها فی حملها وحملها وولادتها ، وهي أعجب
 من قصة یحیی ، فاذا ولد من عاقر وشيخ قد اشتعل رأسه شيباً فهنا الولادة
 دون بعل من طاهرة عذراء كأعجب ما يشهده تاريخ الإنسان إلا ما لم يشهده
 من خلق آدم مهما عرف بوحی القرآن .

ذلك ولكي تكون الولادة من غير أب دلالة على إمكانية دون أبوين ،

كما أن هذه دلالة على أوليتها دون أب ليهتدي اولاء وهؤلاء فلا يخيل إليهم أصل الأنواع ولا البنوة الإلهية، وهذه الولادة بعجب ذلك خارقة لبيت إسرائيل الخارقة التي لا نحن إلى آية إلهية خارقة، اللهم إلا جديدة محيرة كهذه، رغم ان طائفة منهم اتخذوها فرية واخرى بنوة إلهية دون أية حجة إلا أهواء مضللة!

يولد المسيح هكذا « ولنجعله آية للناس » مثلاً للخلق الأول وخارقة للآخرين، تدليلاً على حرية وطلاقة القدرة الإلهية دون احتباس في النواميس التي قررها ف « الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » حادثة واحدة لن تتكرر حيث انقطعت النبوة بعد محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكي تبقى معلماً بارزاً أمام البشرية على حرية المشية الإلهية!

﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ (١٦).

« مريم » لغة سريانية تعني الغالبة المرتفعة، وعلمها لأنها غلبت شهوتها وأحصنت فرجها رغم جهالها وكثرة الراغبين اليها، وغلبت على الولد الذي هوت أمها في قداستها وإنتاجها. وارتفعت عما افتروا عليها، وعن أقرانها من نساء العالمين وقبل كل ذلك هي موهوبة الرب وقد « تقبلها ربها بقبول حسن » (٣٧ : ٣) تقبلها مريم كما تسمت بما تعنيه من معانيها!

وفي حين تذكر مريم خمساً وثلاثين مرة في القرآن بكل تبجيل وتجليل، لا تذكر في الإنجيل إلا خمساً بكل مهانة وتنجيل^(١).

(١) وهي ١ : قصة قانا الجليل (يوحنا ٢ : ٣) ٢ : إذ ارادت ان تكلم ابنها وهو يعلم تلاميذه (متى ١٢ : ٤٦ ومرقس ٣ : ٣١ ولوقا ٨ : ١٩ - ٣ : عند صلبه (يوحنا ١٩ : ٢٦) ٤ : وفي الايام الاولى بعد صعوده (يوحنا ١٤١ : ١٤) ٥ : عند ذكر ابنائها : يعقوب، يوشي، يهودا، شمعون وعدة من بناتها (متى ١٣ : ٥٥ و٢٧ : ٥٦ ومرقس ٦ : ٣ و١٥ : ٤٠ و٤٧).

« واذكر في الكتاب مريم » هنا يؤمر الرسول أن يذكر في الكتاب مريم وما هو ذلك الكتاب ؟ أهو القرآن وذاكر مريم وسواها مما يذكر فيه ليس إلا الله ، فانه كلام الله والرسول وسيط لنقله الى العالمين !

انه ذكرها في القرآن بالوحي ، فالقرآن هو كلام الله في الأصل ، وهو كلام الرسول كرسول « إن هو إلا قول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين » (٨١ : ٢٠) فـ « اذكر في الكتاب مريم » ذكر بالوحي في بعدي اللفظ والمعنى كما في « ابراهيم وموسى واسماعيل وادريس »^(٢) وذكر في الخمسة كلها في هذه السورة ! ..

او انه ذكرها في نفسه (صلى الله عليه وآله وسلم) مما أوحى إليه ليلة القدر وهنا التفصيل ، فالكتاب إذاً هو القرآن المحكم ، أو أنه يعنيها جملة وتفصيلاً .

وذكر مريم في سورتها وسواها ذكر لواجب قصتها التي تتبى طهارتها وطهارة المسيح عليهما السلام ، لا سرداً على طولها كما تقص في كتب القصص ! .

ان مريم هي فتاة عذراء ، قديسة حوراء ، تستوهبها أمها من ربها فيهبها « وتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً... » (٣ : ٣٧) ...

هذه الفتاة - وهي حليقة المحراب ، تأخذها انتباذات وهزات تنبض لها

اقول لم يكن لها ولد الا المسيح حسب القرآن والحديث ويأتي توضيح موارد الاهانة بها في هذه الآيات .

(٢) وهم على الترتيب في ١٩ : ١٦ - ٤١ - ٥١ - ٥٤ - ٥٦ .

ولابنها المسيح بآية دائبة وحياة ! وهي بعدما اهتزت بالبشارة الملائكية من قبلها .

نبذة أولى : « إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . . » ثم هزة « فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً »

وهزة ثانية : « لأهب لك غلاماً زكياً قالت انى يكون لى غلام . . » .

وهزة ثالثة : « فحملته » وهنا نبذة ثانية « فانتبذت به مكاناً قصياً » .

وهزة رابعة : « فاجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » وهنا بشارة تخفف عنها هزاتها « فناداها من تحتها الا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً »

ثم هزة خامسة : هي الاخيرة « يا اخت هارون ما كان ابوك امرء سوء » ولكنها تسكن الى رياحة ورحمة : « قال إني عبد الله . . . » « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون » !.

« اذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً » والنبد هو الطرح المضمّن معنى الرفض امتهاناً احياناً : « فنبذناهم في اليم » (٢٨ : ٤٠) « فنبذوه وراء ظهورهم » (٣ : ١٨٧) وامتحاناً أخرى « فنبذناه بالعراء وهو سقيم » (٣٧ : ١٤٥) فمنه مذموم « لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبد بالعراء وهو مذموم » (٦٨ : ٤٩) ومنه غير مذموم وان ترائى انه مذموم ، كالتكاليف النسائية الواجبة من غسل وأمثاله .

وانتباذ مريم وانطراحها مكاناً شرقياً قبل تمثّل الروح لها بشراً سوياً وقبل حملها ، علّه لحالة خاصة بالفتات تستحي فيها من أهلها كالغسل عن

حيضها ، حيث يقتضي الإحتجاب عنهم مكاناً شرقياً تشرق عليها الشمس تخفيفاً عن برودة الماء ..

ولأنها كانت دائبة المقام في محرابها كما نذرت لذلك فلم تكن عند أهلها إلا أيام عذرها . فانتبأها إذاً من أهلها مكاناً شرقياً واتخاذها من دونهم حجاباً ، ليس انعزالاً في عبادتها وإنما فيما يُستحى منه وإلا فلما ذا الإنتبأ والحجاب والمكان الشرقي !؟

فها هي ذي في شأنها الخاص حيث توارت حتى عن أهلها وهي عارية عن ملابسها تفاجأ مفاجأة عنيفة تهز أركانها وتفز مدعورة منتفضة لأول مرة في حياتها :

﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ (١٧) .

ها هي محتجبة عن أهلها وحتى عن أمها ، مشغولة بشأنها في غسلها . مطمئنة الى انفرادها وهي عريانة بكامل جسدها ، فاذا بشر سوي أمامها يفجأها في خلوتها وعراها رغم حجابها ! فتداخلها رهبة تفجئها رغم أهبتها بما بشرت في الأولى ، إذ ترى أمامها بشراً سوياً وليس هنالك سوي ولا غير سوي ليكون هو منهم ، فانها « انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذت من دونهم حجاباً » فما لها وبشراً أمامها ، إلا اختلاساً عليها إذ يحضر عندها وهي عارية في شأنها الخاص دون أهبة ولا استئذان . وكأنه من أقرب المحارم ، بل هو زوج لا يكاد يستأذن زوجه !

وترى من هو «روحنا» المتمثل «لها بشراً سوياً»؟ ولماذا لم يظهر بصورته الأصلية حفاظاً على اطمئنانها ؟ هنا «روحنا» واهبٌ لمريم غلاماً زكياً باذن الله نفخاً فيها في فرجها ، وفي اخرى المنفوخ في فرجها هو « من روحنا » :

« والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » (٦٦ : ١٢) وهي تفسر « فنفخنا فيها من روحنا » (٢١ : ٩١) أن النفخ من روحنا فيها لم يكن إلا في فرجها^(١) وإضافة « نا » الإلهية فيها لا تعني إلا تشریفاً للنافخ والمنفوخ أنهما من الأرواح المشرفة التي خلقها ، كما في آدم (عليه السلام) « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي » (٣٨ : ٧٢) ثم في بنيه : « .. وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة » (٣٢ : ٩) وهذه الأرواح الأربعة : « روحنا » - « من روحنا » - « من روحي » « من روحه » كلها من أمر الله لا من ذاته « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » (١٧ : ٨٥) فأنها تفسر الأرواح كلها أنها من أمر الله ، وليس أمر الله ذاته أو من ذاته ، وإنما هو فعله المختلف عن ذاته بكل بينونة ذاتية وصفاتية ، مهما كان مفضلاً على سائر الأرواح أماذا ؟ .

« وروحنا » المرسل لذلك النفخ ليس إلا الروح الأمين النازل بالوحي « نزل به الروح الأمين على قلبك » (٢٦ : ١٩٣) والنازل بروح النبوة على رجال الوحي : « ينزل الملائكة بالروح من أمره .. » (١٦ : ٢) فهو النازل بروح المسيح وجسمه « وكلمة ألقاها الى مريم وروح منه » (٤ : ١٧١) مهما كان النافخ في الحق هو الله « فنفخنا فيه من روحنا » (٦٦ : ١٢) .

ومهما كانت هذه الأرواح المضافة الى الله مفضلة على سائر الأرواح جملة ، ففيها التفاضل بينها كما بينها وبين سائرهما ، فـ « روحنا » يمتاز عن « روحي » كما « روحي » يمتاز عن « روحه » حضوراً لجمعية الصفات في أولها ، وحضوراً دونها في ثانيها ، وغيباً مفرداً في ثالثها ، كما وأن روح المسيح

(١) راجع ج ٢٨ الفرقان ص ٤٥١ - ٤٥٥ - نجد كيف النفخ والحمل ؟ .

سورة مريم / آية ١٨ ٢٨٧

(عليه السلام) مفضل على روح آدم ، وهو مفضل على بنيه كمجموعة ،
اللهم إلا المفضلين عليه كبعض النبيين وأكابر المعصومين !

وإنما تمثل لها بشراً ، حيث التجلي بالصورة الملكية ليس إلا أحياناً
لرجال الوحي دون الآخرين : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليه ما
يلبسون » (٦ : ٩) . . ومن ثم « سوياً » فإن غير السوي لا يناسب تمثل
« روحنا » فإنه إزاء به ، ولا المتمثل لها فانه إخافة لها ومهانة في الرسالة
إليها ، ثم وفي بشر سوي هزة صادقة لها تهيئة لتحمل حمل هو حمل لها في ظاهر
حالتها ! .

هذه هزة أولى تأخذها ، عضة على أركان طهارتها وهي الطاهرة الزكية
البريئة .

﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ (١٨) .

تحاول الهرب مستعيذة بالله إذ تظنه معتدياً أثيماً ، أو فاجراً زنياً ، وهي
التقية المؤمنة ، العفيفة الطاهرة ، وتستعيذ بالرحمان خالقها منه إن كان تقياً
يتقي بأس الرحمان ، فغير التقى لا يستعاذ منه حيث لا يتقي على أية حال إلا
بمعجزة ينجيها الله بها منه ، وهي تستعيذ بالرحمن منه إن كان تقياً ، استيقاظاً
لروح التقوى فيه واستجاشته لكيلا يقر بها مخافة الرحمن !

ثم لماذا العوذة بخصوص « الرحمن » العام ، دون « الرحيم » الخاص ،
وعوذة التقى تناسب الرحيم ؟

هنالك عوذة خالصة بالله من الشيطان وحزبه لا يخاطب فيها الشيطان
وإنما الله : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ومن ثم عوذة بالرحمن ممن يؤمن
به وهي ذات بعدين ، أصيل هي بالرحمن ، وفرع هي بمن كان تقياً ، فـ

فولقد علمت مريم ان التقى ذو نبيه^(١) والتقى ينتفض وجدانه عند ذكر الرحمن ويرجع عن دفعة الشهوة ونزعة الشيطان وقد كانت ملامح التقى ظاهرة فالمومن ينظر بنور الله ! فـ « الله » يستعاذ - فقط - به عند الاياس عن كل دافع عن الشيطان ، و « الرحيم » يستعاذ به فيما تكون للرحمة الخاصة موقع كأن يكون المستعاذ منه ذو رحمة خاصة تدفعه عما يُخاف ، وكما نعوذ بالله منه « أعوذ بك منك » ! بشفاعه رحمته الخاصة ، ثم الرحمان يستعاذ به ممن غلبته الشهوة وهو تقى ، والشهوة الغالبة لا تعرف رحمة ، وانما التقوى من الرحمن ، تذكر بتلك الرحمة الشاملة التي تنفذ في كل شيء ، وأنا الطاهرة مريم شيء ، وأنت البشر السوي شيء . وهنا ليس احد يدفع إلا الرحمن فـ « إني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً » .. ولكنه يعيد طمأنينتها ويسكن روعتها إذ :

﴿ قال انما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾^(١٩) .

انا فوق التقى الذي يتحول عند الشهوة الى شقي « انما انا رسول ربك » ينحصر كوني وكياني وتمثلي عندك برسالة ربك ، رسالة تربوية معصومة من ربك الذي ربك حتى الآن ويربك ما دمت حياً ، أما تستقبلين رسول ربك حيث يحمل لك هبة ربانية منقطعة النظير ، هو البشير النذير « لأهب لك » في هذه الرسالة بإذن ربك « غلاماً زكياً » بكل طهارة وسلام ؟ وكل نصارة ووثام .

فلقد طمأنها في هذا اللقاء بأمرين : « انا رسول ربك » بعيد عن الشهوة الجنسية فلا حاجة إلى عودة ! « لأهب لك غلاماً زكياً » من دون وقاع مهما كان حلاً فضلاً عن الحرام ، وانما احمل هبة ربانية هي خارقة .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٧ - اخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي وائل في الآية :

ولكن كيف تصدقه وقد تكون حيلة فانتك يستغل طبيعتها ، وكيف تهب لي غلاماً زكياً وأنت رسول وأنا ما عرفت رجلاً ، وهي الآن في هذه الهزة الثانية تسأل في صراحة تغاضياً عن احتمال الحيلة ، كأنها لا هي مصدقة برسالته فتطمئن الى هبة ربها ، ولا مكذبة فتجانبه فوراً ، فرغم أنها اطمأنت بالأمان من ناحيته تغشيتها سحابة الحزن من أخرى ، وتطوف بها موجة من الالاسى ، إلا ان هول الموقف ليس ليعقد لسانها ، حيث تذكر هذه البشرى قبلئذ على إجمالها من ملاك ربها ، ولكن هول البشرى - إذ هي على أشرف تحققاتها دون بعل ، وقد تخلف تهم الجاهلين - إنه يبعثها لسؤالها حائرة ذعرة .

﴿ قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً ﴾ (٢٠) ..

هبة الغلام لها وسيلة تكوينية من نكاح أم سفاح ولا أعرف ثالثة ، ف « أنى يكون لى غلام » اي زمن وأيان ؟ « ولم يمسنى بشر » بنكاح « ولم اك بغياً » بسفاح ؟

وترى ألم تكن هناك في بخلدها وسيلة مستقبلية لهذه الهبة الربانية بهذه البشارة ؟ كلا ! حيث « لأهب » تقاطع كل وسيلة مستقبلية ، وتصرف مثلث زمن الهبة الى الحال ، وبواسطة رسول الرب ! فلا وسيلة لأصل الهبة حيث تتحقق الآن إلا ماضية من نكاح او سفاح وهي متتفة ، فلا تعرف هي من « لأهب » . تغاضياً عن مقاربتة - معنى إلا البشارة بغلام زكى انعقد قبل البشارة وهي نافية لكل انعقاد ماضٍ ! ولما يخلد بخلدها أنها بشارة بخارقة ربانية دون اي لقاح من نكاح ام سفاح ! اللهم الا ما بشرته الملائكة باجمال ... فياتي الجواب الحاسم هنا كما اتاها من ذي قبل :

﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعل له آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ (٢١) .

« قال » امرك في هذه الولادة العجيبة « كذلك » الذي قلت عن رسالة

ربك « قال ربك هو علي هين » أن تلدي دون زوج ، ولماذا ؟ لحكم شتى ..
« ولنجعله آية للناس » برهاناً ساطعاً قاطعاً على القدرة الخارقة الإلهية ،
وعلى صدق الرسالة العيسوية ، لهؤلاء الذين لا تكفيهم آيات مضت في الرسالة
الموسوية « ورحمة منا » عليك خاصة وعلى الناس عامة ، فهو إذاً آية ورحمة ،
مهما كان عليك جهلاً وزحمة ، فانه من اللطاف الخفية الالهية على صعوباته
« وكان أمراً مقضياً » لا يتحول بإبائه ولا دعاء ! فاستعدي لهذه الآية الرحمة
مهما بلغت بك الصعوبة !

هنالك تنتهي الحوار بينهما حيث استسلمت لحكم ربها في هذه الهبة
الزكية ، ونرى في آل عمران حواراً بينها وبين الله والملائكة ، فما هو التلاحم
بينهما ؟ :

« إذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه
المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس
في المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر
قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (٣)
(٤٧) .

تستوحش من هذ البشارة الملائكية ، وحق لها إذ لا ترى لنفسها ضجيجاً ،
ولم تعرض بخلدها حتى الآن قصة الزواج ، وهي عارفة أن البشارة محققة
لمستقبل قريب لا تلائمه الولادة كالعادة : ان تتزوج وتلد من فوره !
وهل « الملائكة » هم « روحنا » جمعاً في واحد؟ وهي هنا تحاور ربها في
استعجابها أن يكون لها ولد وهناك الحوار مع « روحنا » !

إنها عرض لبشارتها بالملائكة قبل ان يتمثل لها « روحنا » بشراً سوياً ،
تعبداً لطريقها الى هذه المفاجآت والهزأت ، فأصبحت على خبرة إجمالية عن

هذه الكلمة البشرى ، سائلة ربها « انى يكون لى ولد . . » فطويت الحوار هنا طياً وهي بانتظار كيف تتحقق البشرى ، « فارسلنا إليها روحنا » لا للبشرى إذ تقدمت بالملائكة وانما لتحقيق البشرى : « لأهب لك غلاماً زكياً » ولكنها ذعرت إذ فوجئت بما لم تحسب له حساباً أن البشارة تتحقق ببشر سوى ، فحق لها ان تختار مترددة هل إنه الذى يحقق البشرى ، وما طمأنت له حتى « قال إنما انا رسول ربك . . » بما سبقت لك فيه البشرى ، فاطمأنت لخدمتها ، ولكنها بعد متحيرة ولكي تطمئن « قالت أنى يكون لى ولد . . » فلما سمعت نفس الصيغة الماضية من الملائكة في بشرائها « قال ربك هو على هين . . » انتهت الحوار وأصبحت كأنها في قرار ! مستسلمة لتحقيق البشرى :

﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ (٢٢).

فقد حملت الغلام الزكى الموهوب بنفخ ربانى وإلقاء : نفخ « روحنا » وإلقاء « كلمته » . هنا « فحملته » وفي أخرى « وكلمة القاها إلى مريم وروح منه » (٤ : ١٧١) وفي ثالثة « فنفخنا فيه من روحنا » (٦٦ : ١٢) فالحامل للغلام الزكى الموهوب هو « روحنا » والمحمول هنا هو الغلام ، ثم المنفوخ هو « من روحنا » والملقى « كلمته » . وروح منه « والحاملة هي مريم ، وهل هنا فرق بين الغلام الزكى وروح منه ومن روحنا وكلمته الملقاة إلى مريم ؟ تعبيرات اربع في سائر القرآن عن تكوين المسيح (عليه السلام) .

ولأن ضمير الغائب في « حملته » راجع الى « غلاماً زكياً » فليكن هو المحمول بروحه وجسمه ، وعمل جسمه هو الكلمة الملقاة وروحه هو المنفوخ ، فتحققت إذأ ازدواجية ذلك الحمل المبارك ، وفي قرن « كلمته » بـ « روح منه » تلميح بذلك القرن في حملها ، وكلا النفخ والإلقاء من فعل الله وليس « روحنا » إلا وسيطاً في تحميل هذه الهبة الربانية وعملها دون نفخ منه ولا إلقاء !

فلقد كان حملاً بالقاء الكلمة في الفرج وهي النطفة الرجولية التي تشكل جسم المسيح ، إلقاء بدفع في قعر الرحم لتتزاوج نطفة الانثى لتكون الجنين ، وينفخ الروح تبعاً في الجسم الكلمة ومن ثم الولادة !

وترى إن مكوث الحمل كأصله كان خارقاً للعادة ؟ كأنه هو حيث «فحملته» تطوى زمن حلول الروح في الجسم طياً كأنها مقارنتان ام مقارنتان بان البويضة في هذه الخارقة ما سارت بعد النفخة سيرها كسيرتها العادية ، بل اختصرت مراحلها اختصاراً ، وأعقبها تكون الجنين وثمّ واكماله في فترة وجيزة! (١) .

ثم «فانتبذت به مكاناً قصياً» دلالة ثانية على هذا الطي ، حيث الفاء لتفريع القريب ، فالإنتباذ كان تلو الحمل ، ولا داعي الى الإنتباذ فور الحمل إلا طياً لدور الحمل ، فقد اقتلعت عن مكان الحمل الى مكان قصي لوضع الحمل .

ترى أكان الحمل كاملاً من ساعته ام تسع ساعات ام أية سويعات ، او ستة أشهر (٢) ؟ لا ندري إلا ما تلمح لنا أية الحمل الإنتباذ المخاض ، قدر ما يحتاجه انتبازها الى مكان قصي !

(١) مجمع البيان وروي عن الباقر (عليه السلام) .. فكمّل الولد في الرحم من ساعته .. فخرجت من المستحم وهي حامل فحج مثقل فنظرت اليها خالتها فأنكرتها ومضت مريم على وجهها مستحيية من خالتها ومن زكريا ...

(٢) هنا روايات ثلاث في مدة حملها من ساعة كما رواه في المجمع عن الباقر (عليه السلام) انه تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمّل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل في ارحام النساء تسعة اشهر ، ومن تسع ساعات يرونها عن ابي عبد الله (عليه السلام) ومن ستة اشهر رواها في العلل والكافي عن ابي عبد الله ولفظها « ولم يولد - ولم يعش - لستة اشهر الا عيسى بن مريم والحسين بن علي (عليهما السلام) ورواية رابعة =

وكيف انتبذت مكاناً قصياً وابن ذلك المكان ؟ لا ندري ! وقد يكون انتباذها بنبذة الهية خارقة ولا سيما ان المنتبذ إليه مكان قصي ، أو أنها الشدة هزتها بهذه الوشيجة المواجهة بها أهلها بالفضيحة ، لذلك انتبذت مكاناً قصياً بعيداً عنهم خلواً عمن يعرفها ! وهذه الإنتباذة تناسب بيت اللحم المعروف أنه مولد المسيح (عليه السلام) وتلك الخارقة تناسب الفرات كما وردت بها روايات^(١) ! وما يلح بأقصر الحمل « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (٣ : ٥٩) ومطلق المائلة يقتضي الولادة فور الحمل او بفصل قريب ، و « ثم قال له كن فيكون » تؤيده الا تدرج في هذا الحل كما لم يكن في خلق آدم !

في الكافي عن ابي الحسن موسى (عليه السلام) في حديثه مع نصراني ...
واما اليوم الذي حملت فيه مريم فهو يوم الجمعة للزوال ... واما اليوم الذي ولدت فيه مريم فهو يوم الثلاثاء لاربع ساعات ونصف من النهار ...
(١) نور الثقلين ٣ : ٣٢٦ ح ٢٩ عن اصول الكافي عن ابي الحسن موسى (عليه السلام) في حديثه لنصراني .. والنهر الذي ولدت عليه مريم عيسى هل تعرفه ؟ قال : لا - قال : هو الفرات وعليه شجر النخل والكرم وليس يساوي بالفرات شيء للكروم والنخل ...

وفي تهذيب الاحكام عن علي بن الحسين في الآية قال : خرجت من دمشق حتى اتت كربلاء فوضعت في موضع قبر الحسين (عليه السلام) ثم رجعت من ليلتها وح م د
في روضة الكافي عن سليمان بن داود المنقري عن حفص قال : رأيت ابا عبد الله (عليه السلام) يتخلل بساتين الكوفة فانتهى الى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فأحصيت في سجدة خمسمائة تسبيحة ثم استند الى النخلة فدعا بدعوات ثم قال : يا حفص انها والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم (عليها السلام) « وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » .

﴿فأجاء المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ (٢٣).

فأجأها المخاض فأجاءها - ان جاء بها - الى جذع النخلة لتجعله لبأسها سناداً ولظهرها عماداً . فانها وحيدة تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ، دون ان تعرف منه شيئاً او يعينها احد في شيء فلجئت الى جذع النخلة كقابلة تسندها .

معاناة المخاض من ناحية وغربتها من اخرى وهزتها من ولادة دون بعلى من ثالثة تسقطها في يديها وتحيرها في أمرها وتشد حزنها وتغلي مرجل غيظها فتقول متأوهة حائرة : « يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » !

تري وكيف قالت قولتها هذه وهي عارفة بأن هذه الولادة هي من الله آية للناس ورحمة للعالمين ؟ علها لكربتها وغربتها وشدة وطئتها نسيت الآية الرحمة ، «لأنها لم تر في قومها رشيداً ذا فراسة ينزهها عن السوء» (١) مهما دافع عنها أهلها !

«مت قبل هذا» قد يعني قبل حملها، او يعني قبل وضعها ام يعنيهما حتى لا تقع في هذا المأزق المزلق، «وكنت نسياً» ما يحق ان ينسى لدناءته كخرقة حيض او علقته ، ثم «منسياً» يعني نسياناً على نسيان ! ألا يتذكروني في شيء وأنا منذ الآن عُلقة الالسن تتداولني في نقاض ونقاش !

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٢٠ ح ٤٦ مجمع البيان في الآية انما تمت (عليها السلام) الموت امتحياً من الناس ان يظنوا بها سوء عن السدي: وروي عن الصادق (عليه السلام) : انها ...

اترى لماذا « الى جذع النخلة » دون « النخلة »؟ عله للاشارة الى ييوستها
 أن بقي لها جذع خشبة تلتجىء به ! حيث الجذع هو المقطع فهو إذا مقطوع
 النخل منفصلاً عنه ام قطعاً عن حياته وما أنسبه لجوء العذراء التي ليست لتلد
 دون بعل الى جذع النخلة اليابسة عن وليد الثمر، وليتشابها حين أثمر !
 ﴿ فنادها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ (٢٤).

لقد ولد المسيح (عليه السلام) هكذا إلى جذع النخلة وفي حديث أنه
 كان يوم العاشور^(١) أم ماذا^(٢) ما ندري إلا أنه ولد في الله ! طفل هو حمل
 لفترة قصيرة ووليد اللحظة ، ينادي أمه من تحتها ، يطمئنها في حالها الغريبة
 المضطربة ، ونفس ندائه تطمئنها دون ان تحمل هذه البشارات : « ألا تحزني »
 لكربتك على غربتك ، لوحدثك حين وهدتك « قد جعل ربك تحتك سرياً »
 من الرفعة، وهو المسيح الرفيع ، او من السري : السريان : نهراً سرياً
 خلق الساعة^(٣)، ووليداً سرياً يسرى صيته ويجري صوته في مشارق الأرض

(١) نور الثقلين ٣ : ٢٢ في تهذيب الاحكام عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) انه قال
 وقد ذكر يوم عاشوراء - وهذا اليوم الذي ولد فيه عيسى بن مريم (عليه السلام) . . .
 (٢) المصدر في من لا يحضره الفقيه عن الرضا (عليه السلام) قال : ليلة خمس
 وعشرون من ذي القعدة ولد فيها ابراهيم (عليه السلام) وولد فيها عيسى بن مريم
 (عليه السلام) .

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٦٨ واخرج الطبراني وابن مردويه وابن النجار عن ابن عمر سمعت
 رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ان السري الذي قال الله لمريم « قد
 جعل ربك تحتك سرياً » نهر اخرجه الله لها لشرب منه . واخرج مثله الطبراني في الصغير
 وابن مردويه عن البراء بن عازب عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد روي في
 المجمع عن ابي جعفر الباقر (عليه السلام) : ضرب جبرئيل برجله فظهر ماء عذب
 يجري .

ومغاربها ، نادها المسيح فانه محور الكلام وحاصل المخاض فهو من تحتها ، دون جبريل أم ملك سواء إذ ليس تحتها^(١) وسريتها هو نهرها الساري تحتها ووليدها الخارج من تحتها فانه سرور رفيع وسار منيع ، ويا للسريين هذين من رفعة ومناعة فانها صنيعةا ربها كما وصنع لها رطباً جنياً ، مثلاً من خارق العادة رأس زاويته سري المسيح .

﴿ وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ (٢٥).

فلانها أهزت لما ولدت دون بعلى ، فلتهز جذع النخلة اليابسة فتتهز بالخياة دون سبب ظاهر فتحمل وتساقط عليها رطباً جنياً دون لقاح باهر ودون مكوث لفترة الإبراق والإثمار والإيناع ونحسبها عليها اندهشت في حظوة وبهتت على أهبة كيف تمتد يدها الى جذع النخلة اليابسة لتساقط عليها رطباً جنياً فاذا بالنخلة المورقة المثمرة المونعة تساقط عليها ودقاً من رطب جني طري ! .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

ويا لها من طاهرة عذراء تحمل دون بعلى ، فأجاءها المخاض الى جذع نخلة يابسة بتراء^(٢) فاذا هي تثمر دون وقتها - ولا لقاح - وبعد موتها ، كما

(١) المسيح هو آخر المراجع الصالحة لضمير الغائب في ناداها اضافة الى ما ذكر في المتن وانها ما كانت تطمئن الى هذه المقالة في حالتها المزرية الا مقالة المشاهد وهو المسيح .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٣١ ح ٥٥ عن كتاب المناقب عبد الله بن كثير قال : نزل ابو جعفر (عليه السلام) بواد فضرب خباءه فيه ثم خرج يمشي حتى انتهى الى نخلة يابسة فحمد الله عندها ثم تكلم بكلام لم اسمع بمثله ثم قال : ايتها النخلة اطعمينا ما جعل الله فيك فتساقطت رطباً احمر واصفر فاكل ومعه ابو امية الانصاري فقال : يا ابا امية هذه الآية فينا كالأية في مريم ان هزت اليها النخلة فتساقطت رطباً جنياً .

اقول وفي بصائر الدرجات روى مثله عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ايتها النخلة السامعة الطيبة المطيعة لربها اطعمينا مما جعل الله فيك فتساقط علينا رطباً مختلفاً ألوانه

أن العذراء تلد فور وهبة ربها دون وقتها ولا لقاح ، ويجري في لحظتها ينبوع ، طعام وشراب محضران بخارقة الرب كما هي وابنها آية للعالمين :

﴿ فكلني واشربي وقرني عيناً فأما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾^(٢٦).

كلي من رطب جني واشربي من السري ، وما أحسنه واسلمه أكلًا للنفساء رطب جني ف « اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم (عليه السلام) وليس من الشجر شجرة تلقح غيرها - اطعموا نساءكم الرطب فان لم يكن رطب فتمر فليس من الشجر شجرة أكرم من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران »^(١) « ولو علم الله طعاماً هو خير لها من التمر

= فاكلنا حتى تضلعنا فقال (عليه السلام) : اليكم سنة كسنة مريم (عليها السلام) .

وفيه عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : خرج الحسن بن علي بن ابي طالب (عليه السلام) في بعض عمره ومعه رجل من ولد الزبير كان يقول بامامته قال : فنزلوا في منزل من تلك المنازل تحت نخل يابس قد يس من العطش قال : ففرش للحسن تحت نخلة وللزبير بحذاء تحت نخلة اخرى قال فقال الزبيري ورفع رأسه : لو كان في هذا النخل رطب لاكلنا منه فقال الحسن (عليه السلام) وانك لتشتهي الرطب ؟ قال : نعم - فرفع الحسن (عليه السلام) يده الى السماء ودعا بكلام لم يفهمه الزبيري فاخضرت النخلة ثم صارت الى حالها فاورقت وحملت رطباً قال فقال الجمال الذي اكتروا منه : سحر والله ! فقال الحسن (عليه السلام) : ويلك ليس بسحر ولكن دعوة ابن نبي مجابة ! قال : فصعدوا الى النخلة حتى تصرموا ما كان فيها فأكفاهم .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٦٩ - اخرج ابو يعلى وابن ابي حاتم وابن السني وابو نعيم معاً في الطب النبوي والعقيلي وابن عدي وابن مردويه وابن عساكر عن علي (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . . . وفيه اخرج ابن عساكر عن ابي سعيد الخدري قال سألنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مماذا خلقت النخلة ؟ =

هنا اطمأنت نفسها وعاد إليها ما عذب من لبها واستجمعت قوتها ، ومع الدستور الصارم تخفيفاً لوضعها العارم : « فاما ترين من البشر أحداً فقولي ... » لا تكلمي بشراً يواجهك إلا قوله الإشارة : « اني نذرت للرحمن صوماً » للصمت لا عن الأكل والشرب « فلن أكلم اليوم » واليوم فقط « انسياً » مهما أكلم ربي وغير الانس من ملك امن ذا ، ولأن الانسي هو الذي يعارضني في ولدي دون بعل ، والله بملائكته يؤنسنني غير ملين !

هذا طرف من قصة الولادة المباركة العجيبة للمسيح بن مريم (عليه السلام) وهناك هرطقات إنجيلية تعارضها ، مما يجعل الجمعية الرسولية



قال : خلقت النخلة والرمان والعنب من فضل طينة آدم (عليه السلام) .

(١) اخبر ابن عساكر عن سلمة بن قيس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اطعموا نساءكم في نفاسهن التمر فانه من كان طعامها في نفاسها التمر خرج ولداً حليماً فانه كان طعام مريم حيث ولدت عيسى ولو علم الله . . وفي نور الثقلين ٣ : ٣٣٠ ح ٥٠ في كتاب الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) اصحابه من الأربعمئة باب مما يصلح للمسلم في دينه ودنياه ما تأكل الحامل من شيء ولا تتداوى به افضل من الرطب قال الله تعالى لمريم : « وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً . . اقول : قول المسيح حينذاك وحياً هو من قول الله وفي (٥١) عن الكافي عنه (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكن أول ما تأكل النساء الرطب فان الله عز وجل . . قيل يا رسول الله فان لم يكن اiban الرطب ؟ قال : سبع تمرات من تمر المدينة فان لم يكن فسبع تمرات من تمر امصاركم فان الله عز وجل يقول : وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني لا تأكل النساء يوم تلد الرطب فيكون غلاماً الا كان حليماً وان كانت جارية كانت حليمة .

الامريكية تعترض على جوانب من هذه القصة حسب القرآن قائلة : ^(١) « ان القرآن مشتبّه في قصة مريم إذ ينسب إليها قصة هاجر أم اسماعيل ، فانها هي التي كانت في البرية وهزت اليها بجذع النخلة ومريم كانت في بيت لحم اليهودية والمسيح لم يتكلم في المهد وهذه كلها مأخوذة من خرافات المسيحيين دون سناد عن كتابات الوحي ^(٢) .

وعجب من هؤلاء كيف يخطئون في قصة هاجر وهي في برية لا ماء فيها ولا كلاء ولا نخلة أماذا ؟ ثم أن لهم أن المكان القصي الذي انتبذته مريم كانت برية قفراً فلا شجرة فيها ولا نخلة ، فهل القصي في قاموسهم هو القصي عن الماء والكلاء ؟ وليس إلا البعيد القاصي عن أهلها وعن ملاء الناس لكيلا يرونها تضع حملها فلا يسارعونها في الإتهام ، وليست النخلة إلا في المعمورة ، فقصبيهم - اذاً - قصي عما يرام !

فهل ان القصي الطري المعمور بالنخلة ورطبها الجني أخرى بهذه الولادة المباركة للعذراء الطاهرة أم الأخور معلف الحيوان كما ينقله الانجيل ؟ فان زعمت الجمعية الرسولية أن مكانها القصي خلو من النخل فانجيل يوحنا يصرح : « ان الكثيرين في اورشليم اخذوا سعوف النخل وخرجوا للقاء المسيح » (١٣ : ١٢ - ١٣) وبيت اللحم من ضواحي اورشليم ^(٣) .

وحين لا تسمح هذه الجمعية لمريم الطاهرة كرامة الرطب الجني تدنس

(١) راجع كتابنا « عقائدنا » ص ٥٠٠ - ٥٠٣ وما قبلها وبعدها ففيها تفصيل مقارن للقصة بين القرآن والانجيل .

(٢) ج ٢ ص ٩٢ - ٩٣ من الهداية للجمعية الرسولية الامريكية نقلاً بالمعنى .

(٣) سبق ان من المحتمل في المكان القصي بعد بيت اللحم هو الكوفة وكلاهما من منابت النخل كما في روضة الكافي باسناده الى حفص قال : رأيت ابا عبد الله يتخلل بساتين الكوفة فانهى الى نخلة فتوضأ عندها ثم ركع وسجد فاحصيت في سجدة =

ساحتها وتصدق الخرافة الهاتكة الانجيلية « انها جاعت فانفتحت السماء ونزل عليها إناء فيه كل دواب الأرض والزحافات والطيور وقيل لها : إذ بحي وكلّي فقالت : يا رب ! اني لم آكل قط شيئاً نجساً؟ فقيل لها : ماظهره الله فلا تدنيسه » (يوحنا : ١١٠ - ١٦) فهل إن الله ينزل على مريم شيئاً نجساً ويأمرها بأكله أن طهره أمره، ام كيف تعارض الطاهرة المتعبدة أمر ربها، اتريد ابطال حكم إلهي تعبيداً لطريقة المسيح الذي يفتردي البشرية عن لعنة الناموس ابطالاً لشرعية التوراة ؟ .

وحين نحيل الجمعية الرسولية اخضرار النخلة واثمرارها من ساعتها بأمر الله ، فلتحل مثل ذلك في عصي موسى حيث « وضعها في خيمة الشهادة وفي الغد وجدها قد أفرخت فروخاً ، وأزهرت زهراً وأنضجت لوزاً » (عد ١٧ : ٧ - ١١ وعب ٩ : ٤) !

« ... فلما ترين من البشر أحداً » رؤية حتمية لبشر « ترين » إذا حصلت « إمّا » - « احداً » جنس البشر واحداً او اكثر « فقولني اني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم .. » وكيف تقول مقالتها وهي حسبها صائمة عن أية قولة لبشر؟ - .

هنا تقول الجمعية الرسولية : (٢ : ٥٢) إله القرآن يأمر مريمه تقول كذباً : إنها نذرت للرحمن صوماً فلن تكلم اليوم إنسياً ، وهي لم تكن صائمة بدليل أمره إياها ان تهز إليها بجذع النخلة .. « فكلي واشربي وقري عينا .. » ثم أمره إياها أن تقول إنها صائمة لا تتكلم متناقض حيث

= خمسمائة تسبيحة ثم استند الى النخلة فدعا بدعوات ثم قال : يا حفص ! إنها والله النخلة التي قال الله جل ذكره لمريم (عليها السلام). « وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » .

امرت ان تقول: إني نذرت للرحمن صوماً ..» .

وعجب من هؤلاء الاغفال كيف جمعوا بين صوم الصمت والطعام ، و « فلن اكلم .. » دليل انه صوم الصمت ! ثم « قولي » لا يختص بقول الكلام ، حيث الإشارة المفهمة قول كما الكلام : « فاشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صيباً » ولم يقل « قالت » وحتى لو قالت ف « إني نذرت ... » لا يحدد بداية الصوم ولعلها بعد هذه القولة إن كانت لفظة ولم تكن ١.

ويا لها من كرامة للعدراء تعتذربعذر شرعي شرعه لها ربها حتى لا تواجه بشراً بشطراً كلمة قبل ان يذاد عنها بخارقة آلهية « إني نذرت للرحمن صوماً » ، وعله فقط صوم الصمت (١) ام صوم يعم الصمت ولم يكن أكلها وشربها إلا قبل ان تواجه بشراً فلم يشمله صومها ان عثم الطعام كما الكلام ، ولكنه الصمت فقط حيث النفاس من حالات منعة سائر الصيام ، وتفريغها على صومها : « فلن اكلم اليوم إنسياً ! »

وصوم الصمت شرعة توراتية انقطعت بالشرعة القرآنية ، فأيات الصوم تمنع فيما تمنع عن ما سوى الصمت ، اللهم إلا صمتاً عن الكذب على الله ورسوله حيث يبطل الصوم ، ام مطلق الكذب حيث ينتقصه ، وكما ثبت بالسنة الثابتة (٢) واما الصمت المطلق فلا صوم فيه إسلامياً !

(١) المصدر ح ٦٠ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب في مناقب ابي جعفر الباقر (عليه السلام) ومآل طاووس اليماني ابا جعفر (عليه السلام) عن صوم لا يحجز عن اكل وشرب ؟ فقال : الصوم من قوله تعالى : اني نذرت للرحمن صوماً .

(٢) نور الثقلين ٣ : ٣٣٢ ح ٥٨ في الكافي باسناده عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان الصيام ليس من الطعام والشراب وحده ثم قال : قالت مريم : اني نذرت =

﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً^(٢٧) يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت امك بغياً^(٢٨) فإشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾^(٢٩).

« فأتت به قومها » - ان مكانها القصي لم يكن بذلك البعيد كالكوكة « فأتت .. تحمله » دون ان تتركه مخافة العار حيث اطمأنت أنه عطية ربانية فهو ذائد عنها ما لمس كرامتها « قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً » : موضعاً لفرية بالغة المدى ام عظيماً بديعاً ف « لقد » تأكيد ان و « فرياً » كمبالغة الفرية تشكل عليها ثلوث الفرية ومن ثم التأنيب كانها ثابتة لا جَوَل عنها : « يا اخت هارون ما كان أبوك امرء سوء ... » !

وهناك مندوحة للعدراء الوالدة - مع الغض عن احتمال معجزة آهية - : عليها اجتذبت نطفة الرجولة دون لقاح ان جلست مكاناً فيه النطفة ، وحالة المؤمن وفعله محمولة على الصحة ، أفلم يلمس قومها ايمانها وهي عائشة المحراب ، صالحة الذهاب والاياب ، فالحة في حراب الشهوات ؟ !

ثم ولماذا « يا اخت هارون » وهو أخو موسى وبينهما قرون خلت ؟ كما اعترضته الجمعية الرسولية الامريكان (٣ : ٣١) : « خلط هارون أخا موسى باخي مريم ! » وكأنهم يخصصون اسم هارون باخي موسى ثم لا يحق لمن بعده ان يتسمى بهارون ! « ألا اخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالانبياء والصالحين قبلهم »^(١) ؟ !

= للرحمن صوماً - اصوماً صمتاً - صمتاً - فاذا صمتتم فاحفظوا الستكم وعضوا ابصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٠ - اخرج ابن ابي شيبة واحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن حبان والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الى اهل =

ولماذا يتقدم هارون اخوها على أبيها ومن ثم أمها ؟ علّه لأن هارون كان اقدس أنسابها وأشهر في قدسيته من أبيها لحد يتعالى حتى عن أن ينفى عنه السوء ، ثم أبوها ما كان امرء سوء ، ثم أمها ما كانت بغياً !

ومثلت النسبة هذه والرعاية العالية الطاهرة في ظله يجعل من البنت طاهرة بعيدة عن هذه الفعلة العاهرة ، فيا للمفارقة بين هذه النسبة المباركة وتلك المقارفة النكدة الدنيئة التي لا تأتيها إلا بنات بغايا والآباء السوء !

والقول إن هارون هذا لم يكن أخاها وإنما مثلها في التقوى مشهوراً بها ، غير فصيح ولا صحيح ، حيث الحقيقة لا تُصَرَف الى مجاز إلا بقريئة ، وأنهم كانوا في تقريعها وتأنيبها سابق الجملة : « لقد جئت شيئاً فرياً » ولاحقها : « ما كان أبوك امرء سوء : » والاخوة المثيلة بهارون ، لها مدحة بالغة !^(١) .

أشارت إليه إشارة قائلة « إني نذرت للرحمن صوماً » وأسألوه فانه المجيب عما تسألون ! أم قالت لهم نذرهما قبل بدايته وقبل أن يكلموها ، ثم أشارت إليه أجابة عما أفتروا عليها ، هنا يبههم العجائب على الغيظ الذي ساورهم ، كيف تتبجح فتسخر من متسائلها ، صامته مشيرة الى « من كان في المهد صيباً » قالوا جواباً عن إشارتها الهازئة الغالطة في حسابهم « كيف نكلم من كان في المهد صيباً » ؟!

وترى ما هي مكانة « كان » هنا وكل أحد كان في المهد صيباً مهما كان

= نجران فقالوا أرأيت ما تقرؤون « يا اخت هارون » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا

فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : ألا أخبرتهم ..

(١) مجمع البيان : يا اخت هارون فيه اقوال : احدها ان هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني اسرائيل ينسب اليه كل من عرف بالصلاح عن ابن عباس وقتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبه يرفعه الى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اقول وهذا المرفوع اليه مرفوع عنه في المعنى لما قلنا ومضى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) . والراوي عنه في هذين المتعارضين واحد وفصاحة القرآن تنافي الثانية .

الآن ايضاً صبيّاً ام شاباً او شائباً صرماً؟

علّ « كان » هنا تامة وصبيّاً حال ، كيف نكلم طفل المهدي حال صباه وليس بأهل لكلام او حوار ما كان في المهدي ، اذاً فـ « كان » تركّز صباه انه بعدُ طفل المهدي ولما يخرج منه حتى يؤهل لكلام ، و « كان » هذا كاضرابها في سائر القرآن تدليلاً على تمكّن مدلولها في حال ام ماذا^(١) .

والقول ان « كان » هنا زائد زائد من القول اذ لا يليق بفصيح الكلام كسائر القول هنا إلا ما نبهنا عليه والله اعلم بما « كان » ! .

﴿ قال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً^(٣٠) وجعلني مباركاً اين ما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً^(٣١) وبراً بوالدي ولم يجعلني جباراً شقيّاً^(٣٢) والسلام علي يوم ولدت ويوم اموت ويوم ابعث حياً^(٣٣) ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾^(٣٤) .

تنزيهات سبع تخصه ، تغلق عليه السبع ابواب جحيم الافتراءات الموجهة اليه ، المفتحة عليه ، وثامنة هي تقديسة تامة هامة تكرر حياته الطاهرة وحياته امه الزاهرة العذراء : « والسلام علي » !

والحق أقول إنه بيان صارم على اختصاره يحرف عنها كل هرطقة عارمة تهرف او كلمة تحرف في كتابات مزورة ! .

(١) مثل قوله تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً » (١٧ : ٩٣) ان البشرية والرسالة تمكتنا في فلا املك ما يملكه ربي - وقوله تعالى : « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً » (١٧ : ٣٦) حيث النصرة لزام الولي المقتول . . وكذلك « من كان في المهدي صبيّاً » حيث الصبا بعدُ لزامه ولما يخرج من صباه ! .

١ ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ .. ﴾ ؟

إن كلامه وهو في المهد صبي رضيع ، وبهذه البداية المباركة يذود عنه تفريط المفرطين : انه ولد زنا . وإفراط المفرطين انه الله او ابن الله ، فكيف ينطق ولد زنا بخارقة آلمية اللهم إلا من اصطفاه الله ، وكيف يعترف الله او ابن الله ام اقنوم الالهية انه عبد الله ؟!

ففي حين أنه لم يصرح هنا بالطهارة عن الزنا استلزم كلامه في بعده أنه الطاهر المصطفى آية لله : « وجعلنا ابن مريم وامه آية » (٢٣ : ٥٠) وهنا يتهدم صرح كل مفرط ومفرط بحق المسيح وامه (عليهما السلام) ، حيث الأقاويل فيهما ولا سيما فيه متشابهة متشاكسة لا يكاد نحمد نيرانها إلا بصراح القول من المسيح نفسه وهو في المهد صبي !

نجد قرابة ثمانين موضعاً في الانجيل أن المسيح يعترف بعبوديته لله وأنه ابن الانسان^(١) ورغم تحرفها لا نجد فيها ولا تصريحاً واحدة من وحي الانجيل أنه الله إلا « الأب والإبن وروح القدس » والأب باللغة اليونانية تعني الخالق ، فالإبن ليس إلا مخلوقاً للخالق وهو ابن الانسان ، وروح القدس هو الوسيط بين الخالق والابن . ولكنهم رغم الحفاظ على الصيغة اليونانية يفسرونها بالأب كأنها عربية مع الغض عن مدّها ، تحريفاً خارقاً مجازفاً جارفاً لم يتنبه له إلا القليل ممن وفي لرعاية الحق من العارفين .

(١) كما في انجيل يوحنا ١ : ٥١ : ٤ : ٦ : ٣ : ٢٦ : ٢٤ : ٤ : ٣٤ : ١٩ : ٤٤ : ٥ : ١٩ : ٢٤ ، و ٣٠ : ٤٤ : ٦ : ١٤ : ٢٨ : ٢٩ : ٤٤ : ٧ : ١٦ : ١٨ : ٢٨ : ٣٣ : ٤٠ : ٨ : ٢٦ : ٢٨ : ١١ : ٤١ : ١٢ : ٢٧ هو عبد الله - وفي متى ٨ : ٢٠ : ٩ : ٦ : ١٦ : ١٣ : ٢٧ : ١٧ : ٩ : ١٢ : ٢٢ : ١٨ : ١١ : ١٩ : ٢٨ : ٢٠ : ١٨ : ٢٠ - انه ابن الانسان .

« اني عبد الله » حاله ومقاله وسمة أفعاله طول حياته ، مهما اختلق عليه مقالات اخرى^(١) فهو لا يعرف لنفسه صلاحاً بجانب ربه فكيف يجعل نفسه عدلاً لربه ؟ : « وإذا واحد تقدّم وقال له : أيها المعلم الصالح .. فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله » (متى ١٩ : ١٦ - ١٩) - (مرقس ١٠ : ١٨) (لوقا ١٨ : ١٩) ويندد ببطرس المتطرف ، المتطرق له لقب الرب : « حاشاك يا رب ! فالتفت وقال لبطرس : اذهب عني يا شيطان ! أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (متى ١٦ : ٢٢ - ٢٣) .

ويندد بمن اختاله معادلاً لربه : « آبي يعمل وأنا أعمل فمن أجل هذا قالوا : إنه كسر السبت وجعل نفسه معادلاً لله » (يوحنا ١٧ : ٢٧) .

٢ « آتاني الكتاب .. »

فرية أخرى على المسيح (عليه السلام) ان ليس له كتاب شرعة ، وإنما الحواريون ومن اتباعهم هم الكاتبتون سيرته وسموها الانجيل ، لذلك لا نرى عندهم إنجيلاً ينسب الى المسيح إلا ما تطرق له التاريخ وأصبح منسياً مع الزمن !

(١) كالقائلة انه ابن الله : (متى ٣ : ١٧) واول مواليدته (عب ١ : ٩) وابن الله المبارك (مرقس ١٤ : ٦١) والقائلة انه هو الله والكلمة : (يوحنا ١ : ١) الازلي (عب ٩ : ١٤) والرب وقد كرر في الاناجيل وانه عما نوئيل : الله معنا (متى ١ : ٢٣) ويعارضها التصريحات الثمانون في الرقم (١) ومثل : يهوه - الله : يرسل انبياء وحكماء وكتبه (متى ٢٣ : ٣٤) و(لوقا ١١ : ٤٩) ويهوه هو رب الشريعة فبقدرته الشخصية يتم ناموس موسى ويعدله (متى ٥ : ٢١) ويهوه يعقد عهداً مع البشر (متى ٢٦ : ٢٨) و(مرقس ١٤ : ٢٤) و(لوقا ٢٢ : ٢٠) .

(٢) راجع كتابنا : عقائدنا ص ٦٥ - ١٤٥ - نجد فيه تفصيلاً واسعاً عن خرافة الالهية والبنوة للمسيح وتزييفها .

إن القرآن يثبت له إنجيلاً : « وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور » (٥) :
(٤٦) ! وجماعة من المسيحيين ينكرون هذه الحقيقة الناصعة ، ك : القس و .
ت . جردنر الإنجليزي^(١) و : اوميم ميلر^(٢) رغم اعتراف جماعة آخرين منهم
بانجيل المسيح وكما في الانجيل الحالي نفسه : « بعدما أسلم يوحنا جاء يسوع
إلى الجليل يكرز - يبشر - بانجيل ملكوت الله ويقول : قد كمل الزمان

(١) في كتابه : محاوراة الوحي باعتبار التوراة والانجيل والقرآن ، صدر من الجمعية
الاسقفية ببولاق مصر - طبع بمطبعة النيسل المسيحية بشارع المناخ نمرة ٣٧ - يقول فيه :
« في القرون التي مضت بين المسيح ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يعترف
المسيحيون بانجيل غير الانجيل الحالي اي : العهد الجديد - وليس هناك اقل بينة تدل
على انه كان لدى المسيحيين كتاب آخر غير الكتاب الحالي او الانجيل الحقيقي او ان
الحقيقي فقد بعد زمن الهجرة . . ان الانجيل الحالي هو اذاً الانجيل الحقيقي ، وان
زعم وجود كتاب آخر انزل على عيسى هو وهم وخطأ ، فيكفي ان نقول فقط : ان
كاتبى اسفار الانجيل هموا ان يدونوها بطرق مختلفة ووسائل متنوعة ولذلك يعتبر جوهر
ما دونوه موحى به » .

(٢) هو العالم الشهير الانجيلي في كتابه : التمدن القديم في باب تعاليم المسيح ، يقول
فيه : « ان ربنا عيسى المسيح لم تكن له شريعة كموسى ، انما قرر شريعة التوراة ، انه
كلمة الله الظاهرة وكان عنده خزائن علم الله وحكمته فلم يكن من اللازم ان ينزل
عليه كتاب ، والمؤمنون الاولون انما كانوا يستفيضون من كلماته النيرة ، فايين لزوم
كتاب ينزل عليه ؟ فان اعماله وكلماته كانت مكتوبة على صحائف قلوب الحواريين ،
فلم يكونوا اذا بحاجة الى كتاب شريعة اذ كانت تكفيهم شريعة التوراة ، ولا كتاب
سنة عملية اخلاقية لأن المسيح كان ذلك الكتاب باعماله واقواله - ولكن المسيحيين لما لم
يروا المسيح في الجسم على الاكثر ، فهم بحاجة الى كتابات تذكرهم بمعجزات المسيح
وحياته لكي يغنيهم البيان عن العيان ، لذلك رأى مؤلفوا الاناجيل الذين كانوا يعرفون
حياة المسيح بعيان وبصيرة - رأوا من المفروض عليهم تأليف هذه الاناجيل ويشرحوا فيها
احواله واقواله ومعجزاته وهذه الكتب هي المراجع الدينية الثانوية بعد المسيح
وتلاميذه » .

واقترَب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» (مرقس ١ : ١٥) ^(١) «وكان يسوع يطوف كل الجليل يعلم في مجامعهم ويكرز بإنجيل الملكوت» (متى ٤ : ٢٣ و ٩ : ٣٥) ويعرف به بولس قائلاً : «أولاً أشكر آلهي يسوع المسيح من جهة جميعكم أن إيمانكم ينادي به في كل العالم فإن الله الذي أعبدته بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع اذكركم» (روم : ١) وفي : برنابا : «ولقد قال لي صدق يا برنابا اني اعرف كل نبي وكل نبوة وكل ما أقوله إنما جاء من ذلك الكتاب» ^(٢) «وانتم شهداء على هذا كيف انكر على هؤلاء الاشرار الذين بعد انصرافي عن العالم سيبتلون حق إنجيلي بعمل الشيطان ، ولكنني سأعود قبل النهاية» (برنابا ٥٢ : ١٤ - ١٥) «... مع أنني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري لا طيلن في ذلك اليوم عدلاً بدون رحمة هؤلاء الذين يحتقرون كلامي ولا سيما اولئك الذين ينجسون إنجيلي» (برنابا ٥٨ : ٢١ - ٢٢) وكما يشهد بولس بهذه الخيانة الفاضحة إذ يتدد بهم : «إني اتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً من الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر . ليس هو آخر . غير أنه يوجد قوم يزعمونكم ويريدون ان يحولوا إنجيل المسيح» (اغلا : ٦ - ٧) !

(١) هذه الآية تلمح كانهم ما كانوا ليصدقوا إنجيله اذ كان عبثاً وجملاً عليهم ، حتى يفسح لهم مجال اختلاق اناجيل اخرى .

(٢) حيثُذ قال التلاميذ : حقاً ان الله تكلم على لسانك لانه لم يتكلم انسان قط كما تتكلم ؟ اجاب يسوع : صدقوني : انه لما اختارني الله ليرسلني الى بيت اسرائيل اعطاني كتاباً يشبه مرآة نقية نزلت الى قلبي حتى ان كل ما اقول يصدر عن هذا الكتاب ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي اصعد عن العالم ، اجاب بطرس : يا معلم ! هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب ؟ اجاب يسوع : ان كل ما اقلوه لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الانسان وخلص الجنس البشري انما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو انجيلي (برنابا ١٦٨ : ١ - ٥) .

سورة مريم / آية ٣٠ - ٣٤ ٣٠٩

وهناك في الاناجيل اللاحقة لهذه الاصول الانجيلية عندهم تصريحات
تجواب معها، كـ « انجيل السلام للمسيح » (١ ف ٦ : ١٥) وانجيل
الخلاص « (١ ف ١ : ١٣) وانجيل الرب « (اول تسلو ٢ : ٩) .
وكذلك تصريحات اخرى من علماء المسيحية ومؤلفيهم ، كـ « نارتن »
حيث ينقل عن « اكهارن » وتذكر دائرة المعارف الإنجليزية انجيل المسيح
(عليه السلام) في عداد خمسة وعشرين إنجيلاً^(١) ويؤيده كتاب اكسهوموا^(٢)
و . « اكهارن » وكثير من متأخري علماء النمسا ، ومال إليه المحققون -
« ليكلرك - كوب - ميكائلس - ليسنك - نيميرومارش »^(٣) .

٣ - « وجعلني نبياً .. »

ترى كيف تأخرت النبوة عن اتيان الكتاب الذي يضم النبوة والرسالة
كلاهما ؟ لأن النبوة للرسول هي الرفعة في رسالته . فهناك نبوة ثم رسالة ثم
نبوة ، فمن نبيء ليس برسول ومن رسول ليس بنبي ، وكما تأخر النبوة
الجامعة مع الرسالة عنها في سائر القرآن ، تدليلاً على أنها أخص من
الرسالة : « واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً » (١٩ :
٥١) « واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً »
(١٩ : ٥٤) « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم
في التورات والإنجيل » (٧ : ١٥٧) « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي .. »
(٧ : ١٥٨) « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي .. » (٢٢ : ٥٢) فهذه

(١) في المطبوعة ١٣ ص ١٧٩ - ١٨٠ تحت عنوان : ابو كريفل لتريجر : خرافات
الاديان .

(٢) الفه حكيم بروتستاني يذكره في الباب ٥ من كتابه المطبوع ١٨١٣ م في لندن .

(٣) راجع كتابنا « المقارنات العلمية والكتابية بين الكتب السماوية » ص ٩ - ٦٠ تجد
فيه تفاصيل الاناجيل .

٣١٠ الجزء السادس عشر

النبوة السامية كسائر النبوات متدرجة من العبودية « اني عبد الله » الى نبوة وحي ثم رسالة : « آتاني الكتاب » ثم نبوة « وجعلني نبياً » فبين النبوة والنبوة متوسط الرسالة ، وكل من هذه الرحلات درجات حسب درجات النبوات .

ثم « وجعلني نبياً » تحصر كيانه ككل في النبوة رفضاً لما سواها من الوهية او نبوة حقيقية او تشريفية اماميه مما يهرقه الخارفون حول السيد المسيح (عليه السلام) من وراثة الالهية او النبوة !

﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ بركة شاملة تكرر كيانه ككل ، تسلب عن ساحته كل المثالب والمآلَب التي اختلقت أيدي الدس والتجديف ، فد « أينما كنت » تضرب إلى أعماق الماضي في أصلاب شائخة وارحام مطهرة حيث تنقل من كل الى اخرى وإلى امه الطاهرة العذراء ، ما يظهر ساحته في ماضيه وبأحرى حاله ومستقبله كما يشملها مثلث السلام ، فلم تكن في هذا البين مقاربة محرمة على أية حال ، ولا مقارفة لها في كل حل وترحال ومن مستقبله المجيد .

إنه لم يخلد بخلد مريم الطاهرة إلا رجاء الذود عن ساحة هذه الولادة ، فاذا هي تجد وليدها : « جعلني نفاعاً للناس أين اتجهت »^(١) ومعلماً ومؤدباً^(٢) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٠ - اخرج الاسماعيلي في معجمه وابو نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الاخلاق وابن مردويه وابن النجار في تاريخه عن ابي هريرة قال قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قول عيسى (عليه السلام) وجعلني مباركاً أينما كنت قال : جعلني . . وروى مثله في معاني الاخبار باسناده الى عبد الله بن جبلة عن رجل عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : نفاعاً ، وهذا تفسير بالمصداق الجلي .

(٢) المصدر اخرج ابن عدي وابن عساكر عن ابن مسعود عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية . . .

سورة مريم / آية ٣٠ - ٣٤ ٣١١

في بركة كاملة كافلة لكافة الاصلاب والارحام التي تنقلا بينها .
وذلك تعريض عريض على كل التقولات الكتابية في عهدي القديم
والجديد ، مما تدنس هذه الساحة المباركة بمن قبلها من ساحات النبوات
وسواها من أصلاب وأرحام !

﴿ صحة الاناجيل خطر على قدسية المسيح عليه السلام .

العهدان يتناصران في تبعيد المسيح (عليه السلام) عن حزب الله ولا
يسمحان له الدخول في جمعية الرب إذ يفتريان عليه أنه من جدود أربعة هم
من أولاد زنا - وعوداً بالله !

موآب - فارص - بن عمي - سليمان :

هؤلاء الأربعة من أجداد المسيح حسب الانجيل ، نجد كلهم من أولاد
الزنا حسب الكتابات المقدسة !

« موآب » : عوبيد جد داود النبي أمه روث « (متى ١ : ٥ - ٦) وهي
من نسل موآب ، والمسيح من نسل داود من سليمان (متى ١ : ١) فموآب
أحد أجداد المسيح وداود وسليمان .

« بن عمي » : رجعام بن سليمان من اجداد المسيح (متى ١ : ٧) أمه
من نسل بن عمي (املوك ١٤ : ٢١) .

« فارص » : وهو ايضاً في سلسلة أجداد المسيح (متى ١ : ١ - ٤)
ونحن نجد هؤلاء الثلاثة وسليمان في التوراة من ولد الزنا ! فموآب وبن
عمي هما ابنا لوط حيث زنى ببنيته سكراناً فولد من الكبرى موآب ، ومن
الصغرى بن عمي ، وهما يرأسان سلسلتي موآب وبن عمي (تكوين ١٩ :
٣٠ : ٣٨) .

وفارص او برص ولد من زنا من « تمار » حليمة ابن يهودا حيث زنى بها فولدت فارص وزارح توامين (تكوين ٣٨ : ٦ - ٣٠) وسليمان من ولد « بت شبع » امرأة او ريتا حيث زنى بها داود النبي (متى ١ : ٦) وحاشاه .

فداود وسليمان والمسيح هم اولاد زنا - وعوذاً بالله - من المحارم ، نتيجة تجاوب العهدين في عرض نسبهم ، ثم التورات تأتي بتصريحات تخرج المسيح وهؤلاء من حزب الله ولا تأذن لهم الدخول في جمعية الرب ! .

... « لا يدخل ابن زنى في جماعة الرب ، حتى الجيل العاشر لا يدخل منه أحد في جماعة الرب . لا يدخل عموني ولا موآبي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر . لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب الى الابد ... لا تلمس سلامهم ولا خيرهم كل أيامك الى الابد » (تثنية ٢٣ : ٢٠ - ٣ و ٦) !
إذاً فلا خير في مسيح الانجيل ولا يدخل في جماعة الرب فضلاً عن ان يرأسهم - لا يدخل : نبياً او إخباراً - هو وكل ولد زنى ولا سيما الموآبين وبين عمين وهو منها ! فكيف يعتبر نبياً عظيماً من اولي العزم أو إبناً لله ام إلهاً متجسداً في الناسوت ، هذا الافك والبهت الزور في العهدين تجتثه مقالة مسيح القرآن . « وجعلني مباركاً أينما كنت » .-

﴿واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ (٣١)

تلك هي وصية خاصة رابية على أمته ، بالصلاة : أداء لها بنفسه وإقامة في أمته وكما في موسى : « إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » (٢٠ : ١٤) وإبراهيم : « رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي » (١٤ : ٤٠) وإسماعيل « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة » (١٩ : ٥٥) وهذا النبي والذين معه : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » (٢٠ : ١٣٢) « أتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة » (٢٩ : ٤٥) كما وأوحي الى

سورة مريم / آية ٣٠-٣٤ ٣١٣

المرسلين أجمع : « وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة .. » (٢١ : ٧٣) .

وقد تدل « واوصاني » في المسيح (عليه السلام) إضافة إلى ما يعم المرسلين انه ما كان إلا عبداً لله ، لا إلهاً او ابنه وإلا فلمن كان يصلي ؟!

﴿ وبرأ بوالدي .. ﴾

جعلني برأ بوالدي ويا للعجاب أن يصبح البر بالوالدة من الميزات الرسالية وهو من النواميس العامة ، والرسالة تتخطى برأ بوالدي أما ذا من قبيله ، وتختص بالميزة القمة التي لا تشارك فيها الأمة أم أدنى من القمة كإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، دون البر بالوالدة ، ولا نجد في سائر القرآن ، يعتبره ميزة رسالية اللهم إلا بر الرحمة الالهية : « إنا كنا ندعوه من قبل إنه هو البر الرحيم » (٥٢ : ٢٨) وفي يحيى « وبرأ بوالديه ولم يكن جباراً عصياً » (١٩ : ١٤) ثم آيات الإحسان بالوالدين تعم الأمم !

ولكن « برأ بوالدي » في المسيح تعني ايجابية البر بها التي لا اثر عنها في الكتابات الإنجيلية ، وكما أن :

﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾^٧

تعني الذود عن ساحته ما مست منه هذه الكتابات إنه كان بها جباراً شقياً ! .

﴿ المسيح وأمه حسب الانجيل :

نبدء هنا بقصة قانا الجليل ما أسوءها لمريم وعيساها إذ تنسب الى المسيح معجزة صناعة الخمر كاوى معجزاته التي دعت تلاميذه إلى الايمان به ، وذلك باستدعاء مريم وهو يهتكها في استدعائها رغم أنه يطبقها : « ولما فرغت الخمر قالت ام يسوع : ليس لهم خمر . قال لها يسوع مالي ولك يا امرأة لم تأت

٣١٤ الجزء السادس عشر

ساعتي بعد - ومن فوره يأتي ساعته قائلاً : إملأ والاجر ان ماء .. فلما ذاق
رئيس المتكا الماء المتحول خيراً ... » .

هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل وأظهر مجده فأمن به
تلاميذه « ! (يوحنا : ٢ - ١ : ١١) .. فمسيح القصة يهتك أمه في كلمة
لاذعة « مالي ولك يا امرأة » رغم إجابتها من فورها لماؤها كمعجزة
أولى ! .

هذا - وفتك ثاب بها في قصة ثانية يتهمها فيها بعدم الإيمان : « إذ كان
يكلم تلاميذه فجاءت حينئذ إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وارسلوا إليه يدعونه
وكان الجمع جالساً حوله فقالوا : هوذا امك واخوتك خارجاً يطلبونك .
فأجابهم قائلاً : من امي وإخوتي ؟ ثم نظر حوله الى الجالسين وقال : ها امي
وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي (مرقس ٣ : ٣١)
« امي واخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون بها » (لوقا ٨ : ١٩ -
٢١) (متى ١٢ : ٤٦ - ٥٠)

فيا لها من نسبة فاسقة كافرة الى مريم واخوته تمنعاً عن مكالمتها فرية
عليها أنها تاركة للصالحات ، وفي حين أنه يؤكد بالغ التوكيد باحترام
الامهات وانه من النواميس العشرة التوراتية دون شرط الإيمان - وهي الطاهرة
المعصومة (متى ١٩ : ١٩) (مرقس ١٠ : ١٩) (لوقا ١٨ : ١٠) افنقضاً
للنواميس وتناقضاً بين القول والعمل بهذه المثابة . وتذليل الابوين يخلف لعنة
إلهية بتأمين شعب الله : « ملعون من يستخف بأبيه أو أمه ويقول جميع
الشعب آمين » (تثنية ٢٧ : ١٦) .

ثم هو في قصة ثالثة وهي عند صلبه ! ينزل عن بُنوته لها ويهبها لمن يحبه
من تلاميذه : (يوحنا) لتكون له امّاً : « وكانت واقفات عند صليب يسوع
أمه واخت مريم وزوجه « كلوبا » و « مريم المجدلية » . فلما رأى يسوع أمه

سورة مريم / آية ٣٠-٣٤ ٣١٥

والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه : يا امرأة ! هوذا ابنك . ثم قال للتلميذ : هوذا أمك . ومن تلك الساعة أخذها التلميذ إلى خاصته » (يوحنا ١٩ : ٢٥ - ٢٧) ! .

هذا - ثم المختصر في علم اللاهوت العقائدي يحاول إنجبار حالة مسيح الانجيل الجبار العصبي^(١) ! .

هذه مريم (عليها السلام) ومسيح الجبار العصبي تجاهها حسب الانجيل ، ثم نجده وامه حسب القرآن في ارفع مقامات العصمة والطهارة .

(١) تأليف لودويغ اوث ج ٢ ص ١١٢ - ١١٨ - يقول فيه : « مريم قد اكتسبت استحقاقات وافرة لا بكفاحها ضد الرغبات الحسية بل بمحبتها لله وبفضائلها الاخرى : الايمان - التواضع - الطاعة : (انظر القديس توما ٣ / ٢٧ : ٣ على الثاني) . . فعند تقديس مريم في احشاء امها قُيدت الشهوات بحيث انتفت كل حركة حية منحرفة ، أما لدن الحمل بالمسيح فقد اخمدت الشهوات إخماداً بحيث ان القوى الحسية صارت خاضعة كل الخضوع لقيادة العقل : (انظر القديس توماس ٣ / ٢٧ : ٣) . . . اعلن المجلس التريدينتي : « ما من بار يستطيع مدة حياته كلها ان يتحاشى كل الخطايا حتى العرضية الا بامتياز خاص من الله كما تعتقد الكنيسة انه الحال في الطوباوية العذراء . (D ٨٣٣) وقد قال البابايوس الثاني عشر في رسالته *Mystici corporis* عن العذراء ام الله : « بانها كانت في عصمة من كل خطيئة شخصية او وراثية . (D ٢٢٩١) هذه العصمة هي متضمنة في نص لوقا (١ : ٢٨) « السلام عليك يا ممتلئة نعمة . . » .

كان الآباء اللاتين يجزمون بعصمة مريم من الخطيئة فيعلم القديس اوغسطينوس : ان كل خطيئة شخصية يجب ان تنتفي من العذراء مريم - والقديس افرام يضع مريم البريئة من الدنس في مقام المسيح (انظر : ٣) .

﴿ مريم في القرآن ﴾ :

« إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبأها نباتاً حساناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » (٣ : ٣٥ - ٣٧) .

- « وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » (٣ : ٤٣) « ومريم ابنة عمران التي احصنت فرجها فنفضنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها ورسله وكانت من القانتين » (٦٦ : ١٢) وهكذا الى ال : ٣٥ مرة تذكر في سائر القرآن !

﴿ المسيح في القرآن ﴾ :

إنه عبد الله ونبيه - جعله مباركاً ايماً كان عبر الأصبلا والأرحام وعبر حياته النيرة (١٩ : ٣٠ - ٣٢) و « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله » (٤ : ١٧٢) وانما مقالته وحالته طول حياته « إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » (٣ : ٥١) و « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (٣ : ٥٩) « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبي اسرائيل » (٤٣ : ٥٩) « وإذا قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم

سورة مريم / - آية ٣٠- ٣٤ ٣١٧

ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن
اعبدوا الله ربي وربكم » (٥ : ١١٦ - ١١٧) .
وهو واحد من اولي العزم الخمس : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً
والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا
تتفرقوا فيه . . » (٤٢ : ١٢) وكتابه الانجيل : (٣ : ٣ و ٤٨ و ٥ : ٤٦) وقد
سماه الله بالمسيح « وكلمته القاها الى مريم وروح منه » (٤ : ١٧١) وهو من
شهداء الاعمال يوم القيامة » (٤ : ١٥٩) و (٥ : ١٨٧) « وجيهاً في الدنيا
والآخرة ومن المقربين » (٣ : ٤٥) ومن المصطفين المجتبيين الصالحين » (٣ :
٣٣ و ٦ : ٨٦ - ٨٧) وقد علّمه الله الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل »
(٣ : ٤٨) وكان مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد (صلى الله عليه وآله
وسلم) (٣ : ٤٨) « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا
فيه لفي شكٍ منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه
الله إليه . . » (٤ : ١٥٧ - ١٥٨) وسيؤمّن به أهل الكتاب قاطبة قبل موته :
« وإن من اهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته . . » (٤ : ١٥٩) والى (١١)
مرة عيسى و (٢٥) مرة المسيح المذكورة في سائر القرآن، تربوا مرة واحدة
على امه الطاهرة مريم (عليها السلام) ! .

^ ﴿والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم ابعث حياً﴾ (٣٣) .

هنا في مثلث الولادة والموت وبعثه حياً بعد الموت دلالة شاملة على كيانه
الإنساني فالرب لا يولد ولا يموت حتى يبعث حياً ، وفي « يوم أموت » دلالة
على نكران صلبه فإنه قتلٌ وليس موتاً ، ودلالة ثانية أنه يموت ولا يبقى حياً
كما الله خلاف ما يهرفونه ! .

ثم ومثلث الزمان هذا هي اهم دورات الحياة : سلام في الولادة عن
رحم يولده من زناً ، وعن أصلاب وأرحام الآباء القدامى والامهات حتى آدم

وزوجته، وسلام يوم يموت عن أية وصمة او لعنة، خلاف ما اختلقه عليه جماعات من المسيحيين: أنه صُلب وبصلبه لُعنَ تحملاً عن لعنة سريعة الناموس، ما يتقولونه عليه أنه أبطل شريعة العمل وحصر الشريعة في عدة عقائد خرافية، وما لعنة الصليب عندهم إلا فداء عما اقترفه المذنبون من أمتة هتكاً لشريعة الناموس!.. وسلام «يوم أبعث حياً» عن كل وصمة إلا سمة العصمة والطهارة القمة!.

« ابعث حياً » في عيسى (عليه السلام) كـ « يبعث حياً » في يحيى يدل على أنه ممن شاء الله ألا تأخذه الصعقة الموت حين البعث كما قدمناه في يحيى (عليه السلام) .

ومن قبل كان مثلث السلام على يحيى المبشر بالمسيح (عليه السلام) كما « وبراً بوالدي » كتقدمة للمسيح أن ليس هو المسيح فقط برأ بوالدته بل والمبشر به بر بوالديه !.

وترى إن « سلام » في ذلك المثلث من المسيح على نفسه ، فيفضل يحيى عليه إذ الله هو المسلم عليه ؟ كلا ! حيث المسيح وهو في المهد صبي ليس كلامه الخارق إلا وحياً من ربه فـ « سلام علي » يعني سلام الله علي وكما أوحى الله الي ، ان الله سلمني ويسلمني في مثلث الزمان من كل ما لا يناسب ساحة رسالة سامية . فـ « سلام » من « السلام » على المسيح « السلام » (عليه السلام) دوغماً قيد او شرط إلّا : « اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبرأ بوالدي ولم يجعلني جباراً شقياً » !.

﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الذي فيه تمثرون ﴾ (٣٥).

« ذلك » البعيد المحتد عما مساو من كرامته في هذه الثمانية « عيسى بن مريم » لا الذي تتحدث عنه هذه الكتابات المحرفة الزور والغرور - « ذلك »

اعني « قول الحق » فيه لا نفسه « الذي فيه يمترون » لا ذاك ، فرغم أن المسيح واحد كوناً ، هو متناقض كياناً حسب القرآن والعهدين واين مسيح من مسيح ! .

﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون(٣٥) وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم(٣٦) ﴾ .

« ذلك عيسى بن مريم . . » و « ما كان لله . . » جملتان معترضتان تبعد كيان المسيح عما تقولوا عليه ثم « وإن الله ربي . . » هو البند التاسع من كلام المسيح (عليه السلام) في المهد صبياً .

نجد « ما كان له » في سائر القرآن نفي يضرب إلى اعماق الماضي تكويناً او تشريعاً كإحالة لدخولها ، ولماذا الله يتخذ من ولد لنفسه حتى ولو امكن وهو محال ؟ « سبحانه » في ذاته وصفاته وأفعاله « أن يتخذ من ولد » ولادة ذاتية ام تشريفية اماهيه ، ف « من » جنس و « ما كان » ينفي ذلك الجنس أياً كان ولماذا؟ حيث « إذا قضى أمراً » عادياً ام خارقالعادة « فانما يقول له كن فيكون » وقوله هنا فعله بارادته ، والمخاطب تكويناً قد يكون شيئاً يتحول الى شيء اخر عادياً كسائر الولادات ، ام خارق العادة كما في آدم والمسيح ، ام لا يكون شيئاً فعلياً كالمادة الأولية واول ما خلق الله فهنا المخاطب غيره هناك ، حيث التكوين هنا ايجاد لا من شيء ، لا من لا شيء ، كما أنه هناك ايجاد من شيء ، والاشياء بجانب الإرادة التكوينية ثلاثة :

١ - لا شيء بالفعل ، وبالامكان أن يوجد شيئاً ، فبعلاقة الأول يسمى قبل شيئه شيئاً .

٢ - لا شيء ولا يمكن في المصلحة الإلهية ان يوجد شيئاً ، فبعلاقة الامكان يسمى شيئاً .

٣ - شيء يجوز تحويله الى غير شيئه عادياً ام خارق العادة وهو الشيء حقيقة ، وأما المستحيل ذاتياً فليس يسمى شيئاً حتى تتعلق به القدرة و « ان الله على كل شيء » من تلكم الثلاث « قدير » لا على اللاشيء الذي لا يستحق الشيئية ولا تمكن فيه ذاتياً^(١) .

فكلما أن الله تعالى قضى خلق آدم من تراب دون أب وأم ، كذلك قضى خلق المسيح دون أب مع ام وهو اهون عليه و « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (٣ : ٥٩) .
إن الحاجة الى الولد تنسلأ من الوالد مستحيلة على الله إذ لا أجزاء له ، وإلى اتخاذ الولد خروجاً عن الوحدة ، وسنداً في الوحشة مستحيلة لعدم الحاجة ، فلماذا يتخذ ولداً سبحانه وهو مستحيل على ساحته ذاتياً وفي صفاته وفعاله ؟ « اذا قضى امرأ فانما يقول له كن فيكون » ! .

« وان الله ربي وربكم . . » تشبه الآية الإنجيلية « اني ذاهب الى آبي وأبيكم . . » : خالقي وخالقكم ، ولكنهم تغامضوا عن مد الأب حيث يعني الخالق في لغته اليونانية وفسروه بالأب ، وقد جيئت بنصها في آل عمران والزخرف ! . إذا فهي معطوفة على « إني عبد الله . . » والايثان قبلها معترضتان ، وأصبحت البنود التسعة من كلامه اعترافاً بعبوديته بداية « إني عبد الله . . » ونهاية « وان الله ربي وربكم » خير بداية وخير ختام

« متى ارسل بالإنجيل وصار نبياً ؟ »

اترى بعد ذلك كله ان المسيح (عليه السلام) آتاه الله الانجيل وجعله نبياً وهو في المهد صبياً ؟ ولم تُنقل عنه ولا شطر كلمة رسالية حين صباه الى

(١) راجع ج ٢٩ من الفرقان - كلام في القدرة من أول سورة الملك .

سورة مريم / آية ٣٥-٣٦ ٣٢١

كهولته إلا هذه المعرفة لكيانه الرسالي والذائدة عن امه الطاهرة ؟ ان تكليمه الرسالي بداية وهو في المهد ومن ثم منذ الكهولة حتى صعوده « ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين » (٤٦ : ٣) « اذ ايدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً .. » (٥ : ١١٠) .

فقد كان مؤيداً بروح القدس إذ يكلم الناس في المهد وكهلاً ، ولم يقل من المهد الى الكهولة ، وانما « في المهد وكهلاً .. » مما يخص تكليمه في الحالين دون ما بينهما ، فتكليمه في المهد يكرس أنباء رسالته كهلاً ويذود عن امه وقد سئل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « فما شأنك لم تتكلم بالحكمة حين خرجت من بطن امك كما تكلم عيسى بن مريم على زعمك وقد كنت نبياً قبل ذلك ؟ فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : إنه ليس أمري كأمر عيسى بن مريم ان عيسى بن مريم خلقه الله عز وجل من أم ليس له أب كما خلق آدم من غير أب ولا أم ولو ان عيسى حين خرج من امه لم ينطق بالحكمة لم يكن لأمه عذر عند الناس وقد اتت به من غير أب وكانوا ياخذونها كما يؤخذ مثلها من الحصينات فجعل الله عز وجل منطقته عذراً لأمه » (١) .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٣٦ ح ٧٦ في كتاب علل الشرايع عن وهب اليماني قال : ان يهودياً سأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : يا محمد ! كنت في ام الكتاب نبياً قبل ان يخلق آدم (عليه السلام) ؟ قال : نعم - قال : وهؤلاء اصحابك المؤمنون مشبوتون معك قبل ان يخلقوا ؟ قال : نعم - قال : فما شأنك .. « اقول يعني به ثبوت النبوة في علم الله وفي الايمان به من النبيين اجمع قبل ان يُخلق ويبعث ، فعلى هذه السابقة الشريفة المنقطعة النظير فما شأنك ... وقد بحثنا عن نبوته قبل رسالته في « الضحى » نبوة ونبوة غير ظاهرة الرسالة ، لم يؤمر بها قبل الاربعين كما لم يوح اليه القرآن قبله .

فقد « كان يومئذ نبياً حجة لله غير مرسل »^(١) حيث تنبأ بنباء الوحي ولما ارسل بكتاب ، وما كلامه عن كتابه ووصيته بالصلاة والزكاة ما دام حياً وبراً بوالديه ، إلا انباءً لمستقبل أمره ، فكتابه الرسالي هو منذ كهولته ، وصلاته وزكاته وبره منذ بلوغه او غلمته واما عبوديته لله فمنذ ولادته .

ولو كان رسولاً حجة على الخلق اجمعين منذ تكلمه في المهد لكان حجة على زكريا ويحيى ، وانما « كان في تلك الحال آية لله ورحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك الحال »^(٢) دون الخلق اجمعين فضلاً عن زكريا ويحيى !

وهذه الكرامة الالهية للمسيح تفسح مجالاً لتصديق كرامات اخرى لآخرين من اوليائه الصالحين كما للبعض من أئمتنا المعصومين في مظاهر أمرهم^(٣) وان كان كلهم اصحاب هذه الكرامات منذ ولادتهم !

(١ - ٢) المصدر ٣٣٣ ح ٦٦ في اصول الكافي بإسناده الى ابي جعفر الكتاسي قال : سألت ابا جعفر (عليه السلام) اكان عيسى بن مريم حين يكلم في المهد حجة الله على اهل زمانه ؟ فقال : كان يومئذ نبياً حجة لله غير مرسل اما تسمع لقوله حين قال : ابي عبد الله اتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً قلت : فكان يومئذ حجة الله على زكريا في تلك الحال وهو في المهد ؟ فقال : كان عيسى في تلك الحال آية لله ورحمة من الله لمريم حين يكلم فعبر عنها وكان نبياً حجة على من سمع كلامه في تلك الحال ، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سستان وكان زكريا الحجة لله عز وجل بعد صمت عيسى بستين ثم مات زكريا فورثه ابنه يحيى الكتاب والحكمة وهو صبي صغير اما تسمع لقوله عز وجل « يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً » فلما بلغ سبع سنين تكلم بالنبوة والرسالة حين اوحى الله اليه فكان عيسى الحجة على يحيى وعلى الناس اجمعين وليس تبقى الارض يا ابا خالد يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ يوم خلق الله آدم (عليه السلام) واسكنه الارض .

(٣) نور الثقلين ٣ : ٣٣٤ ح ٦٧ - عن اصول الكافي عن صفوان بن يحيى قال قلت

سورة مريم / آية ٣٧ - ٣٢٣

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ (٣٧).

اختلفوا في كل من هذه البنود الثمانية، في - ١ - عبوديته - ٢ - وكتابه - ٣ - ونبوته - ٤ - وبركته - ٥ - وصلاته وزكاته - ٦ - وبره بوالدته - ٧ - وان لم يكن جباراً شقيماً - ٨ - والسلام عليه .

ففي كونه عبداً وهو أهم كونه اختلفوا من بينهم بين مثلثين^(١) ومريميين ثنوية^(٢) او مثلثين^(٣) ومؤلهي المسيح كآله واحد^(٤)، غصاً عن الروحية الله وموحدتين حقيقيين وقليل ما هم^(٥) وكما اختلفوا في ولادته وحياته وموته ، وفي كتابه وشريعته أما ذا من كيانه وامه !

= للرضا (عليه السلام) قد كنا نسألك قبل ان يهب الله لك ابا جعفر فكنت تقول : يهب الله لي غلاماً ، فقد وهب الله لك فقصر عيوننا فلا ارانا الله . يومك فان كان كون فالى متى ؟ فاشار بيده الى ابي جعفر (عليه السلام) وهو قائم بين يديه فقلت : جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين ! قال : وما يضره من ذلك شيء قد قام عيسى (عليه السلام) بالحجة وهو ابن ثلاث سنين وفي نقل آخر عنه (عليه السلام) : ان الله تبارك وتعالى بعث عيسى ابن مريم رسولاً نبياً صاحب شريعة مبتدأة في اصغر من السن الذي فيه ابو جعفر (عليه السلام) .

اقول : الرسالة الفعلية للمسيح (عليه السلام) منذ ثلاث من عمره لا يصدقها تاريخ رسالته ولا القرآن ، بل وه كهلاً » في آيته لعله يعارضها ، اضافة الى الحديث السابق حيث بدء رسالته من السبع ، فلا يصدق من هذه الروايات الا ما يصدق القرآن او لا يكذبه والله اعلم .

(١) « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فامضوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم انما الله اله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السماوات وما في الارض وكفى بالله وكيلاً » (٤ : ٢٧١) .

(٢) « واذ قال الله يا عيسى بن مريم اننت قلت للناس اتخذوني واممي إتخين من دون الله ... » (٥ : ١١٦) .

« فويل للذين كفروا » عن القول الحق في المسيح (عليه السلام) « من مشهد يوم عظيم » أوله يوم الرجعة حيث ينزل المسيح (عليه السلام) وثانيه يوم الموت ، وثالثه يوم القيامة وهي ايام الله وان كان الاخير اعظمها !:-
(٣٨)
﴿ اسمع بهم وابصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾ .

« يوم يأتوننا » فرادى و « يوم يأتوننا » جماعات يومي الموت والقيامة الكبرى « اسمع بهم وأبصر » : ما أسمعهم وأبصرهم بالحق فيهما بعدما عاشوا صماً وبكماً في الظلمات يوم الدنيا ، فلا ينفعهم ما يسمعون من الحق وما يبصرون إذ قضى الأمر ولات حين مناص ، فليقولوا حاسرين « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » (٣٢ : ١٢) « لكن الظالمون » اذ ظلموا في صممهم وعماهم عامدين « اليوم في ضلال مبين » في ضلال هناك نتيجة ضلالهم هنا ، عن رحمة الله ، فقد تناسوا في اليوم الأول غده ثم ليس لليوم الآخر غد يقدمون له ! .

ثم الحق الذي يسمعونه ويبصرون هو كل الحق ، ما تركوه وكذبوا به ، وما خلفه تكذيبهم ، حيث السمع والبصر هنالك حديد : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٥٠ : ٣٢) .

= (٣) في اللاهوت العقائدي ج ٢ ض ١٠٨ المؤلفه لوديغ اوث « ان مريم هي حقاً ام الله تقول الكنيسة في قانون الرسل بان ابن الله ولد من مريم العذراء فهي ام الله من حيث هي ام ابن الله .

(٤) « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم . . » (٥ : ٧٢) « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » (٥ : ٧٣) .

(٥) هم الثلثان من اعضاء نيقية الموحدون حيث اضطهدوا بالثلاث غير الموحدين وباتي تفصيله بطيات آياته .

وقد يشمل « اسمع بهم وابصر » امر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كشهيد الشهداء أن يجعل سائر أهل الحشر يسمعون ويبصرون^(١) حالة هولاء الظالمين النكدة ، إذا فـ « اسمع » جامعة هنا بين الأمر وأفعل التعجب ، ولا يعني العجاب هنا إلا أنه موضعه لمن يعجب دون الله سبحانه فانه ليس ليعجب ! .

﴿ وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون^(٣٩) ﴾ .

« يوم الحسرة » هو يوما الموت والقيامة الكبرى حسرة على الظالمين : « ان تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله » (٣٩ : ٥٦) « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » (٢ : ١٦٧) « حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » (٦ : ٣١) لذلك فهو لهم « يوم الحسرة اذ قضى الامر » أمر التكليف وبجال التوبة عما اترفوا فيه ، فلا حسرة عما مضى إن كان هنالك انجبار يصلح ما يأتي .

وقد يعني يوم الحسرة هنا فقط يوم الموت « وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » حيث البرزخ ليس يوم الغفلة ولا يوم الايمان حتى يُنذروا بعدم الايمان ، اللهم الا لمن يجمع يوميه ظالماً وهو الذي يموت بالنفخة الاولى ويحى بالثانية وهم قلة قليلة امام جمع الظالمين المحشورين ، فمهما كان يوم القيامة الكبرى هو يوم الحسرة الكبرى ولكن « وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » يختصه هنا بالقيامة الصغرى ، اللهم إلا ان يعتبر اليومان واحداً هما « يوم الحسرة قضى الامر » فـ « هم في غفلة وهم لا يؤمنون » يعني بداية يوم الحسرة وهو القيامة الصغرى ، وقد يعني « اذ قضى الامر » - فيما يعني - قضاء امر الموت^(٢)

(١) و« بهم » اعتباراً بأفعل التعجب دون الأمر فانه متعد بنفسه .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٧١ - اخرج سعيد بن منصور واحمد وعبد بن حميد والبخاري =

لأهل الجنة تماماً ، ولاهل النار ما داموا هم في النار .

﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾^(٤٠).

تأكيدات اربع « ان - نا - نحن - نرث » تدليلاً صارماً على وراثة الأرض ومن عليها لله الواحد القهار ، ومن ثم « وإلينا يرجعون » .

انه لا وارث لله من ولد يتخذه مسيحاً ام سواء ، بل هو الوارث للأرض

= ومسلم والترمذي والنسائي وابو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار يجاء بالموت كأنه كبش املح فيوقف بين الجنة والنار فيقال : يا اهل الجنة ! هل تعرفون هذا ؟ فيشرفون وينظرون ويقولون : نعم هذا الموت وكلهم قد رآه ثم يقال يا اهل النار هل تعرفون هذا فيشرفون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه فيؤمر به فيذبح فيقال يا اهل الجنة خلود فلا موت ويا اهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم في غفلة » وأشار بيده وقال : اهل الدنيا في غفلة « وفي تفسير القمي ابو ولاد الخناط عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سئل عن قوله « وأنذرهم يوم الحسرة » قال : - وذكر مثله الى قوله : ثم يقال : يا اهل الجنة خلود فلا موت ابداً ويا اهل النار خلود فلا موت ابداً وهو قوله عز وجل : « وأنذرهم يوم الحسرة اذ قضى الامر وهم في غفلة » اي : قضى على اهل الجنة بالخلود فيها وقضى على اهل النار بالخلود فيها .

اقول : يختلف الخلودان والأبدان في الخلودين في الحديثين ، فالخالدون في الجنة لا يموتون ابداً فانها « عطاء غير مجذوذ » والخالدون في النار منهم من يخرج الى الجنة فلا يموت كسائر اهل الجنة ، ومنهم من يظل في النار ما دامت النار فلا موت اذاً في النار ، واما الفناء بفناء النار فلا ينافي الخلود ولا أبده في النار ، فأبد الخلود في النار يقدر بقدر ابد النار كما الجنة بالجنة - راجع ج ٣٠ تفسير قوله تعالى « لا يثن فيها احقاباً » وسورة الاسراء من هذا التفسير ففيه بحث فصل حول الخالدين في النار .

ومن عليها مسيحاً وسواه . لقد ملكنا ربنا أنفسنا والأرض محنة التكامل
 بالإختيار ومهنته بما هبانا من وسائل واسباب ، ملكاً عرضياً مؤقتاً لذلك
 الهدف الاسمى ، دون ملك حقيقي فانه لزام ربوبيته دون انتقال ، ثم الله
 ينشيء النشأة الاخرى حيث تزول هذه الملكية العرضية فهو الوارث لما ملكه
 من « الأرض ومن عليها » فانهم « إلينا يرجعون » فلا يملكون لأنفسهم نفعا
 ولا ضرراً إلا ما قدموه يوم الدنيا « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » (٤٠ :
 ١٦) فهم منذ موتهم حتى الابد معزولون عما ملكوا يوم الدنيا « وإنا لنحن
 نحى ونميت ونحن الوارثون » (١٥ : ٢٣) « والله ميراث السماوات والأرض
 والله بما تعملون خبير » (٣ : ١٨٠) !

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ
 إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
 مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ يَا أَبَتِ
 إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
 سَوِيًّا ۖ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ
 كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۖ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ
 عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۖ قَالَ
 أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

وَأَهْرُوتِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي
 إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾
 فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا
 وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

مركز تحقيق كتاب تواتر علوم اسلامی

﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ .

نجد « ابراهيم » عليه السلام ٦٩ مرة في الذكر الحكيم ، وأصله العبراني
 أبراهام - او - أب رام ، يعني : ابا جماعة كثيرة ، وكما في التوراة: التكوين
 ١٧ : ٢٠

« وَلِإِسْمَاعِيلَ إِسْمَاعِيلَ هَبْنِي بَرِّخْتِي اوتو وَهَبْنِي اوتو وَهَبْنِي اوتو
 بِمُتَدَمِّدٍ شَنِيمٍ عَاسَارٍ نَسِيْثِيْمٍ يُوْلَدُ وَنَتِيْوِلْغُوِي غَاذِلْ » .

« ولإسماعيل سمعته (ابراهيم) ها انا أباركه كثيراً وأثميه وأثمره كثيراً
 وارفع مقامه كثيراً بمحمد واثني عشر إماماً يلداهم اسماعيل واجعله أمة
 كبيرة^(١) .

(١) راجع كتابنا رسول الاسلام في الكتب السماوية .

« انه كان صديقاً » : كثير الصدق ومبالغه في تطابق حاله وأقواله وافعاله في حلّه وترحاله « نبياً » : رفيع المنزلة بين الصديقين فانهم بين « الذين آمنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم . . » (٥٧ : ١٩) ثم معصوم لا رسول ولا خليفة رسول كمریم (عليها السلام) : « وامه صديقه » (٥ : ٧٥) ثم خلفاء الرسل المعصومين « ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٤ : ٦٩) ثم الرسل « واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً » (١٩ : ٥٦) و« يوسف ايها الصديق . . » (١٢ : ٤٦) فإبراهيم نبي : رفيع المنزلة بين الصديقين الرسل فضلاً عن سواهم ، وقد يكفي « نبياً » تدليلاً على رفعة بين الرسل ، إلا ان صديقاً يضيف اليه نبوة بين الصديقين الرسل فضلاً عن سواهم ، ومن نبوته الصديق حوار الصارم مع أبيه حيث لم يجرفه جوار الربوة والتربية الشوكية ، فلم يزلزله عن موقفه الصارم في التوحيد ودعوته .

﴿ إذ قال لأبيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ (٤٢).

أبوه هذا ليس الأب الوالد ، بل هو عمّه أم جد لأمه ، فكان يربيه كأب منذ طفولته إذ مات والده ، وهنا يوبخه باحترام ودونما احترام : « يا ابت »^(١) ! سائلاً عنه السبب لعبادته الاوثان من دون الله ، وأقله أن تسمع او تبصر ، ومن ثم تغني وتكفي عنه شيئاً ، وأكثره أن يكون الخالق الكامل

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٢ - اخرج ابو نعيم والديلمي عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : حق الوالد على ولده ألا يسميه الا بما سمي ابراهيم اباء : يا ابت - ولا يسميه باسمه - اقول هذا لا يدل على ان اباء كان والده حيث الاحترام للوالد ومن هو بمنزلة كالعم والجد .

٣٣٠ الجزء السادس عشر

الكافل لكل ما يحتاجه عبده ، ولا تملك الأوثان كثيراً ولا قليلاً مما يسبب عبودتها ، والرب يكون مع عبده يراعيه : « إني معكما اسمع وارى »
« ان معي ربي سيهدين » .

﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً
سويّاً ﴾ (٤٣) .

إنه لا بد للجاهل متابعة العالم ولا سيما الذي جاءه من العلم ما جاء
ابراهيم من علم الملكوت وحياً إضافة الى علمه الفطري الناضج وآزر يحرم
العلمين قصوراً عامداً وتقصيراً ! .

وليست الهداية الى صراط سوي دوماً عرج ولا حرج ولا عوج إلا على
ضوء علم يأتي الإنسان من الله « جاءني من العلم ما لم يأتك » حيث العلم
الداخل من فطرة وعقل ، أو مكتسب كما الداخل من غير الله ، هذا العلم
ليس معصوماً عن خطأ مهما أصاب ، فلا يصيب الصراط السوي الا على
ضوء العلم الخارج وهياً ! .

﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصباً ﴾ (٤٤) يا أبت إني
أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ (٤٥) .

أترى بعد ما يندد به لأنه يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، كيف ينهاء
هنا عن عبادة الشيطان واسمع به وابصر ؟ ! وان كان لا يغني عنه شيئاً ؟ علّه
لا يعني من عبادة الشيطان اتخاذه معبوداً كما الله ، وإنما طاعته المطلقة كأنه
معبود « ألم اعهد اليكم يا بني آدم الا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين »
(٣٦ : ٦٠) .

فما لم تكن هنا طاعة مطلقة للشيطان فكيف يتبع فيما ليس له من سلطان
ان تعبد من دون الله اوثان لا تسمع ولا تبصر ولا تعني شيئاً ؟ فلو ان

الشیطان كان مطيعاً للرحمان لم تحقق له العبادة ومطلق الطاعة ، كيف وقد « كان للرحمن عصياً » فالرحمن الذي منه الرحمة العامة لكل كائن كيف يترك إلى الشیطان وهو عصيُّ الرحمان ، يبذل رحمته نقمة وهداه ضلالاً .

وترى اذا كان أبوه يعبد الشیطان فكيف يخاف عليه أن يمسه عذاب من الرحمن فيكون ولياً للشیطان ، ومس العذاب وولاية الشیطان لزمان لمن يعبد الشیطان ؟ والخوف يلمح بتردد راجح ! .

في « اني أخاف » لمحة أن ابراهيم (عليه السلام) لما يعرف حتى الآن أن اباه عدو للرحمن ، فكأنه مستضعف جاهل او يحتمله ، كما وأن « فتكون للشیطان ولياً » لمحة اخرى تؤيدها أنه لم يكن يعلم آنذاك ولايته المعتمدة المعاندة الحق للشیطان ، ومن ثم « واهجرني ملياً » أيدت تلك الللمحة فاعذرت ابراهيم في وعد الاستغفار وتحقيقه ! .

ثم الإنسان ولي لمن والاه في الاخرى كما الاولى والله الآخرة والاولى .

وهذه الدعوة اللطيفة الحفيفة بقاطع البرهان وأرق الالفاظ وأدقها لم تكن لتصل الى قلب خاوي هاوٍ فاذا بأزر في عريضة نكراء وطنطنة غوغاء .

﴿ قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً ﴾ (٤٦) .

فلم يكن لولي الشیطان جواب إلا سؤال التنديد الشديد : « أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ رغبة عما أعبدته وأنا ابوك وهي آلهتي » لئن لم تنته « نحن هذه الرغبة المعارضة « لأرجنك » اذ كان الرجم شر عذاب : « ولولا رمطك لرجنك » (١١ : ٩١) « لئن لم تنتهوا لرجنكم ولیمسنكم فاعذاب الیم » (٣٦ : ١٨) « واهجرني ملياً » فاعزب عن محاورتي واغرب عن مواجهتي طويلاً ! فالتملي بشيء هو التمتع به بملاوة من دهر ، وهناك

شع له الرجاء بعد الخوف والعناء كأن أباه يتمهل بالهجر الملى ان يفكر ملياً
 عليه يخرج عن غيّه، وذلك تمهلٌ وشك مقدس ام الى قداسة ولذلك يسلم
 عليه إبراهيم ويعدده الاستغفار اذ:

﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيّاً ﴾ (٤٧).

هناك يسلم عليه ويعدده الاستغفار ولما ، ولماذا السلام على المشرک ووعده
 الإستغفار ؟ وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشريكن ولو كانوا
 أولى قربي من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ! -

الجواب - « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما
 تبين أنه عدو لله تبرء منه . . » (١١٣: ٩) « فلما تبين » هنا تبين أنه استغفر
 له قبل التبين فـ « عن موعدة وعدها اياه » لا تعني إلا موعدة آزر لابراهيم
 حيث ترجى فيها هداه ، فلم يتبين له أنه عدو لله رغم ما تقدم من عداه ،
 ولا مجال لتفهم هذه الموعدة في القرآن إلا « واهجرني ملياً » فلو انه كان مصراً
 في عداه لكان يرجه او يلزمه . كيلا ينشر دعوته ضد الآلهة ، اذاً « واهجرني
 ملياً » تمتعاً بملاوة من الدهر ، يرجيه بموعدة التفكير ملياً عليه يهتدي ، ام
 يقول كلمته الاخيرة بعد ملي التفكير، لذلك يسلم عليه إخباراً أنه سوف لا
 يرى منه سوء ، ودعاء ان الله يوفقه في هجره الملى لهداه ، ثم يعدده الإستغفار
 موعدة عن موعدة فاستغفر له بعد ملي لم ير منه ما كان يسمعه ويراه من
 عداه : « واغفر لأبي إنه كان من الضالين » (٢٦ : ٨٦) فـ « كان » هنا
 تضرب الى ماضي حاله ، وأما حاله ومنذ موعده « واهجرني ملياً » فلم تتبين
 له أنها استمرارية ضلاله ، ولذلك يستغفر له « فلما تبين أنه عدو لله تبرء منه »
 فلم يعد يستغفر لأبيه وإن استغفر لوالديه في نهاية أمره وخاتمة عمره عند
 بناء البيت ، « ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (١٤ :
 ٤١) فلو أن والده ابوه لأصبح كلام الله « تبرء منه » كذباً ، واصبح ابراهيم
 رسول الله عاصياً اذ « لم يتبرء منه » !

إذا قابوه - هنا - لم يكن والده ، ولم يستغفر لآبيه إلا عن موعدة لم يتبين فيها أنه عدو لله فساحته إذاً براء عن الاستغفار للمشارك على تبين عداه ، فانما لا يجوز الاستغفار لمن تبين أنه عدو لله فهو من اصحاب الجحيم ، دون المشكوك هداه وعداه .

إذا فالاستغفار جائز لمن يجوز له ان يُغفر وان كانت حالته الحاضرة كافرة لا تُغفر اذ يجوز تحوله في مستقبل قبل ان يأخذه الاجل فيجوز له ان يغفر . واما الذي تبين أنه من اصحاب الجحيم ، اذ مات مشركاً فلا يستغفر له ، لأنه تحميل على الله ما ليس ليقبله او هزاء به ! .

« سأستغفر لك ربي » اذ وعدتني في هجري الملى خيراً ولـ « انه كان بي حفيماً » : برأ لطيفاً ، فالخفاوة الربانية تقتضي غفرك بما أستغفر لك ، وهي لا تقتضي غفراً لاصحاب الجحيم ! .

فقد كان ابراهيم معذوراً في استغفاره لآبيه خطأ في موضوعه لا في حكمه وموضعه ، فلم تكن الأسوة الحسنة فيه تشمل خطاه : « قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه . . . إلا قول إبراهيم لآبيه لا تستغفرن لك . . . » (٦٠ : ٤) .

وترى السلام على المشارك هل يجوز حال شركه مهما جاز الاستغفار له قبل أن يتبين كونه من اصحاب الجحيم ؟ .

« سلام عليك » قد يعني الاخبار أن لا يصلك مني إلا سلام عدل ام فضل دونما ظلم ولا نقير ، وهكذا سلام واجب كل مؤمن وجاء الآخرين أياً كانوا ، مقالاً وحالاً وأفعالاً .

وقد يعني الدعاء ان يسلمك الله وينزل عليك رحمته السلام ، وهذا لا يحق إلا لمن يستحق سلاماً من الله من مسلم لله آمن هو في سبيل الإسلام او

مشكوكة حاله « والسلام على من اتبع الهدى » (٢٠ : ٤٧) واما المقطوع انقطاعه عن الله ، الشريد عن الله ، والطريد عن رحمة الله ، فلا يستحق سلاماً كما الاستغفار .

وكما جاز وعد الإستغفار لأبيه اذ لم يتبين له أنه عدو لله ، كذلك السلام ولا سيما في مواجهة الدعوة الى الله ، حيث تجلب المدعو بحنانه الى الله ، وحتى إذا تبين أنه عدو لله ، فسلام عليك بمعنى الاخبار لا محذور فيه ! « وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » (٤٣ : ٨٩) « سلام عليكم لا نبغي الجاهلين » (٢٨ : ٥٥) « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » (٢٥ : ٦٣) .

إذا فسلام الاخبار عام لا محذور فيه ، وسلام الدعاء يخص غير من تبين انه من أصحاب الجحيم ، كدعاء الهداية والاستغفار ، مهما كان في حاضره من الكفار .

والقول ان جواز السلام على الكفار لعله شرعة ابراهيمية ليست في الإسلام كما وعديد من الاحاديث تمنعه ، جوابه انه لم ينسخه القرآن . بل وايده : « وقل سلام - سلام عليكم - قالوا سلاماً » وهذه الاحاديث مطروحة بمخالفة القرآن ، او مؤولة الى سلام الدعاء ، المحذور على من تبين انه من اصحاب الجحيم ، دون سلام الاخبار ، والسلام ! .

﴿ وأعتزلکم وما تدعون من دون الله وأدعو ربی عسی ألا أكون بدعاء ربی شقیاً ﴾ (٤٨) .

وترى كيف يعتزل صاحب الدعوة الرسالية مرسلًا إليهم ويدعو ربه بعيداً عنهم ؟ إنه اعتزال عنهم وما يدعون من دون الله ! فاذا يهدده المرسل اليه « لأرجنك » وفي إمكانه رجه ، ثم يطلب اليه هجره ملياً في لحظة إهماله عله

يفكر ويرجع عن غيه ، وإلا فليعيش في جَوْ الإشراك بالله دونما فائدة إلا ظلامه القرب من الاوثان، فالاعتزال اذاً واجب أوراجح ذو أبعاد ثلاثة ، وفيه « ادعوري » وعله يخفف عن وطأة الشرك في أبيه أو يهديه « عسى ألا اكون بدعاء ربي شقياً » هجر ملي ودعاء غير شقي ورب حفي وهنالك تتم وهبة الرحمة الربانية بلسان صدق علي فـ « رحم الله عبداً طلب من الله عز وجل حاجة فآلح في الدعاء استجيب له اولم يستجب . . »^(١) .

﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلًّا جعلنا نبياً^(٢) » ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً^(٣) » .

اترى إن اسحاق هو بكر مواليد إبراهيم فيفرد بذكره هنا ؟ ام هو اسماعيل كما يتقدم عليه فيما يذكران^(٤) ؟ بكره هو اسماعيل لتقدمه حيث يذكران ، وقد يفرد بذكر اسحاق حيث المقام مقامه والانبياء الإسرائيليين^(٥) وهنا كامثاله يقتصر على ذكره حيث الهدف ذكر توالي النبوة في الشجرة الإسرائيلية ولذلك يعقبه ويعقوب ابته دون اسماعيل اخيه ، كما قد يذكر اسماعيل وحده دون اسحاق (عليه السلام)^(٦) حيث المقام يخصه دونه ، وحين

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٣٩ ح ٨٦ في اصول الكافي عن ابن قساح عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : . . . وتلا هذه الآية .

(٢) « الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق » (١٤ : ٣٩) « ام تقولون ان ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً او نصارى » (٢ : ١٤) و ٨٤ : ٤ و ١٦٣ : ٢ و ١٣٣ : ١٣٦ .

(٣) « كما اتمها على ابويك من قبل ابراهيم واسحاق » (١٢ : ٦) « واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب » (١٢ : ٣٨) ولا مجال هنا لذكر اسماعيل اذ ليس ابا يوسف وإنما عمه .

(٤) « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل » (٢ : ١٢٧) « واذكر في الكتاب »

يجتمعان يتقدمه اسماعيل دونما استثناء ! وفي التوراة تصديق ان اسماعيل بكر ولده^(١).

« وكلاً » من إسحاق ويعقوب « جعلنا نبياً » رسولاً رفيع المنزلة بين الرسل « ووهبنا لهم » ابراهيم واسحاق ويعقوب « من رحمتنا » من طيبة الولادة والعلم والعمل الصالح ، رحمت متصلة بهم ومنفصلة عنهم ، ومن الثانية « وجعلنا لهم لسان صدق علياً » وهو إجابة لدعوته : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » (٢٦ : ٨٤) وما الآخرون في البيئة الرسالية الصادقة إلا محمد وعترته المعصومون (عليهم السلام) فهم إذا لسان صدقه العلي !

هنا وان لم يذكر اسماعيل (عليه السلام) إذ لم يكن المقام محله ، فقد ذكر عالياً في لمحة « وجعلنا لهم لسان صدق علياً » حيث الآخرون هم من نسل إسماعيل وهم لسان صدق لهم عليٌ ينطق بالرسالة الصادقة والولاية الفائقة ما لم يسبق له مثيل .

ولسان صدق من اضافة اللسان الى أفضل حالاته وأشرف متصرفاته ، وعلّ اللسان هنا لسانان : لسانهم الرسالي لأعظمهم ، المبشر بلسان صدق في الآخرين كما بشروا في كتاباتهم بالرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) - ولسان آخر منفصل عنهم يصدقهم فيها أرسلوا وبشروا وهو محمد خاتم النبيين ، لولا لسانه الصدق عنهم ، المصدق لهم لما صدقنا رسالاتهم « ما كان محمد أباً احد

= اسماعيل انه كان صادق الوعد « (١٩ : ٥٤) » واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الاخيار « (٣٨ : ٤٨) » واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين « (٢١ : ٨٥) ».

(١) تكوين المخلوقات الاصحاح ١٦ - الآيات ١ - ٦ ومنها قول سارة زوجته « ادخل على جاريتي لعل ارضق منها بنين »^(٢).

من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٣٣ : ٤٠) والخاتم هو المصدق آخر الكتاب ، ومحمد يختم كتاب الرسالات ختاماً وتصديقاً « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه . . . » (٣ : ٨١) .

فهم - ابراهيم - اسحاق - يعقوب - لسان صدق علي ، وهم في الآخرين لسان صدق علي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي وعترتها المعصومون وهم أعلى ! فاين نبي من نبي وولي من ولي وعلي من علي ؟ .

وقد يعني « ووهبنا لهم من رحمتنا » - في أهم ما يعنيه - أهل بيت الرسالة المحمدية ، كما وأنهم لسان صدق علي^(١) « لسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله ويورثه »^(٢) أو « يورثه من لا يحمده »^(٣) ! .

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم اسلامی

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٣٩ في تفسير القمي « ووهبنا لهم من رحمتنا » يعني لابراهيم واسحاق ويعقوب « من رحمتنا » : رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) « وجعلنا لهم لسان صدق عليا » يعني امير المؤمنين . حدثني بذلك ابي عن الحسن بن علي العسكري (عليه السلام) .

اقول : يعني امير المؤمنين تفسير بمصداق مختلف فيه ليلحق بالمصداق المتفق عليه وهو الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(٢) المصدر ح ٨٨ في اصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السلام) .

(٣) في نهج البلاغة قال (عليه السلام) : ان اللسان الصالح يجعله الله للمرء في الناس خيره من المال يورثه من لا يحمده .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ

مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَيْنَهُ
مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ
رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ
إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ
أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾
وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾
وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ﴾ (٥١)

المخلص - فتحاً - هو الذي أخلصه الله بعدما أخلص هو نفسه فاصبح
مخلصاً لله ، عصمة إلهية تجعل العصمة البشرية بالغة المدى لحد ينتج
لرسالة ونبوة إلهية ، و «رسولاً نبياً» مر بيانه وسطع برهانه .

«وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجياً» (٥٢)

« الايمن » هنا كما في « واعدناكم جانب الطور الايمن » (٢٠ : ٨٠) صفة
تفضيل لجانب ، يعني الجانب الايمن من الطور لا اليسار ولا اليمين ، وليس
صفة للطور حيث الايمن في طه منصوب لا يناسب صفة للطور ، وانه لم

يوصف في ثمان أخرى^(١) بالايمن ! ولان الوحي يمن ويمين فمننا داته جانب
الايمن مكاناً كما هو الايمن مكانة ! افضل اليمن واليمين .

ثم و « من » تقرر منفذ الوحي اليه في كلام يسمع فليكن في مكان كما
الموحى اليه في مكان ، مهما لم يكن للموحي المنادي مكان ولا زمان ، حيث
يخلق الكلام كما يخلق سائر الخلق ، ولكنه كلام خارق سنة الكلام في لفظه
ومعناه حيث هما من الله دون مكلّم بشري أو ملائكي أمن ذا ؟

فكما الله خلق المسيح دون أب ، وخلق آدم دون ابوين ، كذلك الكلام
الذي كلّم به كلمه خلقه دون لسان وشفه ومخرج صوت .

﴿ وقربناه نجياً ﴾ ..

« نجياً » حال من المقرب وحال من المتقرب وعلى أية حال يعني النجوى
كما يعني النجاة : « فلما استياسوا منه خلصوا نجياً » (١٢ : ٨٠)
اللهم إلا نجاة الله إذ لا يخاف حتى ينجو ، فقد قربه « نجياً » هو عمن يبعده او
يشغله من اهله ، وعمن يتربص به دائرة السوء كال فرعون ، ومن ثم
« نجيا » في نجواه إليه وحياً ، ونجوى موسى الى ربه وقد يجمعها « وما تلك
بيمينك يا موسى . قال هي عصاي اتوكأ عليها واهش بها على غنمي ولي
فيها مآرب أخرى » (٣٠ : ١٨) .

ف « نجياً » هذا يجمع بين شرطي ذلك القرب ، سلباً في نجى النجاة
عمن سوى الله ، وإيجاباً في نجى النجوى مع الله ، وقد يشير الى نجاته « فاخلع
نعليك إنك بالواد المقدس طوى » - والى نجواه : « وأنا اخترتك فاستمع لما
يوحى » (٢٠ : ١٢) ! .

(١) هي ٢ : ٦٢ و ٩٣ و ٤ : ١٥٤ و ٢٨ : ٢٩ و ٤٦ و ٥٢ : ١ ، وقد وصف مرة بسيناء

٢٣ : ٢٠ وأخرى بسنين ٩٥ : ٢ .

وهل هناك نجيّ النجوى دون من اليه يوحى ؟ أجل وقد يكون اجل واجلى من بعض الرسل كائمة الهدى^(١) حيث النجوى تعم الوحي والإلهام بمراتبهما ، فوحي النبوة يخص الأنبياء ، وإذا ختم الوحي بختم النبوة فإلهام قد يكون أرقى من بعض الوحي كما كان يلهم الى أئمة الهدى ! .

﴿ ووهبنا له من رحمتنا اخاه هارون نبياً ﴾^(٥٣) .

هارون ! يا له من وهبة رحيمية ربانية لبلاغ الرسالة الموسوية « نبياً » : رسولاً رفيع المنزلة هبة باستدعائه واستعداداه « واجعل لي وزيراً من أهلي .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٤٠ ج ٩٢ في بصائر الدرجات عن محمد بن مسلم قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) ان سلمة بن كهيل يروي في علي أشياء قال : ما هي ؟ قلت : حدثني ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان محاضراً أهل الطائف وانه خلل بعلي يوماً فقال رجل من اصحابه : عجباً لما نحن فيه من الشدة وانه يناجي هذا الغلام مثل اليوم ؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما انا بمناج له انما يناجي ربه فقال ابو عبد الله (عليه السلام) : هذه اشياء يعرف بعضها من بعض اقول : يعني (عليه السلام) ان هذه النجوى نعم أئمة الهدى (عليهم السلام) وفيه ح ٩٤ باسناده الى ابي رافع قال : لما دعا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) يوم خبير فتفضل في عينيه ثم قال له : اذا انت فتحتها فقف بين الناس فان الله امرني بذلك قال ابو رافع فمضى علي (عليه السلام) وانا معه فلما اصبحت بخبير وقف بين الناس واطال السوقوف فقال الناس : ان علياً يناجي ربه ، فلما مكث امر بانتهاب المدينة التي افتتحها قال ابو رافع فأتيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت : ان علياً وقف بين الناس كما امرته فقال قوم : الله ناجاه ؟ فقال : نعم يا ابا رافع ، ان الله ناجاه يوم الطائف ويوم عقبة تبوك ويوم خبير .

وفي رواية علي بن اعين عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في قصة الطائف . . فسمعنا صرير الرحا فقبل ما هذا يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! قال : ان الله يناجي علياً اقول واذا يناجيه في حياة الرسول فباحرى ان يناجيه بعد وفاته وهو وحده الرابط بينه وبين خلقه بالهامات متواصلة .

سورة مريم / آية ٥٣ - ٥٤ ٣٤١

هارون أخي .. قال قد أوتيت سؤلك يا موسى « (٣٦ : ٢٠) !.

﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ (٥٤).

لم يذكر اسماعيل في (١٢) موضعاً يذكر في القرآن ، بمشروح احواله إلا هنا ، إلا شذراً أنه « من الصابرين » (٢١ : ٨٥) « الاخيار » (٣٨ : ٤٨) « وكلأ فضلنا على العالمين » (٦ : ٨٦) .

فمن صبره وخيره « قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » (٣٧ : ١٠٢) كما وهو من صدق وعده ربه ومن ثم مع الخلق^(١) ، وحقيق له صدقه في صبره ، وصبره في صدقه « وكان رسولا نبيا »^(٢) . فاسماعيل هذا هو ابن ابراهيم (عليه السلام) جد الرسول محمد

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٤٢ ح ٩٩ - اصول الكافي عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : انما سمي اسماعيل صادق الوعد لانه وعد رجلاً في مكان فانتظره سنة فسماه الله عز وجل صادق الوعد ثم ان الرجل اتاه بعد ذلك فقال له اسماعيل : ما زلت منتظراً لك ! ورواه مثله في العيون عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) .

اقول : هذا الحديث في ان اسماعيل هو ابن ابراهيم ظاهره كظاهر القرآن ، واما انتظاره سنة فبعيد عن كافة الموازين حيث الوعد لا يتجاوز ساعات او يوماً بكامله ، وزائد الانتظار زائد في كل الموازين ، ولا سيما لرسول نبي يترك دعوة الرسالة فيثبت في مكان الوعد سنة دونما جدوى حتى لمن لا شغل له .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٧٣ - اخرج مسلم عن واثلة ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل واصطفى من ولد اسماعيل كنانة - اقول : كنانة من اجداد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

(صلى الله عليه وآله وسلم) لا سواه وكما في سائر الاثني عشر موضعاً ، فلو كان غيره لم يتفضل عليه بهذه الفضيلة ولقرنت به قرينة تميزه عن اسماعيل في سائر القرآن^(١) ! .

﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً ﴾^(٥٥) .

في مواصفات اسماعيل رسالة النبوة هي في القمة ، وصدق الوعد والأمر باقام الصلاة وايتاء الزكاة هي من اهم فروعها الرسالية ، « وكان عند ربه مرضياً » تكريس لحالاته كلها ، في نفسه وأهله ومن أرسل اليهم والناس اجمعين ، كان في هذه كلها عند ربه مرضياً ، وهي قمة المقامات عند الله مهما كانت لها درجات .

﴿ واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً ﴾^(٥٦) ورفعناه مكان علياً ﴿^(٥٧) .

لم يذكر ادريس في سائر القرآن الا هنا وفي الانبياء : « واسماعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين »^(٨٥) فله مواصفات اربع : صديق نبي من الصابرين ومرفوع الى مكان علي .

تعرفنا من ذي قبل الى « صديق نبي » لإبراهيم ، وان كان بينه وبين ادريس بون حيث الصديق النبي درجات ، ولكنه قبل نوح يحتل المكانة العليا بين المرسلين^(٢) فلم يذكر بالنبوة أحد بين آدم ونوح وحتى آدم نفسه ، اذاً

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٤٢ ح ١٠١ في كتاب علل الشرايع في باب العلة التي من اجلها سمى اسماعيل بن حزقيل صادق الوعد عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال : ان اسماعيل الذي قال الله عز وجل في كتابه « واذكر في الكتاب اسماعيل . . » لم يكن اسماعيل بن ابراهيم بل كان نبياً من الانبياء بعثه الله عز وجل الى قومه فاخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه . . اقول وهو لا يناسب ظاهر القرآن . .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٧٤ - اخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفع الحديث الى =

فادريس افضل من آدم ومن بعده الى نوح .

ثم « ورفعناه مكاناً علياً » دليل معراجہ (عليه السلام) لمكان « مكاناً » دون مكانة ، وقد عُرِفَتْ مكانته بـ « صديقاً نبياً » وقد يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) انه السماء الرابعة^(١) رفع اليها كما رفع عيسى (عليه السلام) ويروى أنه كان خياطاً^(٢) .

واذ يرفع ادريس مكاناً علياً فقد رفع محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) مكاناً اعلى الى سلرة المنتهى ، ومكانة أغلى « ثم دفن فتدلى . فكان قاب

= النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ان ادريس كان نبياً تقياً زكياً وكان يقسم دهره على نصفين : ثلاثة ايام يعلم الناس الخير واربعة ايام يسيح في الارض ويعبد الله مجتهداً وكان يصعد من عمله وحده الى السماء من الخير مثل ما يصعد من جميع اعمال بني آدم . . . وتتمه الحديث طويلاً وكما هنا احاديث اخرى فيها ما لا يناسب ساحة النبوة الصديقة .

(١) المصدر اخرج ابن مردويه عن ابي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورفعناه مكاناً علياً قال : في السماء الرابعة وعن انس بن مالك عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مثله وفي نور الثقلين ٣ : ٣٤٩ ح ١٠٨ عن علل الشرايع باسناده الى عبد الله بن يزيد بن سلام انه قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد سألته عن الايام : فالخميس ؟ قال : هو يوم خامس من الدنيا وهو يوم انيس لعن فيه ابليس ورفع فيه ادريس ، وفيه عن تفسير القمي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في معراجہ : ثم صعدنا الى السماء الرابعة واذا فيها رجل فقلت من هذا يا جبرئيل ؟ فقال : ادريس رفعه الله مكاناً علياً فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي .

(٢) نور الثقلين ح ١١٠ عن الكافي عن عبد الله بن ابان عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال في حديث طويل يذكر فيه مسجد السهلة : اما علمت انه موضع بيت ادريس النبي (عليه السلام) الذي كان يخيط فيه ؟ .

قوسين او أدنى » وكما رفع ذكره في الملاء الأعلى : « ورفعنا لك ذكرك » وكما يذكر ادريس الصديق في كتابه بلغته السريانية هذه المكانة العليا لأهل بيت الرسالة المحمدية (صلى الله عليه وآله وسلم) :

يقول بعد عرض عريض في حوار بين آدم وبينه حول « من هو افضل الخليقة » فاذا انا « آدم » بأشباح خمسة باهرة في العرش في غاية العظمة والجلال والحسن والضياء والبهاء والجمال والكمال حيث حيرتني أنوارهم فقلت رب ! من هؤلاء ؟ فأوحى الي أنهم أشرف خلقي والوسطاء بيني وبينهم .

﴿ إِنِّي هُوَ يَوْهَ أَنَا لَبِيرِينَ وَارَخْ لَا الشَّمَايَ وَلَا أَلْ أَرْعَا وَلَا الْهَرْدِسَ وَلَا الْكَيْهَنَ وَلَا الشَّمْسَ وَلَا السُّعْرَ - : ﴾

« لولاهم لما خلقتك » يا آدم « ولا السماء ولا الأرض ولا الجنة ولا النار ولا الشمس ولا القمر »

قلت « آدم » : ما هي اسماء هؤلاء الاكارم ؟ قال : انظر الى العرش ترى : -

« يا رَقْلِيْطَا » (محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) « ايليا » : علي (عليه السلام) « طيطه » : فاطمة (عليها السلام) « شِبْرُ » : حسن - « شِبْرُ » : حسين . -

﴿ هَلِيلُوهُ لَيْتَ آلَهَ شَوْقُ مِنِّي مُحَمَّدًا تَنْوِي ذِآلَهَ » - : « هَلَّلُونِي فَانْه لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَمُحَمَّدٌ رَسُولِي » (١) .

(١) طبع كتاب ادريس (عليه السلام) باللغة السريانية في لندن ١٨٩٥ وهذه البشارة في ص ٥١٤ - ٥١٥ منه ينقله المغفور له ملا محمد صادق جديد الاسلام في كتابه انيس الاعلام - وقد فصلناه في كتابنا « رسول الاسلام في الكتب السماوية ص ١٣١ (عربية) وفي كتابنا « بشارات عهدين » باللغة الفارسية ص ٢٢٩ .

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
 وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا
 إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾
 * خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا
 الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ
 شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ
 إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا
 وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
 نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا
 بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ
 وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا يَنْهَمَا فَاعْبُدْهُ وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ
 سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ
 حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ
 وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ
 لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ
 شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ
 بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ
 عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُخَيِّبُ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ
 الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

﴿اولئك الذك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وعن
 حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وعن هدينا واجتبيينا إذا تتلى
 عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ (٥٨).

كما النعمة الربانية درجات كذلك المنعم بها عليهم درجات أفضلهم
 النبيون ثم الصديقون ثم الشهداء ثم الصالحون : «ومن يطع الله والرسول

فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» (٤ : ٦٩) .

وقد تلمح « من ذرية آدم » دون « آدم ومن ذريته » إلى أنه ما كان من النبيين مهما كان من المرسلين أمناً ؟ . . . والذين انعم الله عليهم - على درجاتهم - هم الذين نستهدي في صلواتنا صراطهم « إهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عليهم » ونحن أيضاً درجات كما هم درجات ، فلا تستهدي كل درجة إلا صراط من فوقها دون من يساويها أو أدنى ، وكما الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو على قمة الصراط لا يستهدي في صلاته إلا أفضل من المنعم عليهم أجمع فإنه إمامهم أجمع !

والنبيون المذكورون هنا هم : زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم ، وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس ، عشرة من المذكورين في سائر القرآن وشواهم ، ومريم المذكورة معهم من الصديقين و « أمه صديقة » (٥ : ٧٥) وقد تشملها « ممن هدينا واجتبتينا » .

وترى مَنْ « النبيين من ذرية آدم » اما كانت تشمل كافة صفحات النبوة في تاريخ البشرية ؟ فما هي الحاجة الى « ومن - ومن - ومن . . . » ؟ .

قد تعني هذه الثلاث الثلاثة الباقية من المنعم عليهم وسائر النبيين ف « ممن هدينا واجتبتينا » تعم الصديقين والنبيين غير المذكورين هنا ، وأئمتنا المعصومون (عليهم السلام) كما فاطمة صديقة ومريم صديقة . ف « من

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١١٤ في كتاب المناقب في مناقب زين العابدين (عليه السلام) قال (عليه السلام) : في قوله تعالى : « ومن هدينا واجتبتينا » نحن عينا بها .

النبين من ذرية آدم » و « ممن هدينا واجتبيينا » تعمان كل نبي وكل صديق في تاريخ الرسالات الإلهية ثم « وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل » تشمل كل شهيد وصالح .

إذ ليس « ممن حملنا مع نوح » نبي أم ولا صديق إلا في ذريته وفريتهم ، والنص « ممن حملنا » لا « من ذرية من حملنا » حتى تعني النبين من هذه الذرية ، ثم ولا تختص النبوة بذرية إبراهيم وإسرائيل حتى تعني النبين من هذه الذرية .

إذاً فـ « من » الأولى بيانية وسائر الأربع تبعية ، تحمل الخمس المنعم عليهم الأربعة « من النبين والصديقين والشهداء والصالحين » .

وفي تقسيم أبعاد الآية الى المذكورين تكلف ظاهر : أن « من النبين من ذرية آدم » هو إدريس وحقه إذاً « من نبي من ذرية آدم » ! ثم « وممن حملنا مع نوح » . إنه إبراهيم إذ هو من ذرية من حمل مع نوح ، وحقه إذاً « ومن ذرية نوح او من ذرية من حملنا مع نوح » ! ثم « ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل » أن « من إبراهيم » : « اسماعيل وإسحاق » ومن إسرائيل « زكريا ويحيى وعيسى وموسى وهارون ! وحقه إذاً « من ذرية إبراهيم » حيث تعم كافة النبين من فرعيه : اسماعيل وإسرائيل دون اختصاص بالمذكورين .

وقد يكون في « من حملنا مع نوح » صديق كما فيهم صالح وشهيد ، ولكننا « وممن هدينا واجتبيينا » يعم مع النبين غير المذكورين هنا كل صديق وصالح وشهيد ، كما « من النبين من ذرية آدم » تعم كافة النبين في صفحات النبوات ! .

ومواصفة لهم ثانية شاملة للأربع : « اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبُكياً » فانهم المنعم عليه بنعمة الهداية والعبادة القمة ، لا تخالجهم

غواية في آية جلّة وترحالة ، سجّداً للرحمن وبكياً في كل حالة ومقالة وفعالة ، فعل الخُور سجّداً وبكياً هو كمال الخُضوع والخُشوع أمام آيات الرحمن حين تتلى عليهم ، من وهي آيات الوحي المتلوة عليهم بشؤون الربوبية والعبودية والرسالة والنبوة ، سواء أكان التالي هو الرحمن ام وسيطه في الوحي وحيّاً أمّاذاً من تلاوة حسب درجات المنعم عليهم ، من النبيين الى الصالحين ، حيث الآيات تأخذ بازمة قلوبهم فيخرون بكياً ومن ثم بقوالبهم فيخرون سجّداً .

وإذا كانت السجدة والبكاء للرحمن فلماذا هي « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن » ولا يختص مقام الرحمن بما تُتلى ؟ إنه مزيد الايمان والإنجذاب إلى الرحمن حين يكلم المنعم عليهم « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » (٨ : ٢) و « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (٥٩ : ٢١) .

ثم للسجود والبكاء حين تتلى آيات الرحمن درجات أدناها الإستماع إليها والإنصات لها « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » (٧ : ٢٠٤) فأنهما من السجود الخُضوع دون تمامه ، وهما لزام لأصل الايمان وأدناه : « وما لهم لا يؤمنون ، وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون » (٨٤ : ٢١) مهياً كان كمال السجود والبكاء لزام كمال الايمان وأعلاه « إذا تليت ... خروا سجّداً وبكياً »

فكما يجب ان يكون المؤمن بالله ساجداً لله خاضعاً له في احواله كلها ، كذلك السجود لآيات الله ولا سيما حين تتلى ، فترك الإستماع إليها والاصغاء لها نابع من عدم الايمان !

ولماذا « آيات الرحمن » دون « الله » او « الرحيم » لان العناية المناسبة

لمطلق السجود والبكاء تقتضي الرحمة العامة بما فيها بشارة الثواب ونذارة العقاب ، فالسجود نتيجة البشارة والبكاء نتيجة النذارة مهما عمهما السجود والبكاء في توسع يليق بالمنعم عليهم .

وكما السجود في وجه عام يشمل أدناه إلى أعلاه كذلك البكاء تشمل التباكي وحالة البكاء كما تشمل أعلى البكاء ، درجات حسب الدرجات .

﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ (٥٩)

« فخلف » هؤلاء المنعم عليهم « خلف » (١) خالفوهم فيها هم وتخلفوا عما هم حيث « أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » كما خلف من بعدهم خلف أقاموا الصلاة وتركوا الشهوات فسوف يلقون رياء .

لكل صاحب دعوة إلهية خلف وخلف ، وطبيعة الدعوة وصنيعتها تقتضي الخلف دون الخلف ، وخلف الدعوة الصارمة والتخلف عنها لزامه مضاعفة الغي والعذاب ، كما ان خلفها والاستمرار فيها لزامه مضاعفة الري والثواب !

فلان آيات الرحمن منها مبشرة لمن يعبد الرحمن وقمتها الصلاة ، وأخرى منذرة لمن يتركها اتباعاً للشهوات ، فهؤلاء الخلف طول الرسالات والدعوات الإلهية أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، نقطة مضادة لأسلافهم المنعم عليهم « اذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً » !

(١) الخلف بالسكون البدل السيء وبالفصح ضده وقد يعكس على ندرة والاصل هو الاول .

واضاعة الصلاة لا تعني فقط فيما تعني ترك الصلاة^(١) فان إضاعة شيء ليست إلا بعد تكون هذا الشيء ، فالذي يعزل فلا يولد له ليس مضيعاً للولد ، إنما هو الذي انعقدت نطفته فأضاعها منذ انعقادها الى الولادة إلى الموت عن المصالح المتوجهة إليه لولده .

فإضاعة الصلاة هي إتيانها دون إقامة لها على وجهها الواجب واللائق ، في أوقاتها وشروطها واجزاؤها ونياتها ، وعلى الجملة في قلبها وقالبها فهم ليسوا بمقيمي الصلاة ، وإنما يأتونها : « ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » (٩ : ٥٤) ، او يقومون إليها : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً » (٤ : ١٣٢) ام هم سكارى : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٤ : ٤٣) ام ساهون عنها متساهلين فيها فهم بين تاركيها وفاعليها : « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون » (١٠٧ : ٥) غير معتنين بشأنها ، فلا يقيمونها كما يجب عليها وأتوها وقاموا إليها ! .

وقد تربوا إضاعة الصلاة - غياً - عن تركها ، كما يربوا الشرك بالله - أحياناً - على الإلحاد في الله ، فتارك الصلاة قد يتركها جهلاً بالله ام جهالة في الله ، ولكن الذي يصلي اضاعة لها ، هو هازيء مهتلك بالله رغم

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١١٦ عن المجمع عن أبي عبد الله (عليه السلام) اضاعوها بتأخيرها عن موافقتها من غير ان تركوها أصلاً .

اقول : يعني لم يتركوا اصلها وفيه ١١٥ عن الكافي عن داود بن فرقد قال قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) قوله تعالى : ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً قال : كتاباً ثابتاً وليس ان عجلت قليلاً او اخرت قليلاً بالذي يضرك ما لم تضيع تلك الاضاعة فان الله عز وجل يقول لقوم : « اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » .

تصديقه ، لذلك « فويلٌ للمصلين ... » لا « التاركين لها » ! وان كان تركها قد يربوا اضاعتها كفراً وعصياناً ! .

وكما أن لاقامة الصلاة درجات أعلاها صلاة المقربين ، كذلك لتضييعها دركات أسفلها صلوة المبعدين الأسفلين وبينهما متوسطات ، فهناك صلاة هي في أحسن تقويم ، وأخرى في أسفل سافلين ، ثم متوسطات لحد الواجب أم دونه أم فوقه ، فما دون الواجب فيها تضييع لها وما فوقه اقامة للراجع فيها .

﴿ واتبعوا الشهوات ﴾

الشهوات قد تتبع إنسانَ العقل الوحي فتصبح رحمت وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « شيطاني أسلم بيدي » وقد يتبعها الإنسان خلاف العقل والوحي فتصبح حيونات ونقعات ، ويقول الله : « ان القلوب المعلقة بالشهوات عين محجوبة »^(١) وقد يشير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) الى أخلاف من بعده وتلا هذه الآية « فخلق من بعدهم خلف » من بعد ستين سنة « اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يحدو تراقيهم ويقرء القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر »^(٢) .

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٧٢ - اخرج ابن أبي حاتم عن ابن الأشعث قال : اوحى الله الى داود (عليه السلام) : ان القلوب ...

(٢) المصدر اخرج احمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتلا هذه الآية ..

اقول ولعله يعني ستين سنة من الهجرة حيث أعلن الفسق زمن يزيد بن معاوية وقتل الحسين (عليه السلام) .

ومن اتبع الشهوات « من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور »^(١) ويجمعه « الدخول في الدنيا واتباع الهوى وشهوة البطن وشهوة الفرج »^(٢) وفوق الكل شهوة الرئاسة والعلو: « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » (٢٨ : ٨٣) .

فالشهوات هنا تعمها كلها وأمثها شهوة الرئاسة التي تضم سائر الشهوات وتجعل الديار بلاقع .

وذلك النفي والاثبات في اضاعة الصلوة واتباع اشهوات يلقي غياً وعياً: « فسوف يلقون غياً »: في الحياة الدنيا عما خلقت له وهيات ، وفي البرزخ والقيامة عما قدره الله وقرره لعباده الصالحين ، غياً في الحياة الدنيا يتمثل في نشأت ثلاث ولا سيما منذ الموت ، حيث العمل السيء هو الجزاء بملكوته يوم يكشف عن ساق وتبل السرائر: « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » و « هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » لقد علمتم غياً فسوف تلقون غياً ، جزاء في نفسه عذاباً وفاقاً ! « ومن يفعل ذلك يلقِ أثاماً » (٢٥ : ٦٨) :

= وفيه اخرج احمد والحاكم وصححه عن عقبه بن عامر سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : سيهلك من امتي اهل الكتاب واهل الدين قلت يا رسول الله ما اهل الكتاب ؟ قال : قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا فقلت ما اهل الدين ؟ قال : قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١١٧ في جوامع الجامع « واتبعوا الشهوات » روي عن علي (عليه السلام) من بنى .

(٢) المصدر في كتاب الخصال عن ابي عبد الله (عليه السلام) قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من سلم من امتي من اربع خصال فله الجنة : الدخول ...

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (٦٠).

«إِلَّا مَنْ تَابَ» عن إضاعة الصلاة واتباع الشهوات - الى الله «وَأَمَنَ» بالله بعدما كفر عملياً كالمؤمن المضيع ، ام وعقيدياً كالمضيع الناصر «وَعَمِلَ صَالِحاً» يجبر ما ضيع ، فلا تكفي التوبة دون ايمان ولا ايمان الا بصالح العمل فيصبح مؤمناً صالحاً «فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً» إذ تُوفى هناك أجورهم ، دون ان يُنقص منها شيء لماضي تضيعهم ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً﴾ (٦١).

«عَدْنٍ» هو الإستقرار فـ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» هي جنات الآخرة حيث لا خروج عنها وانما خلود استقرار ، وتقابلها الجنات البرزخية غير المستقرة حيث تفنى بفناء الدنيا فيخرج الداخل فيها الى المحشر ثم الى جنات عدن ، فهذه تبتدئ بفناء السماوات والأرض ، وتلك تنتهي بفناءهما «وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ» (١١ : ١٠٨) والفترة بين الجنتين لا تعتبر جداً لعطاء فانها قلة لا يحسب لها حساب ، فانتقالة الى عطاء اوفى !

«وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ» وعدهم وهو بالغيب كما وهي بالغيب ، والوعد كذلك بغيب الوحي ، مثلث الغيب في وعد الرحمن «إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً» في الغيب ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ! ... وترى ما هو مكانة «كَانَ» واثان وعده سوف يكون ؟ «إِنَّهُ كَانَ» في موضع تعليل ، فـ «إِنَّهُ كَانَ» منذ كان كائن ووعد من الله لآيَّ كَانَ «كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً» دون تخلف في أعماق الماضي فليكن مأتياً في

المستقبل وهو أهون عليه .

﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ (٦٢).

ليس فيها لغو حتى يسمعون، إلا سلاماً ، استثناء منقطع يجتث اي لغو فيها ويقطعه ويخص مسموعها بـ « سلاماً » ويلقون فيها تحيةً وسلاماً « (٢٥ : ٧٥) « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قليلاً سلاماً سلاماً » (٥٦ : ٢٦) ولأن « تحيتهم يوم يلقونه سلام » (٣٣ : ٤٤) ف « تحية » هنا سلام وليكن سلاماً غير التحية من قول سلام ، ان المسموع فيها كله سلام إخباراً ودعاءً أماذا ، لا إلا كلام فيها إلا سلام ، فهم إذا خرس عن أي كلام إلا السلام ! وإنما كلامهم لا يعد وكلاماً سلاماً من تحية أم اي سلام !

« ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » وهل في جنات عدن بكرة وعشي ؟ ولزامهما شمس طالعة وغاربة ! والشمس مكورة عند قيام الساعة !

هذه الشمس تكور ثم تخلق شمس اخرى يستظل اهل الجنة بظلالها عنها : « أكلها دائم وظلها » (١٣ : ٣٥) ولا ظل إلا عن ضوء و « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » (٧٦ : ١٣) فلتكن في الآخرة شمس وزمهير لا يرونها ، كميّزة لأهل الجنة عن أهل النار ، فلو لم تكن هناك شمس ولا زمهير . فاهل الجنة والنار على سواء في « لا يرون » !

واذا كانت هناك شمس فلتكن طالعة وغاربة وأهل الجنة لا يرونها فان « ظلها دائم » « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » كأصول الأوقات الصالحة للأكل وان كان فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين و « أكلها دائم » ياكلون متى شاءوا ولا سيما بكرة وعشيا ، او قد يعني : دوام الأكل كما يقال : أكل الجنة صباح مساء ، يعني انها مستمرة في الاوقات كلها .

ودلالة آية الغدو والعشي وآية المقييل بقرينة قاطعة فيها على البرزخ^(١) لا تقتضي دلالة آية البكرة والعشي على ما دلتا ، وهي محفوفة بقرينة من قبل « عدن » ومن بعد « نورث » تدل على القيامة .

جنة البرزخ مؤقتة ما دامت الدنيا فليست عدناً ولا سيما للمداخلين فيها قبيل الساعة ، ووراثه جنة عدن تعني البقاء فيها من بُعدين ، إذا فهي جنة الآخرة ، و « لا يرون فيها شمساً » دليل وجود الشمس فيها مستورة ، « وبكرة وعشيّاً » دليل كونها طالعة غاربة ، اللهم إلا أن يدل « أكلها دائم وظلها » على دوام النهار فليس فيها - إذاً - بكرة وعشي ، ولكنها نص على شمس طالعة وغاربة ، فليقيد دوام ظلها باوقات النهار^(٢) فالرواية المنسوبة الى الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٣) تؤوّل ! أو يقال يكفي في كونها

(١) كقوله تعالى « وحق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب » (٤٠ : ٤٦) وقوله تعالى « اصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً واحسن مقيلاً . ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً » (٢٥ : ٢٨) .

(٢) فكما ان دوام الأكل لا يعني دوام الأكل وانما تهىء الأكل للاكل ، كذلك دوام الظل لا يعني الا الاشجار الملتفة التي تمنع من اصابة الشمس ، فقد يكون ظل غير دائم كالاظلال المؤقتة المتحركة كالشمسيات او السحاب او السقف الثابتة ولكنها ظل ما دمت تحتها ، ولكنها الاشجار الملتفة هي دائمة الظل .

(٣) الدر المنثور ٤ : ٢٧٨ - اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الاصول من طريق أبان عن الحسن وابي قلابه قالوا قال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ! هل في الجنة من ليل ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : وما هي بك على هذا ؟ قال : سمعت الله يذكر في الكتاب « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيّاً » فقلت : الليل من البكرة والعشي ! فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ليس هناك ليل وانما هو ضوء ونور يرد الغدو على الرواح والرماح على الغد وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت =

عدناً مواصلة الجنة لحد يعبر عنها بعطاء غير مجذوذ في جنة البرزخ « وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » (١١ : ١٠٨) ثم الغدو والعشي عليهما يختصان بالجنة البرزخية ، ثم لا غدو وعشيأ في جنة الآخرة ، وإنما شمس طالعة دون غروب « ظلها دائم » في دوام الطلوع !

ثم ورزق البكرة والعشي خير الرزق فـ « تغد وتعيش ولا تأكل بينهما شيئاً فان فيه فساد البدن » (١) .

﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً ﴾ (٢٣)

هل هي ميراث من الله لأهل الله ؟ « والله ميراث السماوات والأرض » ! ولا يموت أو ينزل عن ملكه حتى يورث ! أم هي ميراث ممن أدخل النار إضافة الى ما يملكه أهل الجنة ؟ ولم يكن لأهل النار نصيب من الجنة ! .

مركز تحقيق كتاب توتير علوم إسلامي

إنه « ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار فالكافر يرث المؤمن منزله في النار والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة » (٢) « وتلك الجنة

الصلوات التي كانوا يصلون فيها في الدنيا وتسلم عليهم الملائكة واخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : ما من غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات الا انه يزف الى ولي الله تعالى فيها زوجه من الخور العين ادناهن التي خلقت من زعفران .

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥١ ح ١٢٠ في محاسن البرقي عن ابن اخي شهاب بن عبد ربه قال : شكوت الى أبي عبد الله (عليه السلام) ما القى من الوجدان والتخيم فقال : تغد . . اما سمعت قول الله عز وجل يقول : « لهم رزقهم فيها بكرة وعشيأ » ورواه في كتاب طب الائمة عن محمد بن عبد الله العسقلاني عنه (عليه السلام) .

(٢) الدر المنثور ٦ : ٢٣ - اخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة ان رسول =

التي اورثتموها بما كنتم تعملون» (٤٣ : ٧٢) .

فقد كان منها منازل للذين اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ثم لم يتوبوا فاورثها الله من كان تقياً ، فليست الجنة - اذاً - وراثة النسب إذ تنقطع هنالك الأنساب وتتقطع الاسباب ، اللهم إلا سبب التقوى حيث يورث اهلها منازل اهل الطغوى الذين اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات !

﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾^(٦٤) رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً^(٦٥) .

هاتان الآيتان تلمحان أنهما معترضتان بين آي السورة ، ترى انهما من كلام الله ؟ وهو لا يتنزل ! وليس له رب ! ولا له ما بين ايدينا وما خلفنا وما بين ذلك ! ام من كلام اهل الجنة ؟ وليس دخلوها تنزلاً إليها فانه تصاعد وتعال ، ولا يخرجون تنزلاً عنها ، ثم ولا يناسبهم بقية القول اذاً فهما من كلام ملائكة الوحي ام أولاهما ، كان هناك سؤالاً ، لماذا ذلك التباطؤ في التنزل بالوحي ام قلته^(٦٦) والجواب «وما ننزل ..» والواو فيها

= الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : .. - ثم قال - : وذلك قوله : « وتلك الجنة » .
 (٦٤) وفيه اخرج ابن مردويه عن انس قال سئل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اي البقاع احب الى الله واياها ابغض الى الله ؟ قال : ما ادري حتى اسأل جبرئيل وكان قد ابطأ عليه فقال : لقد ابطأت عليّ حتى ظننت ان بري عليّ موجدة فقال : وما ننزل ..
 واخرج عبد بن حميد وابن ابي حاتم عن عكرمة قال : ابطأ جبرئيل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اربعين يوماً ثم نزل فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما نزلت حتى اشتقت اليك فقال له جبرئيل انا كنت اليك اشوق ولكني مأمور فاوحى الله الى جبرئيل ان قل له : وما ننزل الا بأمر بك .. واخرج ابن ابي حاتم عن السدي قال : احتبس جبرئيل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة حتى حزن

لمحة إلى معطوف عليه محذوف كـ « ما تباطئنا من أنفسنا أم تقللنا ولا قليناك أو نسيناك .. بل .. وما ننزل إلا بأمر ربك .. » ليس ننزلنا بالوحي إلا لتربيتك، فانت الأصل الرسولي ونحن الفروع الرسالي، وهو يعلم كيف ومتى وبماذا ينزلنا، فـ « ربك » لا « ربنا » ولا « رب العالمين » يوصل ذلك الوحي إليه من الله حيث يريبه التربية القمة بذلك الوحي المجيد .

« وما ننزل » بالوحي أماذا « إلا بأمر ربك » ليس لنا من الأمر شيء كما « ليس لك من الأمر شيء » وكياننا نحن وأنت وجاه ربك : « له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » وهو يشمل الكون أجمع أي كان وأيان ! - : ف « ما بين أيدينا » ما نستقبله من زمان ومكان أو كائن فيهما أي كان « وما خلفنا » ما نستدبره كذلك - « وما بين ذلك » من أنفسنا وإياك ، وما نحمله من وحي من أو إلى - كل ذلك له لا لنا ولا لك ولا لسوانا ، وما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ما ننزل به من وحي ، فليس استنزاه لك ولا التنزل به لنا « إلا بأمر ربك » كما وإن القول « وما ننزل .. » أيضاً ليس « إلا بأمر ربك » فلسنا نحن إذا مقصرين في تباطؤ الوحي عليك واحتباسه عنك .

= اشتد عليه فشكى ذلك الى خديجة فقالت خديجة لعل ربك ودعك وقلاك فنزل جبرئيل بهذه الآية « ما ودعك ربك وما قلى » قال يا جبرئيل احتبست عني حتى ساء ظني فقال جبرئيل : وما ننزل الا بأمر ربك .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال لبث جبرئيل عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) اثنتي عشرة ليلة فلما جاءه قال : لقد رثت حتى ظن المشركون كل ظن فنزلت الآية .. وفيه أخرج أحمد والبخاري ومسلم وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لجبرئيل (عليه السلام) : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت الآية .

واما ربك فلا ينزلنا بالوحي لا بحكمة الربوبية « وما كان ربك نسياً »
يودّعك نسياً او يقلاك تناسياً : « والضحي ، والليل اذا سجي . ما ودّعك
ربك وما قلى ! »

ف « ما نتزل » نفى عنهم التقصير « وما كان ربك نسياً » نفاه عن
الرب وعن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فلا بد من حكمة خفية
في البين ، فلا هو نسي ينسى مقصراً ، ولا أنه نسي يتناساك غضباً ،
ويتمثل « ما كان نسياً » في « ما ودّعك ربك وما قلى » حيث التوديع
نسيان ، والقلى تناس غضباً ، ولقد كان حقاً للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ان يستوحش من إبطاء الوحي لاشتياق نفسه للإتصال الحبيب
بوحي الحبيب .

ثم و « رب السماوات والأرض وما بينهما » عبارة أخرى عن « له ما
بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » وعلمه من كلام الله « فاعبده » تفريع
لتوحيد العبودية على توحيد الربوبية « واصطبر لعبادته » أمر باستقامة العبادة
ومنها تنزل الوحي عليه رسولياً ورسالياً ، فعليه الإصطبار مهما احتبس عنه
لفترة قصيرة أم طويلة « هل تعلم له سمياً » من الاسم لـ « الرب » او
« الله »^(١) فهل تعلم له رباً سواه يشاركه في ربوبيته ، ومن السّموة هل
تعلم له مشاركاً في سمّوه رباً لكل شيء ، ليس له شريك في إسم الرب
فضلاً عن حقيقته وسمته ، والربوبية المطلقة الوحيدة لساحته المقدسة
تقتضي عبادته وحده ، والإصطبار لعبادته وحده !

(١) نور الثقلين ٣ : ٣٥٢ ح ١٢٥ في كتاب التوحيد عن امير المؤمنين (عليه السلام)
حديث طويل يقول فيه لرجل سأله عما اشتبه عليه من آيات الكتاب واما قوله : وما
كان ربك نسياً - فان ربنا تبارك وتعالى علواً كبيراً ليس بالذي ينسى ولا يغفل بل هو
الحفيظ العليم ... واما قوله : هل تعلم له سمياً فان تأويله : هل يعلم احد اسمه
الله غير الله تبارك وتعالى . . . »

هنالك للمثول الدائب بين يدي المعبود بوحيه الحبيب وتلقي رسالته ،
عبادة دائبة واصطبار لها ، فاعبده واحشد نفسك في سبيلها لتحمل أعباء
وعناء ، تجرداً عن كل شاغل ، وتمرداً عن كل حائل ، وتحفزاً بكل جارحة
ونخالجة .. وليكن كلك عبادة لربك ، بحالك ومقالك وافعالك ، بحلك
وترحالك ، والعبادة في حواجز الشيطانات وعوائق بوائق تحول دونك
وعبادة ربك ، انها بحاجة الى اصطبار باستمرار ، ولتصل الى ساحة
القرب فلا تحس بغربة وكربة حين انقطاع الوحي ! ف « هل تعلم له
سمياً » تسميه او يتسمى باسمه او تسمو إليه ؟ !

﴿ ويقول الإنسان إذا ما مت لسوف اخرج حياً ﴾^(٦٦) أو لا يذكر
الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴿^(٦٧).

« الإنسان » هنا نوعه بطبعه وعقله المكسوف بطوع الهوى ، كما
الإنسان في « إن الإنسان لفي خسر » وقد يصح تسميته إنساناً لأن الله
تعالى عهد اليه فنسى^(١) ان اصله إنسيان : « إعلنان من النسيان^(٢) » ، وقد
يؤيده هنا « أولاً يذكر الإنسان » وكما في سائر القرآن^(٣) فالإنسان بنسيانه

(١) لسان العرب ج ١ ص ١١٢ - رواه عن ابن عباس .

(٢) المصدر قاله ابو منصور وهو مثل كيل اضحيان من ضحي يضحى وقد حذفت
الياء ف قيل انسان .

(٣) كقوله تعالى « وإذا مس الانسان ضر دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً فلما كشفنا عنه
ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره » (١٠ : ١٢) . فحين يمسه الضر يذكر ما تحباً
في فطرته .. فلما كشفت عنه ضره ينسى « فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان
كفوراً » (١٧ : ٦٧) « فإذا مس الانسان ضر دعانا » (٣٩ : ٤٩) يوم يتذكر الانسان ما
سعى ، (٧٩ : ٣٥) « يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى » (٨٩ : ٢٣) وهكذا نرى
في الكثير من (٦٥) مرة يذكر الانسان في سائر القرآن يقرن بنسيان الفطرة وسواها مما
يجب عليه ان يتذكرها .

فطرته وفكرته، أنه خلق من قبل ولم يك شيئاً؛ يتلى بهذا السؤال الإستبعاد الإستنكار.

«ويقول» دون «وقال» لمحة الى استمرارية هذه المقالة للإنسان اياً كان وأيان إلا من تذكر ..

«أولا يذكر الانسان» النسيان مهما نسي سائر الأدلة الآفاقية والآنفسية على أنه سوف يخرج حياً «أو لا يذكر .. أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً»؟ والواو هنا عطف على ما لم يذكر مما يجب ان يُتذكر من دليل، وقد ذكر الأعم ذكراً والأقرب تذكراً، الذي يصدق كل عاقل ومجنون: أنه خلق من قبل ولم يك شيئاً، فهل إن بدء الخلق أهون أم إعادته «وهو الذي يبدء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» (٣٠ : ٢٧) أهون عليه في حسابنا، واما في حساب الله فكله هين لا صعوبة فيه: «ولقد خلقنا السماوات والارض في ستة ايام وما مسنا من لغوب» (٥٠ : ٣٨).

اترى ماذا يعني «خلقناه من قبل ولم يك شيئاً»؟ هل إنه خلق الانسان كسائر الخلق لا من شيء كان فخلق له للمادة الأولية في أصلابهم، حمل لنا «وانا لما طغى الماء حملناكم في الجارية» (٦٩ : ١١) «وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون» (٣٦ : ٤١) فالذي خلق الأشياء - كمادة أولية - لا من شيء «ولم يك شيئاً»: «في كتاب ولا علم»^(١) هو قادر على أن يخلق الإنسان مرة ثانية وهو شيء بروحه الحي وجسمه التراب أمّاذا؟

(١) محاسن البرقي عن حمران قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن الآية فقال (عليه السلام): لم يكن شيئاً في علم ولا كتاب ..

أم إنه خلق الإنسان الأول من تراب ولم يك شيئاً إنسانياً «لا مقدراً ولا مكوناً»^(١) وإنما هو تراب ، فخلقه وهو روح وتراب أهون عليه .

أم إنه خلق كل انسان - بعد الأول من نطفة ثم ... ولم يك شيئاً مذكوراً «هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً» (٢: ٧٦) ؟

كل ذلك خلق للإنسان من قبل ، ففي الاول - حيث المادة الاولى - لم يك شيئاً في كتاب التكوين حيث الشيثية كانت للمادة الاولى ، ولا في العلم في علم غير الله ، اذ كان الله ولم يكن معه شيء وقد كان في اللوح المحفوظ حيث لا يعزب عنه شيء !

وفي الثاني كان في كتاب التكوين والعلم المفصول ولم يك مقدراً إنسانياً كسيرة الخلقة ، ولا مكوناً إنسانياً وإن كان كنطفة .

وفي الثالث « النطفة » لم يك شيئاً مذكوراً بحق ذكره كإنسان ، أو يليق بالذكر لمكان قذارة النطفة ، مهما كان مقدراً في طريقه إلى التكامل ، ومكوناً كخطوة أولى من كينونته فقد « كان شيئاً ولم يكن مذكوراً »^(٢) « كان مذكوراً في العلم ولم يكن مذكوراً في الخلق »^(٣) أو « كان شيئاً مقدراً لها

(١) في اصول الكافي عن مالك الجهني قال سألت ابا عبد الله (عليه السلام) عن الآية فقال : « مقدراً ولا مكوناً » .

(٢) تفسير العياشي عن زرارة سأل الباقر (عليه السلام) عن الآية فقال : .. وفيه عن عبد الأعلى مولى آل سام عن الصادق (عليه السلام) مثله .

(٣) عن سعيد الحذاء عن الباقر (عليه السلام) : ...

(٤) الكافي بإسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسيني بإسناده عن الامام الصادق (عليه السلام) سئل عن قوله تعالى : « ولم ير الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً » فقال لا مقدراً ولا مكوناً ، وسئل عن قوله تعالى « هل أتى على الانسان حين من الدهر .. » قال : كان مقدراً غير مذكور .

قدّر من نطفة امشاج ولما يكون إنساناً !

وقد تعني الآية كل هذه الثلاث ، على اختلاف دلالاتها ، على أن الخلق المعاد أهون عليه ، « أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل » اذ خلقنا أول خلق - واذا خلقنا الانسان الاول - واذا خلقنا النطفة « ولم يك شيئاً » - ام شيئاً مقدراً لخلق الانسان كسيرة مستمرة مثل النطفة - ام شيئاً مذكوراً مهما كان نطفة ! ، وان كان « شيئاً » في سياق النفي تستأصل كلّ شيئية كما في الخلق الاول ، ولكنها تتحمل نفي الشيء الإنساني كالاخيرين ، ضمن أصل الشيء كالاول ، وقد تؤيده « قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » (١٩ : ٩) وبرهان المماثلة الاولوية يثبت إمكانية المعاد ، وبرهان العقل العدل والنقل يثبتان معه ضرورته !

﴿ فوربك لنحشرنهم والشیاطین ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾^(٦٨) ثم لتتزعن من كل شیعة ایهم أشد على الرحمن عتياً^(٦٩) ثم لنحن أعلم بالذین هم أولى بها صلیاً^(٧٠)

« فوربك » تحمل برهاني العدل والنقل ، فربوبيته تعالى ولا سيما الرسالية المحمدية تقتضي الحشر والجزاء ، فلولا الحشر لبطلت الربوبية الحكيمة العادلة وبطلت الرسالة المحمدية وما دونها ، فليس القسم هنا إلاّ بادل دليل على ضرورة المعاد ، وقد تمت البراهين الأربع : إمكانية بالاولوية ، وضرورة باصل الربوبية العادلة - ضرورة اخرى بالربوبية الرسالية المحمدية فلولا الحشر لبطلت - والرابع هو النقل الحامل لهذه الثلاث !

ترى ومن هم الشياطين المحشورون معهم ؟ إنهم شياطين الإنس والجن ، (٦ : ١١٢) وهم « اولياء للذین لا يؤمنون » (٧ : ٤٧) « ومن

يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » (٤٣ : ٣٩) ::
 هم دركات كما الشياطين دركات وقد تربو شيطاناتهم على شياطينهم أو هم
 على سواء أم دون ذلك طرائق قدداً ، والله يحشرهم وإياهم من أجدانهم :
 « ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً » : بروكاً على رُكَبِهِمْ ذلاً وانكساراً ،
 واجماعاً حولها كالتراب والحجارة ترذلاً وانحساراً^(١) والثاني يعني الأول
 تضمناً ، فهم إذاً حول جهنم ناظرين حكم أحكم الحاكمين ، فإذا أداركوا
 حولها جميعاً ركاباً بعضهم على بعض ننزع منهم صلاة الجحيم ووقودها ،
 التي يتقد بها ويحرق سائر اهل الجحيم :

« ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً » : هنالك
 ائمة الضلالة وأشباعهم ، ولا يختص وقود النار بالأصلاء بل ومن الفروع
 « من كل شيعة » لننزعن للوقود « أيهم أشد على الرحمن عتياً » ثمرداً
 وعصياناً ، لنجعل وقوداً على وقود فنركمه جميعاً ، « ثم لنحن أعلم بالذين
 هم أولى بها صلياً » والصلي مصدر صلي : الوقود ، فمن الوقود ما هو في
 أصول الجحيم ، وهو أولى بها صلياً ، ومنه ما هو في سائر الجحيم وهو
 دون ذلك صلياً : « وأولئك هم وقود النار » (٣ : ١٠) ثم لا وقود إلا
 من يتقد من فروع الضلالة :

صحيح انها « لا يصلها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى » (٩٢ :
 ١٥) ولكنها الوقود انهما الأشقى بالنسبة لسائر الأشقياء مهما كان الأولون هم

(١) الاول اصله فعول جمع جائي وهو البارك على ركبتيه - والثاني عن ابن عباس انه
 جمع جثوة وهو المجتمع من التراب والحجارة . وقد يناسبه ما أخرجه عبد الدين احمد في
 زوائد الزهد والبيهقي في البعث عن عبد الله بن باباه قال قال رسول الله (صلى الله
 عليه وآله وسلم) : كأي اراكم بالكوم دون جهنم جاثين .

اولى بها صلياً ، فتزع الأشد على الرحمن عتياً ليس لأصل الدخول في الجحيم حيث هي مكان العاتين اجمعين ، فليس التزع إلا لصلاء الجحيم ، ولكن ليسوا في صلاءهم سواء « ثم لنحن أعلم بالذين هم اولى بها صلياً » ! فهناك ولي للصلي وهنالك اولى لها !

وآيات الصلي كلها شاهدة على أنها لا تعني مجرد الدخول في النار ولا سيما آية الاشقى فانها تحصر صليها بالاشقى ، فلو أنه الدخول فغير الاشقى اذاً - لا يدخلها !

﴿ وإن منكم الا واردها كان على ربك حتماً مقضياً^(٧١) ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً^(٧٢) :

« وان منكم » خطاب صارم لكافة المكلفين من الجنة والناس اجمعين ، فلا يختص بأصحاب الجحيم إذ ليس منهم المتقون الناجون من الواردين^(٧٣) « وإن منكم » احدٌ « إلا واردها » دحولاً فانه نص فيهِ ، لا مروراً ام قريباً مهما عنيا من الورود بقريئة وكما يروى عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت لإبراهيم (عليه السلام) حتى أن للنار ضجيجاً من بردهم ثم ينجي الله

(١) الدر المنثور ٤: ٢٨٢ اخرج ابن سعد واحمد وهناد وابن ماجه وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن الاثير والطبراني وابن مردويه عن ام مبشر قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يدخل النار احد شهد بداراً والحديبية قالت حفصة : اليس الله يقول : « وان منكم الا واردها » ؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : الم تسمعيه يقول : « ثم ننجي الذين اتقوا » ؟ ! وفيه عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : من حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعاً لا يأخذه سلطان لم ير النار بعينه الا تحلة القسم فان الله يقول « وان منكم الا واردها » .

الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً^(١):

انهم يرونها على سواء « ثم يصدرون عنها بأعمالهم فاولهم كلمح البرق ثم كالريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم في رحله كشد الرجل ثم كمشيه^(٢) واحاديث المرور تطرح ام تأول لمخالفتها القرآن والسنة^(٣):

ف « واردةا » و « ثم ننجي الذين اتقوا » و « نذر الظالمين » شهود صدق على الدخول مهما كان عذاباً أو رحمة ، فلا عذاب في مرورها ، ولا يذر الظالمين مارين عليها ، وانما هو الورود للجنة والناس اجمعين : « :: وتمت كلمة ربك لأملئن جهنم من الجنة والناس اجمعين » (١١ : ١٩) و (٣٢ : ١٣) ملىء دون استثناء ، وانما يستثنى المتقون عن عذابها دون ورودها وملئها ! :

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨٠ اخرج احمد وعبد بن حميد والحكيم والترمذي وابن المنذر وابن ابي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن ابي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا لا يدخلها مؤمن وقال بعضهم يدخلونها جميعاً ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبد الله فذكرت له فقال : واهوى باصبعيه الى اذنيه - صمناً ان لم اكن سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : لا يبقى ...

(٢) المصدر اخرج احمد وابن ابي حاتم وابن الانباري والترمذي والحاكم وصححه والبيهقي في البعث وابن مردويه عن ابن مسعود في الآية قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يرد الناس كلهم النار ثم يصدرون ...

(٣) مثل ما في الدر المنثور - اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وان منكم الا واردةا » يقول : مجتاز فيها - .

اقول لم يقل مجتاز بها - بل - فيها ، مما يدل على الورود ، فبعض يردّها ورود الاجتياز كالمقربين وآخرون يصدرون عنها بأعمالهم « ونذر الظالمين فيها جثياً » .

.. وقد تلمح « واردها » دون « يردها » إضافة الى حتمية الورد باسم الفاعل ، إلى انسلاخ ذلك الورد عن الزمان فقد يشمل مثلث الزمان يوم الدنيا والبرزخ والقيامة ، ف « إن منكم إلا وارد » مثلث الجحيم ، فالدنيا بشهواتها وهواتها جحيم كما البرزخ والقيامة نتيجة لها ، ولكننا الذين اتقوا منجون عنها ، عن بواعثها يوم الدنيا حيث يتقون موجبات النار ، وعن كوارثها في برزخها يوم البرزخ وعن نار الخلود يوم الخلود ، إذاً فهناك مثلث للورد ، مهما كان فيما سوى الأخير ورود الإجتياز لفترة قصرت كما الدنيا أم طالت كما البرزخ ، ومن ثم ورود في مختلف درجاته او دركاته بمختلف الإستحقاقات والتخلفات !

« كان على ربك حتماً مقضياً » ف « ربك » وهو في أعلى درجات الربوبية يورد كلاً في الجحيم الأخرى كما أوردتهم في الأولى ، ثم ينجي كلاً هناك كما نجي « بالتقوى » هنا ، ولكي يرى المتقون سجن المتمردين فتكون لهم حظوة ، ويرى المتمردون المتقين فتكون عليهم حسرة ، وهذه قضية الربوبية القمة « كان على ربك » المحتومة بما حلف : « لأملان جهنم من الجنة والناس اجمعين » ! فقد كتب على نفسه عموم الورد في الجحيم بربوبيته كما « كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه :: » (١٦ : ١٢) ومن الجمع الرحمة قضية الربوبية الجمع في الجحيم !

« ثم ننجي الذين اتقوا » والفترة المستفادة من « ثم » درجات حسب درجات التقوى كما سبق عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) « فاولهم » كلمح البرق - وهو منهم - وآخرهم كمشية ، وهم آخر من ينجي مهما بقى ردها فيها ، وإن كثيراً كالحالدين غير الأبدن فيها ، ف « ثم » تعم اللمحة الى الخلود غير الدائب ! ولكن :

« ونذر الظالمين فيها جثياً » قد تخرج المعذنين في النار عن المتقين وهذا هو الحق ، وبقاء الظالمين يشمل بعد المشية الى الخلود وإلى الأبد ، فلا تعني

« ثم » إلّا اللّحمّة الى المشية ، ثم الباكون هم الظالمون على دركاتهم ! ويا ويلنا ونحن كلنا واردوها وهذا يقين ، ومن هذا الذي يخرج منها وليس إلّا شكاً بعد يقين ، اللهم إلّا « الذين اتقوا » ولا تنقض اليقين بالشك بل انقضه بيقين مثله ، وكما يزوي عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : « فقد علمت اني وارد النار ولا أدري كيف الصدور بعد الورود »^(١).

ولقد أثرت هذه الآية في أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أثراً بالغاً يدهشهم فـ « إذا اتقوا يقول الرجل لصاحبه هل اتاك انك وارد ؟ فيقول : نعم ! فيقول : هل أتاك انك خارج ؟ فيقول : لا فيقول : ففيم الضحك ؟ »^(٢) أجل وان يقين ورود النار لا يقطعه إلّا يقين التقوى المنجية عن النار ، وقد بينها الله في كتابه المبين ، ونحن كلنا - إلّا المعصومين - سوف نردها ، وهل ننجوا منها ؟ الله اعلم ! إذ لا ندري هل نختم عاقبة أمرنا بالتقوى فنموت أتقياء ، أم دون ذلك ، فعلينا إذا

مركز تحقيق تكملة علوم إسلامي

(١) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ - اخرج ابو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير قال : لما اراد ابن رواحة الخروج الى ارض مؤتة من الشام اتاه المسلمون يودعونه فبكى فقال : اما والله ما بي حب الدنيا ولا صباية لكم ولكني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرء هذه الآية ... فقد علمت ... وفيه اخرج ابن المبارك واحمد في الزهد وابن عساکر عن بكر بن عبد الله المزني قال : لما نزلت هذه الآية ذهب عبد الله بن رواحة الى بيته فبكى فجاءت المرأة فبكت وجاءت الخادمة فبكت وجاء اهل البيت فجعلوا يبكون فلما انقطعت عبرتهم قال : يا اهلاه ! ما الذي ابكاكم ؟ قالوا : لاندري ولكن رأيناك بكيت فبكينا قال : انه انزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) آية ينبئني فيها ربي تبارك وتعالى اني وارد النار ولم ينبئني اني صادر عنها فذاك الذي ابكاني .

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٨٢ - اخرج ابن ابي شيبة عن الحسن قال : كان اصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) اذا اتقوا ...

الجهاد الدائب في التقوى مستعيزين بالله من كل شيطان رجيم !

ولا تُناحر آية الورود آية الإبعاد : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » (٢١ : ١٠١) بل وتناظرها ، حيث الإبعاد ليس إلا بعد الورود أو القرب ، وآية الورود تبعدهم عنها بعد الورود ، فـ « ثم ننجى » تعني ما تعنيه « أولئك عنها مبعدون » - « لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتت انفسهم خالدون . لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » (١٠٣) :

تلقاهم الملائكة الى الجنة حين ينجون ويبعدون عن النار ، دون ان يسمعوا حسيسها ، ودون ان يحزنهم الجحيم ، بل وقد يفرحون بما رأوا سجن المتمردين رحمة على رحمة ، وكما هي على أهل النار عذاب فوق العذاب ! فالنار إذا للمتقين خامدة^(١) كما كانت لأهلها محرقة اللهم إلا حيناً كلمحة ، وهنالك جثو حول جهنم للظالمين وجثو آخر فيها لهم واين جثو من جثو :

إن الذين هم أول المقذوفين في الجحيم يردون تصلية للجحيم ، من أئمة الضلالة ومن كل شيعة هم أشد على الرحمن عتياً ، وطلبة الصادرين من كل الواردين هم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وائمة الهدى وسائر النبيين من المقربين وطائفة من اصحاب اليمين ، وبينهما متوسطون من الصادرين والباقيين :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢ ص ٢٤٤ عن جابر بن عبد الله انه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : اذا دخل اهل الجنة الجنة فقال بعضهم لبعض اليس وعدنا ربنا بان نرد النار فيقال لهم : قد وردتموها وهي خامدة .

وترى لماذا غير الظالمين يردونها حتى يُنَجَّوا منها ؟ إن وُرودهم فيها لهم حظوة رحمة حيث يرون سجن الظالمين مبتهجين انهم لم يردوها معذبين فانها لهم برد وسلام وللظالمين حرق وإيلام ! :

وقد يتحدث المسيح (عليه السلام) فيما ينقله برنابا الحواري عن هذا الورود العام :

﴿ أجاب يسوع : يتحتم على كل احد أياً كان أن يذهب الى الجحيم^(٨) بيد أن ما لا مشاحة فيه أن الأطهار وأنبياء الله إنما يذهبون الى هناك ليشاهدوا لا ليكابدوا عقاباً أما الابرار فانهم لا يكابدون إلا الخوف^(٩) وماذا أقول لكم ؟ افيدكم أنه حتى رسول الله يذهب الى هناك ليشاهد عدل الله^(١٠) فترتعد ثمة الجحيم لحضوره^(١١) وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم^(١٢) ولكنه لا يقيم هناك إلا طرفة عين^(١٣) وإنما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق انه نال نفعاً من رسول الله^(١٤) ومتى ذهب الى هناك ولولت الشياطين وحاولت الإختباء تحت الجمر المتقيد قائلاً بعضهم لبعض : اهربوا فإن عدونا محمد قد أتى (انجيل برنابا ١٢٦ : ٧ - ١٥) :

ثم في الآيات ١٧ - ٢١ - تصريحات أن ما من مات على دين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فمصيره الى الجنة وان كابد العقوبة للاعمال السيئة وترك الصالحات فانه بالمآل ينتقل الى الجنة بدعاء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن عذب في نار البرزخ والقيامة كما يستحق ! :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
 قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا
 وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ
 أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ
 لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ
 وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ
 جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ
 الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾
 أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾
 أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ ائْتَمَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
 سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾
 وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ (٧٣).

هرطقة نكراء وطنطنة خواء في قولة هراء من الذين كفروا للذين آمنوا في حوار دائبة بتراء تضللهم او تقلل من ايمانهم ، ولكننا المؤمن حق الايمان لا يتزعزع بهذه الزلازل ، فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف !

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات » لا يتفهمونها وهم يسمعون ، مبتهجين ومتبحجين بالقيم المادية الفانية قائلين : « اي الفريقين » منا الكافرين ومنكم المؤمنين « خير مقاماً » : قياماً في هذه الحياة بوسائلها المتوفرة لدى الناشطين ، وقواماً فيها ، ومكاناً لكل قيام وقوام ، فمن هو خير في مثلث « قياماً » ثم « واحسن ندياً » : نادياً لتنادى الشورى « فليدع ناديه » في مصالح الحياة ! ونادياً لكل أنس والإتيان بمختلف الشهوات « تأتون في ناديك المنكر » (٢٩ : ٢٦) ؟

إنهم يرونهم في نوادي فخمة ومجامع مترفة بكل ترف وفي كل طرف ، وإلى جنبهم تلك النوادي المتواضعة والمستديات الفقيرة ، دون أبهة ولا زينة وكبرياء فيتقولون لهم : « أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً » وإذا الايمان بالله يعجز عن اصلاح الحياة الحاضرة فهو عن إصلاح المستقبل - لو كانت - أعجز !

ومن هؤلاء سادة من قريش ، قادة الكفر - كالنضر بن الحارث وعمرو ابن هشام والوليد بن المغيرة وابي جهل وابي لهب واخوانهم المترفين وجاه سادة الايمان ، كبلال وعمار وخباب واضرابهم من المؤمنين المعدمين ف « أي الفريقين خير . . » ؟ ذلك ! رغم انها حكمة الله في صراط الحق ان تظل العقيدة الصادقة مجردة من الجواذب المادية زينة وطلاء وإغرائاً ، ليقبل عليها من يريد لها خالصة لحقها دون زخارفها ، ويدبر عنها من يبتغي زينة الحياة الدنيا .

هنا يأتي جواباً واقعياً غابراً عن «اي الفريقين» لمحة الى مصارع الغابرين :

﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾ (٧٤) :

إن القرون الهالكة المالكة هي أكثر مما يملكون و «أحسن أثاثاً» الظاهرة، بأحسن منهم مظهراً «ورثياً» إنها ليست قلة منسية ، فعاد «وتمود الذين جابوا الصحر بالواد وفرعون ذي الاوتاد الذين طغوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب» هؤلاء واضرابهم هم أحسن منهم أثاثاً ووسائل العيشة ورثياً : منظرأ في انفسهم واثاثهم وبيوتهم وما يملكون ، فقد هلكوا بما ملكوا فأى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ !

﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدأ حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جندأ﴾ (٧٥) :

«من كان في الضلالة» غارقاً تائهاً ومضى على ضلالته ردى من الزمن فهو لا يهتدي ، أترى ماذا يفعل به الرحمن؟ أحلاً على الهدى وهو مصر على الردى ؟ ام لا يمدد له فى هوى او ردى وكفى به - لو امكن - استمراراً في الردى ! او «فليمدد له الرحمن مدأ» جزاءً وفاقاً إملاء : «وأملئ لهم ان كيدي متين» (٧ : ١٨٣) «ولا يحسبن الذين كفروا اننا نغلي لهم خير لأنفسهم انما نغلي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين» (٣ : ١٧٨) «فليمدد له الرحمن مدأ» الإملال الامهال عُمرأ وأسباباً ، من بنين واموال «أيحسبون اننا نغدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون» (٢٣ : ٥٥) مدأ لهم في أسباب العذاب ثم مدأ في العذاب «كلا سنكتب ما يقول ونغد له من العذاب مدأ» (١٩ : ٧٩) ! :

«فليمدد له الرحمن مدأ حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب» قبل

الساعة كتقدمة « وإما الساعة » التي هي بداية العذاب الأصيل وهنا أو هناك « فسيعلمون » عين اليقين « من هو شر مكاناً وأضعف جنداً » وجاء ما كانوا يقولون للذين آمنوا « اي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً » حيث يرون أنفسهم شراً مكاناً رغم ما كانوا يزعمونهم « خير مقاماً » وكانوا في زعمهم أحسن ندياً : نادي الأعوان الجنود ونادي الشهوات ، فيرونهم « أضعف جنداً ! فلا تنفعهم جنود النوادي أيأ كانوا بل يضرونهم كما كانوا يضلونهم :

فقد زادوا ضلالاً على ضلال في الدنيا ثم هم يوم القيامة من المرذولين ، واما الذين اهتموا ؟

« ويزيد الله الذين اهتموا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً » (٧٦) :

كما هناك مد للذين كفروا ، كذلك هنا مد للذين آمنوا واين مد من مد : « كلاً غم هولاء وهولاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » (١٧ : ٢٠) :

فمد الهدى يتبني هدى قبلها كمد الردى « والذين اهتموا وزادهم هدى وآتاهم تقواهم » (٤٧ : ١٧) والخير في هذا البين ليس الذي يزعمه الذين كفروا من أثاث وريثي يفنى ، بل « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً » « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير املاً » (١٢ : ٤٦) (١) :

الأقوال والأعمال كلها باقية بما يستنسخها الله « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » ولكننا الباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً « يثوب

(١) راجع تفسير الآية في الكهف فلا نعيده هنا الا ما اشرنا اليه .

ويرجع الى الإنسان حالاً واستقبالاً ، حيث الثواب هو رجوع الشيء إلى حالته المقدره المقصودة « وخيرُ مردأ » مكان ردها وزمانه في الجنة يوم القيامة وما قبلها .

واما الطالحات الزائلات بشهواتها وهواتها ، الباقيات بخطراتها التي هي لزام فاعليها ، إنها شر عند ربك عقاباً وشر مردأ ، فمن هو إذا خير مقاماً وأحسن ندياً وأثاثاً ورثياً وخير مكاناً وأقوى جنداً ؟ أهم أصحاب الباقيات الصالحات ، ام الزائلات الباقيات الطالحات ؟ !

﴿ افرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً^(٧٧) أطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهداً^(٧٨) كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً^(٧٩) ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً^(٨٠) ﴾

« افرأيت » استفهام عجاب واستنكار في « الذي كفر بآياتنا » الدالة على توحيد الربوبية ومعادها والرسالة الإلهية بينهما ، كفراً بمثلث الآيات آفاقية وأنفسية .

فرغم أنه « كفر بآياتنا » كلها دون ابقاء ، يتميع بما يخيل اليه انه يتمتع « وقال لأوتين مالا وولداً » هنا ام في الحياة الأخرى ، وانا رابع في الاولى الواقعة ، وفي الأخرى لو انها واقعة « ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » (١٨ : ٣٦) .

طنطنة حقاء ، وهممة جوفاء ، ويكأن وفراً من المال والولد هو جزاء الكفر بآيات ربنا ! « أطلع على الغيب » فيما هنا ام هناك « ام اتخذ » هنا لما هنا وهناك « عند الرحمن عهداً » فلا غيب له مطلع ، ولا عهد عند الرحمن فانها أو واحدتهما لزامهما صلة عريقة مع الرحمن ، وقد « كفر بآياتنا » فما قولته الجوفاء إلا طنطنة خواء وهرطقة هراء والله منها براء :

وانها قولة تكرر من حماقى الطفيان ، كأنهم يملكون الكون بمكونه ، فهم يحاسبون بديل ان يحاسبوا ، فكما هم اولاء هنا غارقون فيما يشتهون ، كذلك هم في الأخرى - لو كانت - فيما اشتتهت انفسهم خالدون :

وهل ان « الذي .. وقال » شخص كافر غابر ليخصه التعجيب التأنيب ؟ علّه نعم حيث العبارة العامة « الذين .. يقولون » ! او علّه لا مهما كان مورداً لنزول الآية حيث المورد لا يخصص ، ف « لا تكونن ممن يقول في شيء انه في شيء واحد » .

ويظهر من « كفر » حادث الكفر بعد الايمان ، ام مزيده دون ايمان ، فيعم التعرق في الشرك كالذي خاطب خباب بن الأرت حين طالبه ديناً كان له عليه فاجاب بما اجاب : « موعداً ما بيني وبينك الجنة فوالله لأوتين فيها خيراً مما اوتيت في الدنيا »^(١) كما يعم ضعيف الايمان الذي كفر حين خيل اليه ان الكفر يجلب مالاً وولداً !

« كلا » ! ليس كما يعرف بما لا يعرف « سكتب » عليه « ما يقول » قولة نكراء وهي وبالة عليه « ونمذ له » هناك « من العذاب مداً » بدلاً عن اي مال وولد ! « ونرثه ما يقول » لو اوتي هنا او هناك مالاً وولداً ف « انا نحن نرث الارض ومن عليها والينا يرجعون » (١٩ : ٤٠) « ويأتينا فرداً » دون مال ولا ولد فمم يكون له - اذاً - مال وولد ؟ !

(١) رواه فيمن رواه القمي عن ابي الجارود عن ابي جعفر (عليه السلام) ومثله في معناه في الدر المنثور عن خباب بن الارت قال كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أنقاضاه فقال : لا والله لا اقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال فاني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فاعطيك فأنزل الله الآية .

اقول تخصيص نزول الآية بموردها هذا بعيد ، إلا ان يكون من مصاديقها .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ

إِلَٰهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ

وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۖ ۝٨٦ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ

عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَمُ أَرَأَى ۖ ۝٨٧ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا

نَعْدُهُمْ عَذَابًا ۖ ۝٨٨ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ

وَقَدْ ۖ ۝٨٩ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِثًا ۖ ۝٩٠

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ ۝٩١

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۖ ۝٩٢ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْعًا إِذَا ۖ ۝٩٣

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ

الْجِبَالُ هَدًّا ۖ ۝٩٤ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۖ ۝٩٥ وَمَا يَنْبَغِي

لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۖ ۝٩٦ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۖ ۝٩٧ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ

وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ ۝٩٨ وَكُلَّهُمْ عِندَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۖ ۝٩٩

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ
وُدًّا ﴿٨١﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ
بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿٨٢﴾ وَكَرَّ أَهْلَكَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ
مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٨٣﴾

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ﴾^(٨١) كلاً سيكفرون
بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا^(٨٢).

واذلاّ لمن يتخذ من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ، تحطياً لكرم
الإنسانية ، وتعزيزاً للدليل وتقديماً له على من خلقه الله في أحسن تقويم ،
كيف يردّ نفسه بتخيّل العز أسفل سافلين .

أترى العز في ألوهة الأصنام والأوثان والجبّات ؟ وهي لا تسمع ولا
تبصر ولا تغني عن انفسها شيئاً فضلاً عن عابديها !

أم في ألوهة الطواغيت ؟ وقد استكبروا عليهم وحطّوا من كرامة
إنسانيتهم حيث استخفّوهم وسقطوهم عن كرامتهم !

أم في ألوهة الأولياء من الملائكة والنبيين ؟ وهم يرون عزّهم وإياهم في
عبادة الله ، وليسوا هم ليغنوا عنهم من الله شيئاً إذ « لا يشفعون إلّا لمن
ارتضى وهم من خشيته مشفقون » ! أم ليعتزوا بهم عند الله ، « ويقولون
هؤلاء شفعاؤنا عند الله ما نعبدهم إلّا ليقربونا الى الله زلفى » ؟ وفي ذلك

مَنْ من كرامة الله ان يُتخذوا سلطاناً من دون الله ما آتاهم به الله ، وأن يُعبدوا من دون الله أزرأء بساحة الربوبية ، وكيف يصلح المبعد مقرباً ، ام كيف يطلع البغيض عزيزاً ! « واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يُنصرون : لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » (٣٦ : ٧٥).

فأين ذلك العز الأعز من السوهة الله وحده وعبوديته؟ وهكذا يكون دور من يستند الى غير القرآن ويستعين به تاركاً لكتاب الله ، معتزاً بسواه لتعزيز دين الله بالقاب براءة مطمئنة ، وكلمات عملاقة ! هي عن كثير من الحق فاضية خاوية !

« كلاً » لا عز هنا وهناك ام هنالك ، « وهم » الالهة « سيكفرون بعبادتهم » : « فزيلنا بينهم وقال شركائهم ما كنتم ايانا تعبدون : : » (١٠ : ٢٨) « ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم » (٣٥ : ١٤). كما وهم أولاء « سيكفرون بعبادتهم » « ثم لم تكن فتنتهم إلا ان قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » (٦ : ٢٣) :

وهذا من الطف الجمع بين ضميري الجمع ، سيكفرون بعبادتهم حيث يعم الكافرين واقعاً لا نكير له ! ثم « ويكونون » كل « عليهم » على كل « ضداً » حيث زيل الله بينهم فظهر الحق عن الباطل وغلب هنالك المبطلون !

« ألم تر أنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً » (٨٣) :

إنهم تهزهم تحريكاً بشدة وازعاج هزاً ، وتحرضهم على الشر حرصاً ، ولو لم يكن الكافر هزاً في نفسه بزاً لم يسطع الشياطين ان تهزهم هزاً .

ولا يعني الإرسال هنا بعثاً إليهم ليضلوهم أكثر مما هم ، بل عدم

المنعة عن هزهم ، وهو يمنعهم عن هز المؤمنين ، وفي « على » هنا دون « إلي » لمحة حيث تعني الإستعلاء ، فيذرهم الله في خوضهم يلعبون وفي غيهم يترددون جزاء بما كانوا يعملون « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » . فهو - اذاً - ارسال « على » وليس ارسالاً « الى » وليس إلا جزاء وفاقاً حيث كذبوا المرسلين الصالحين اليهم ، فابدهم الله بارسال الشياطين عليهم تؤزهم أزا .

فليس « يكونون عليهم ضداً » فقط في الحياة الاخرى ، بل وفي الاولى إذ تؤزهم أزا وهم يعبدونهم « ليكونوا لهم عزاً » ! وفي « يكونون » هنا وجاء « سيكفرون » لمحة لضدهم في الآخرة والاولى ، مهما اختص كفرهم - إلا الصالحين - بعبادتهم في الأخرى .

﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ﴾ (٨٤) :

« لا تعجل عليهم » بقاءهم ودمارهم إذ لا يستقلون ويغلبون أمامنا ، فلا نهملهم إلا عليهم حيث « نعد لهم » سيئاتهم البئسة وأنفاسهم التعيسة « عداً » كما قدرنا لهم فالمعدود لهم عداً هو « كل شيء حتى النفس » (١) بل « لكنه عدد الأنفاس » (٢) بما تحمل فيها كل نفس ظالمة من كوارث انحاس ! « ولا يحسبن الذين كفروا إنما نخلي لهم خيراً لأنفسهم إنما نخلي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » (٣ : ١٧٨) .

(١) الدر المنثور اخرج عبد بن حميد عن ابي جعفر محمد بن علي في الآية : . .

(٢) الكافي باسناده عن عبد الأعلى مولى آل سام قال قلت لابي عبد الله (عليه السلام) قول الله عز وجل : « إنما نعد لهم عداً » قال (عليه السلام) ما هو عندك ؟ قلت : عدد الايام ، قال الأباء والامهات يحصون ذلك ولكنه عدد الأنفاس .

ليس أمد بقاء الإنسان بتعميره إلاّ بلاءً حسناً بتعميره ام سيئاً بتدميره : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً » (١٨ : ٧) .

وليس قصر المدة ام مدّها إلاّ كما قدر لكل نفس في صالحاتها وطالحاتها « ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » فـ « لا تعجل عليهم » « ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم » (١٠ : ١١) :

﴿ يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفداً^(٨٥) ونسوق المجرمين الى جهنم ورداً^(٨٦) لا يملكون الشفاعة إلاّ من اتخذ عند الرحمن عهداً^(٨٧) :

إن بين الحشر الوفد والسوق الورد بوناً شاسعاً كما بين المتقين والمجرمين ، فالوفد هم القوم الركب الوافدون لزيارة او استنجاز حاجة وقد يحشرون على النجائب^(١) والورد هم العطاش المتحرون عن تروية لهم

(١) في محاسن البرقي باسناده عن حماد بن عثمان وغيره عن ابي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال : يحشرون على النجائب .

وفي تفسير القمي باسناده عن عبد الله بن شريك العامري عنه (عليه السلام) قال : سألت عليّ (عليه السلام) رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن تفسير هذه الآية قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا عليّ ! الوفد لا يكون إلاّ ركباً أو لك رجال اتقوا الله عز وجل فاحبهم واختصهم ورضي اعمالهم فسماهم الله المتقين . . وروى في حديث آخر تفصيل خروجهم من قبورهم وركوبهم من نوق الجنة ووفودهم الى الجنة ودخولهم فيها وتنعمهم بما رزقوا من نعمها .

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه عن عليّ (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الآية قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : اما والله ما يحشرون على اقدامهم ولا يساقون سوقاً ولكنهم يؤتون بنوق من الجنة لم تنظر الخلائق الى مثلها رحاها الذهب وارمتها الزبرجد فيقعدون عليها حتى يقرعوا باب الجنة .

فلا يردون إلا جهنم ليشربوا من حميمها ، هذا لطفواه وذلك لتقواه حيث اتقى يوم الدنيا عن ورد الجحيم ، وهؤلاء طغوا وبغوا فلهم - اذا - ورد الجحيم ! :

« لا يملكون الشفاعة » ان يشفعوا او يشفع لهم لا اولاء ولا هؤلاء « إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » وعامته عهد العبودية « الم اعهد اليكم يا بني آدم الا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » (٢٦: ٦١) وذلك نعم الشافعين والمشفع لهم ،

ثم وخاصته عهد الشفاعة كشافعين « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » (٤٣ : ٨٦) :

فلا شفاعة هناك بين العباد والمعبودين من دون الله ، إذ لا عهد لهم اتخذه عند الرحمن ، وقد زال عزهم المخيل اليهم هناك ، كما لم يكونوا لهم عزاً هنا « وخسر هنالك المبتطلون » « خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين » !

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً^(٨٨) لقد جئتم شيئاً إداً^(٨٩) .

واتخاذ ولد للرحمان ايأ كان حقيقة او تشريعاً ، إنه إذ : منكر فضيح فظيع « شيئاً » واقعاً ولن يكون ! ام قولاً زوراً فلا يهون .

﴿ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً^(٩٠) ان دعوا للرحمن ولداً^(٩١) وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً^(٩٢) :

لولا أن الله يمهل هؤلاء الحماقى الأغباش ، لكان تفطر السماوات وانشقاق الأرض وخرور الجبال هداً : في هدم واقع ساقط - واقعاً ، اذ هي « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذباً » (١٨ : ٥٠) فانهم « يقولون منكراً من القول وزوراً » « ان دعوا للرحمن ولداً » فانه الخالق

لكل شيء برحمة رحمانية : فكيف يتخذ ولدأ ؟ ابولادة ؟ وهو خالق وليس والدأ ، ام بتشريف ولا تشريف اعلى من العبودية ، والبنوة التشريعية تزييف لساحة الرحمن « وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدأ »

﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ ﴾ (٩٤).

كلهم يأتونه عبدأ ليوم الدنيا ويوم الدين ، طوعاً أتوه ام كرهاً حيث العبودية ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم ، ومهما هم أتوه هنا باموال وبنين وسائر زخرفات الحياة زينة لها وابتلاء فيها ، ولكنهم :

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۖ ﴾ (٩٥) :

« فردأ » عن كلما لديهم يوم الدنيا إلا ما قدمت لهم أنفسهم او عليهم ، فهم إذا فردأ يومئذ عما كانوا يظنون ، وشفع بما لم يكونوا يحتسبون ، فويل لهم من فردتهم وويل لهم من شفعتهم ، إلا فردأ عبدأ ، وشفعا بعبودية ! .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۖ ﴾ (٩٦) :

إن الايمان وعمل الصالحات هما في ميزان الله محوران اصيلان للود الحب ، جعلاً له قدرهما طول الزمان وعرض المكان ، مهما كان ليوم الرجعة والبرزخ واليوم الآخر عرضه العريض كل حسب ، ولكننا الدنيا ايضاً لها نصيب مهما غشيتة أية غاشية ، فانها تبرز في مواردها حجة للايمان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » :

وفي « سيجعل » الرامية الى مستقبل قريب تلميح مليح بمثلث الأيام ، مهما شمل مستقبل الايمان وعمل الصالحات منذ بزوغها واين مستقبل من مستقبل ، واين وُد من وُد ؟ :

وقد تضافرت اسباب النزول عن الفريقين في قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنها نزلت في علي (عليه السلام)^(١) وهو أعلى منزل لهذه النازلة الفاضلة كتأويل بأعلى المصاديق وأعلى منه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فإنه وده فوق وده ، فهذا - اذا - تأويل مصداق مختلف فيه في قمة الود ، يذكره الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كأنه فقط ذلك الود وترفعاً لمنزلته وتثبيتاً لمحتده ، وهذا لا ينافي في عموم الآية لـ « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ككل كما هو منطوقها وقد نطق به الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)^(٢) :

« فإنا يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً »^(٣) وكم اهلكنا قبله من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً »^(٤) .

« يسرناه بلسانك » لا فقط « بلغتك » فمن العربية ما هي صعب التفهم ومن غيرها سهلة ، ولكن القرآن العربي اليسر في نفسه بلسان محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بياناً له وتبياناً ، فيه مثلث بارع

(١) القمي باسناده عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام) قلت قوله عز وجل « ... سيجعل لهم الرحمن وداً » قال : ولاية أمير المؤمنين هي الود الذي ذكره الله ، وفي الدر المنثور اخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) قل : اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي عندك وداً واجعل لي في صدور المؤمنين مودة فانزل الله الآية ...

(٢) الدر المنثور اخرج الحكيم الترمذي وابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال : سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قوله « سيجعل لهم الرحمن وداً » ما هو ؟ قال : المحبة في قلوب المؤمنين والملائكة المقربين ، يا علي إن الله أعطى المؤمن ثلاثاً : المتعة والمحبة والحلاوة والمهابة في صدور الصالحين .

من التيسير ، وهذه سنة دائمة للرسول ان يرسلوا بلسان قومهم ، لا فقط بلغتهم : « وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (١٤ : ٤)
 « فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » (٥٨ : ٤)

فالتبيين بالقرآن والتبشير والإنذار والتذكار ، كل ذلك على ضوء مثلث التيسير تاخذ مسيرها في العالمين كأوضح ما يمكن بياناً للقرآن العظيم ، الذي « فيه تبيان كل شيء » حاوياً كافة المعارف الممكن التعرف اليها وحيّاً الى البشير النذير ، تبشيراً للمتقين وإنذاراً لقوم لئلا يؤثر فيهم التبشير « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

« يسرناه بلسانك » بعد ان كان عسيراً في ام الكتاب : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم » (٤ : ٤٣) تيسيراً للمحكم بتفصيل ، وتيسيراً ثان تفصيله باللغة العربية ، وثالث تفسيره ببيان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تبيناً للقرآن بنفسه إذ يفسر بعضه بعضاً ، وتبييناً ثانياً يستمر .

« وكم اهلكنا قبلهم من قرن » جماعات في قرون مضت قرن بعض وتلوه « هل تحس منهم من أحد » أثراً « او تسمع لهم ركزاً » صوتاً ، فلا صيت لهم ولا صوت ، وانما موت دون فوت .